أرض الوجوه السمراء



تأليف

چون بوخهلتسر

ترجمة

رمزى يسى

مراجعة

الدكتور محمد محمود الصياد

الألف كتاب

٤٨٤

أرض الوجوه السمراء

باشراف

الادارة العامة للثقافة

بوزارة التعليم العالى

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

دار الحمامي للطباعة
شارع الجيش - ٢ كنيسة الأرمن

الألف كتاب ٤٨٤

أرض الوجوه السمراء

تأليف
جون بوخهلتسر

ترجمة رمزي يسى
مراجعة الدكتور محمد محمود الصياد

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩

١٩٦٣

هذه ترجمة لكتاب :

THE LAND OF BURNT FACES

تأليف :

JOHN BUCHHOLZER .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للأستاذ الدكتور محمد محمود الصياد
وكيل كلية البنات بجامعة عين شمس

الحبشة من البلاد التى تربطنا بها صلات كثيرة متعددة ، تتحدث عنها كتب التاريخ القديم والحديث على السواء ، بل إن صلتنا بالحبشة أقدم من التاريخ نفسه ، فالنيل الذى خلق فى مصر حضارة عاشت على الزمن يدين بوجوده للحبشة وما تمده به من مياه ، فهو يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة ولما يزل فى سهول السودان ، وكان يمكن أن تنتهى حياته عند هذا الحد لولا عون يأتيه من أخيه الحبشى « النيل الأزرق » فاذا بساعده يشتد ، وإذا به يواصل رحلته نحو الشمال نشيطاً قوياً كأنما استعاد شبابه الذى ضاع !.

ولو أن « هيرودت » عرف عن النيل أكثر مما كان معروفاً فى عصره لاستبدل بعبارته المشهورة « مصر هبة النيل » عبارة أخرى أصدق دلالة وأوسع معنى ولقال : « إن مصر هبة غرين الحبشة » فذلك الغرين المغبر الذى تحمله أنهار الحبشة الفتية هو الذى ردم خليجا طويلا من البحر المتوسط ، فإذا بالخليج يصبح سهلا منبسطا موفور الخصب ، يتيح للحضارة المصرية — أعظم ما عرف التاريخ القديم من حضارة — أن تنمو وتزدهر .

ومع هذه الأهمية التى للحبشة فقد ظل علمنا بها قليلاً لا يتناسب مع مالها فى حياتنا من منزلة ومكان ، وحسبك أن تبحث فى المكتبة العربية فلا تجد عن الحبشة إلا النذر اليسير ، ومن ثم كان لابد أن نرحب بكل ما يكتب عن الحبشة

فى أى لغة من اللغات . وأن ننقله إلى لغتنا العربية لنستزيد من العلم بهذا الجزء من وادى النيل الحبيب .

والكتاب الذى بين أيدينا من الكتب الممتعة حقا عن « أرض الوجوه السمراء » وهذا هو معنى كلمة اثيوبيا التى صارت علما على تلك البلاد ، وهو يروى قصة بوخولفسر الدينمركى المتخصص فى الزراعة الذى حمله إلى إثيوبيا سعيه وراء حقل يمتلكه أو مزرعة يديرها ، وقد تطلب منه البحث عن الوظيفة أن يمكث فى أديس أبابا فترة مكنته من أن يحيا حياتها وأن يعرف الكثير من أسرار تلك الحياة ، ثم قاده سعيه وراء الأرض إلى أن يطوف بأرجاء البلاد ، شرقها وغربها وجنوبها والشمال ، فعرف الفلاحين وهو يتنقل فى قراهم ، والبدو وهو يجوب صحاريهم ، وتحدث إلى الرهبان ، وتعرف بالسحرة المشعوذين ، وحضر الحفلات والمآتم وشارك القوم فى طعامهم ومسكنهم . ولكننا مع هذا لانستطيع أن نطمئن إلى كل مايذهب إليه ، فكثيرا مايستبد به الغضب فإذا بقلمه جامح فى يده . وإذا به يكيل الاتهامات بلا حساب ، وإذا بعباراته لا تخلو من شطط يحتاج إلى تهذيب ، وإذا بأحكامه لاتخلو من اعوجاج لابد من تقويمه ، وقد راعينا ذلك فى الترجمة العربية دون أن نخل بسياق الحديث كما يرويه صاحبه .

ولم يكن بوخهلتسر صحفياً يبحث عن الأخبار المثيرة ، أو مؤلفاً يجمع مادة جافة للكتاب ، وإنما هو رجل يبحث عن بيت ، ويسعى وراء رزق ، ومن ثم فأنت تشعر فى حديثه بالبسالة التى لايشوبها زخرف . وتنتقل معه إلى أرجاء الحبشة فترى مايرى وتسمع مايُسمع

ومن هنا كانت طرافة الكتاب الذى وضعه صاحبه فى الدينمركية وهى لغة لا يعرفها إلا بضعة ملايين ، ولكنه بسبب هذه الطرافة نقل إلى الفرنسية والإنجليزية ولما يمض على ظهوره وقت طويل ، وعن الترجمة الانجليزية ينقل الكتاب اليوم إلى اللغة العربية ، ونرجو أن يكون فيه لقارئه من النفع مايتناسب مع الجهد الذى بذله المترجم فى تعريبه .

وعلى الله قصد السبيل

محتويات الكتاب



وجه جميل من أرض الوجوه السمراء

الفصل الأول

من جيبوتي إلى أديس أبابا

كان الوقت مساء في جيبوتي . والقطار الذي كان يجب أن يغادرها إلى أديس أبابا قبل ذلك بساعتين لا يزال واقفاً بالمحطة . وكانت قاطرته الشبيهة باللعبة تصفر صفيرا مزعجاً لا نهاية له ، تعقبه قفزة إلى أمام تقرقع لها عرباته الأربع ، ثم لا شيء غير هذا . وكان هناك رجل فرنسي يجري جيئة وذهابا على الرصيف في ارتباك يبعث على الضحك ، ممسكا بعصا عليها علم صغير أصفر . وقد حاول صوماليان التسلل إلى داخل العربة الخلفية ، فلحق بهما الرجل الفرنسي بوثبة واحدة وانهال على رأسيهما الجعدين ضرباً بعصاه .

كانت عربة الدرجة الأولى نصف خاوية ، والمراوح معطلة . وجلست هنالك لاهثا يتساقط العرق في سروالي وحذائي ، وجلس على المقعد المقابل رجل يوناني سمين يلعن ويسب دون انقطاع ، وكانت أصابعه الغليظة تتحسس بعض أوراق تتصل بعمله ، وكلما حدثت رجة أصدر خواراً أشبه بخوار الثور الهائج الفائز بالجائزة وازداد ارتباكه ، حتى سقطت أوراقه على الأرض وعاونته على التقاطها .

وأعلن وهو يقدم نفسه أن اسمه « باپاهوپاكيلس » ، ثم صب كل سخطه على القطار والفرنسيين ، وتأوه والعبرات تكاد تخنقه لأن لديه أعمالا في عدن وفي أديس أبابا ، وأنه مضطر إلى السفر بين البلدين مرة في كل شهر .

وسألته « لماذا لا تسافر بالطائرة ؟ »

فأجابني وهو يمسح وجهه بمنشفة خشنة كان يلفها حول عنقه : « إنني لا أجرؤ على السفر بالطائرة » .

وبدأنا الرحلة آخر الأمر . وبعد وثبات قليلة عنيفة هبطنا ببطء مبتعدين عن هذا المكان ، الذي تخلى عنه الله ، بذبابه وعفنه وحرارته ، حيث يفتك بكل شخص

من البيض والملونين على السواء ، بمن يستطيع الفتك به ، وحيث يسير البائسون التعساء المرضى بداء الفيل أو الجذام ، والمكفوفون والعاجزون ، يدبون فى ظل جدران المنازل يلتمسون الإحسان . إن جيبوتى تئز القيح وتقاسى من شدة الحر .

وسرعان ماخرجنا إلى عرض الصحراء ، وكانت الليلة مقمرة ، والتطلع إلى ذلك الخراب تضيق به النفس : برية أخذ يتطرق إليها الموت — جرود ، رمال وصخور ، صخور ورمال محترقة تطهرها الشمس كأنما اللعنة الأبدية قد أصابت كل شىء هنالك . وتقع الصحراء فى بعض المواضع على ارتفاع عدة مئات من الأقدام تحت سطح البحر ، فهى قاع بحر قديم ، وجزء من ذلك الأخدود العظيم الذى حدث فى القشرة الأرضية ، والممتد من البحر الميت إلى البحيرات العظمى فى إفريقيا الوسطى ، والبحر الأحمر نفسه جزء من هذا الأخدود ، ولا يحول دون تدفق المياه إليه ، وعودتها إلى قاع البحر مرة أخرى غير تلك السلسلة الرقيقة من التلال الممتدة على طول الساحل .

كانت العربة التعسة المتأرجحة تهتز وترتج ، وسرعان ماغمرنا التراب الأصفر ، ولم تكن مقصورتنا فى الحقيقة من ذلك الطراز الذى تستطيع أن تصفه بأنه مريح ، إذ كان بها مقعدان من الجلد اليابس ، يعلو كلا منهما مقعد آخر قريب من السقف يمكن سحبه لتحصل على أربعة أسرة . واجتزنا الشقة الأولى من الصحراء ليلا على غير ماجرت به العادة حين كان هذا السفر تحف به الأخطار ، ولكن سكان الصحراء قد انسحبوا الآن إلى أجزاء أكثر هدوءاً تاركين خط السكة الحديدية وشأنه .

وتابعنا السفر ليلا حتى بلغنا حدود إثيوبيا التى يميزها مصباح وسنان وعلم صغير يرتفع فوق كوخ متداع من الطين . وقلب الإثيوبيون المتزمتون جميع محتويات حقائبنا رأساً على عقب ، واشتركوا معاً فى فحص جوازات سفرنا من كافة الوجوه . ومن الواضح أننا لم نعد بعد نتعامل مع رجال الشرطة الصوماليين

المتفرنسين الباسمين المهذبين ، بل نعامل أناساً هم سادة بلدهم ، وهم وحدهم الذين يقررون مايريدون . وكان « پاپا هوپاكيلس » قد أوقع نفسه فى كثير من المتاعب ، وذلك أنه كان يحمل حقيبة مليئة بالخرز الزجاجى والأقراط والحلى المذهبة فأرادوا أن يتقاضوا منه ضرائب خيالية باهظة ، فلما رفض أداءها صودرت الحقيبة ، وأخبروه بأنها سترسل إلى « جمرك » أديس أبابا حيث يستطيع استعادتها ؛ ولم يكتشف أنه لم يعط عنها إيصالا إلا بعد أن ذهبوا ، فجرى وراءهم يسب ويلعن ، ليعود بعد قليل وقد ازداد وجهه احمراراً عن ذى قبل وهو يلوح بقصاصة من الورق .

وقال وهو يزفر مغتاظاً : « قالوا إنهم غفلوا عنه ! ! ! إنهم جميعا فى هذه البلاد ، لصوص وغشاشون . . . إنهم لكذلك » .

فقلت محتجاً : « لابد أن هناك أناساً أمناء دون شك » فكانت إجابته بصقة موجهة إلى العلم المرفوع على الكوخ ، سقطت على مسافة قريبة منه . وعندما هدأ هياجه أخرج كعكا وجبناً ونبيذاً واشتركنا معه فى تناول عشاء خفيف قبل النوم .

أخذ ضوء النهار ينبلج فى نحو السادسة . وكان ينمو هنا وهنالك قليل من الأجمات الشوكية ونبات الصبير ، وكنا نقف كل نصف ساعة أو نحوها على « محطة » هى خليط من الأكواخ الحقيرة المشيدة من الأحجار والطين والعصى شدت إلى بعضها البعض بطريقة ما من الطرق العجيبة ، واضطررنا إلى شراء ماء قذر قدم لنا فى علب قديمة من علب الأطعمة المحفوظة ، وانشغل الأطفال الذين تغطى أجسامهم طبقة كثيفة من أقذار الصحراء ، ومئزر من القماش أو أقذار الصحراء وحدها ، بالصعود والهبوط من القطار صائحين بطلب الإحسان : « بقشيش . . . بقشيش ! » .

ووصلنا «ديردانا» قرب الظهر، وهى فى منتصف الطريق إلى أديس أبابا، وكانت عربات البضائع ملأى بالبرتقال والموز، وعربات الدرجتين الثانية والثالثة تعج بالأحباش وأغنامهم وماعزهم وربطات دجاجهم.

واشتغل «پاپاهوپاليكس» كثيرا فى أثناء وقوف القطار بالمحطة فى مناقشة أسعار البن والجلود مع أناس مختلفين من اليونانيين والعرب، يبدو أنهم كانوا ينتظرون مجيئه، وحين عاد إلينا جلس فى رفق يتمتم بالصلاة؛ تاركا حبات مسبحته الصفراء تنزلق من بين أصابعه. ولم نكد نخرج من المحطة حتى شملت القطار هزة مفاجئة تركتنا دون حراك.

وتأوه «پاپاهوپاكيلس»، وقفزت حبات المسبحة من بين أصابعه وهو يقول: «آه، آه! هؤلاء الفرنسيون، هؤلاء الزنوج يجأرون مرة أخرى كالسكارى... يمكنكم أن تراهنوا على ذلك... فلنخرج من القطار قبل أن يحدث ما هو أسوأ».

وأسرعنا بالخروج لنجد قاطرتنا الصغيرة اللطيفة راقدة على جنبها فى صورة محزنة والبخار ينثر من صماماتها... لقد نسوا فقط تحويل الخطوط، ولكن الأمر اقتضى بضع ساعات قبل أن يعيدوا القاطرة إلى قضبانها.

واستأنفنا رحلتنا المجهدة فى ساعة متأخرة من بعد الظهر، فأخذ طابع البلاد يتغير فى بطء، ويتزايد خصبها شيئا فشيئا، وأخذت تظهر آنئذ الأشجار الظليلة، وتنمو الأجمات من بين الحشائش الجافة الصفراء التى تستخدم فيما يبدو غذاء لقطعان الإبل الوافرة العدد، وبدأنا نرى القرى بحقولها المنزرعة والنساء يعملن فى جمع محصول الذرة، وقطعان الأغنام والماشية.

ووقفنا فى منتصف الليل بمحطة بها فندق صغير كان علينا أن نقضى فيه ليلتنا، واقتحم نفر من الحمالين مقصورتنا، وأخذوا يشدون ويتجاذبون حقائبنا، فتكاتفنا على طردهم جميعا إلى خارج المقصورة؛ وقامت مخالب

«پاپاهوپاكيلس» بدور ممتاز، فقد مضى واحد أو اثنان منهم يندب حظه، ثم استخدمنا ثلاثة منهم واتبعنا ترتيبا آمنا. پاپاهوپاكيلس فى المقدمة وأنا فى المؤخرة، وذلك حتى نسد أمامهم طريق الهرب بمتاعنا تحت ستار الظلام إن حدثتهم نفوسهم أن يفعلوا - وهكذا سرنا إلى الفندق حيث استقبلنا مع ركاب الدرجة الأولى، صاحب الفندق وهو رجل أرمنى مهمل الهندام بيده مصباح مكين، وأكد لنا فى لغة فرنسية مهذبة أن هناك غذاء شهيا ينتظرنا؛ وأن المبنى كله سيسبح فى الضوء الكهربائى بعد قليل، وأنه سيذهب لتشغيل المولد الكهربائى ويصدر أوامره للمطبخ ريثما نستريح قليلا.

ووضع المصباح على المائدة التى جلسنا حولها، فكنا أشبه بجماعة عائلية عرف بعضهم بعضاً من قبل. ومنذ تلك اللحظة أخذ كل منهم يقص حكايته المثيرة أو الصاخبة، أو حتى المحزنة، فقد جلس هناك السويسرى الذى كان يقتنص الوحوش المفترسة فى الهند وأمريكا الجنوبية، وهو يريد الآن أن يصيد السباع فى إثيوبيا، وإلى جانبه يجلس رجل ألمانى مع زوجته المسنة، وكانت لهما فى الثلاثينات من هذا القرن أعمال مزدهرة فى أديس أبابا، كما كان لهما أربعة أطفال، ثم حدث بعد ذلك الغزو الإيطالى سنة ١٩٣٥، وأخذ الموقف ينذر بالخطر شيئا فشيئا، وازدادت كراهية الأجانب والخوف منهم. وفى مستهل عام ١٩٣٦، حين حدث الانهيار العام، واستولى الغوغاء على السلطة، رحل معظم الأجانب إلى جيبوتى لإنقاذ أرواحهم، وبقى الألمانى هنالك ينتظر السماح له بالعودة، ولكن الإيطاليين لم يرغبوا فى وجود أجانب آخرين هناك. وهكذا كان لابد لجميع أفراد هذه العائلة الألمانية من الرجوع إلى ألمانيا، وسرعان ما واجهتهم هناك الحرب العالمية الثانية، فقتلت إحدى القنابل الأطفال الأربعة، وفقد الرجل إحدى ساقيه فى جبهة القتال. وقد أرسل أحد الأصدقاء القدامى إلى الزوج وزوجه بعض المال لتكاليف السفر. وكانا يأملان بطريق أو بآخر تحقيق النجاح فى حياتهما مرة ثانية فى البلاد التى نجحا فيها إلى حد بعيد فى شبابهما،

وهناك تجلس السيدة الإيطالية العجوز المزمعة على زيارة زوجها بعد فرقة دامت خمسة عشر عاما ، ولم يكن هو ممن يحبون كثيراً كتابة الخطابات ، ولكنه كان يرسل إليها قليلا من المال بين الحين والحين ، ومع ذلك فقد كانت تحتفظ ببقية ضئيلة منه تسمح لها بالسفر إليه ، وسيكون عملها هذا بمثابة مفاجأة له ، إذ أنه لا يعرف شيئا مطلقا عن ذلك كما أخبرتنا هي وعيناها تلمعان بالفرح ، فأجبنا على فرحها بالابتهاج ، ولكن كان لنا رأى خاص فى ذلك ، ووددنا لو كانت هناك طريقة ما يعرف بها الرجل شيئا عن عزمها لتحاشى وقوع تلك المأساة والحزن . وكانت معها فتاة ناضجة ، هى الابنة الوحيدة التى رزقا بها قبل أن يجند ويرسل إلى إثيوبيا .

جلسنا هناك متعبين يعلونا القذر ، وكان يصل إلى سمعنا بعض الضوضاء من المحرك . ومضت فترة أخرى قبل أن « تسبح » الحجرة العارية وجدرانها ذات الملاط الحجرى الخشن فى ضوء مصباحين خافتين . وبعد تناول وجبة من الطعام تعافها النفس يحتوى الطبق الأساسى فيها على شيء من أمعاء الضأن ـ ولا تزال مسألة استساغة أى شخص لمثل هذا الطعام لغزا بالنسبة إلى ـ عرض علينا صاحب الفندق فى زهو بعض حجرات ضيقة أسرتها ذات حشايا بالية ، ونوافذ ذات قضبان حديدية .

واستيقظنا قبل انبلاج الصبح على صوت صفير القاطرة ونهضنا لنواجه آخر وثبة ، ولكنها كانت أيضا أجمل وثبة لأنها نقلتنا إلى بلاد ذات مساقط مائية وبحيرات صغيرة بها آلاف من طيور البشروش واقفة تستعرض منظرها ، وعلى شجرة ذات أغصان شمعدانية يجثم أبو منجل ينقر قرون البذور ، ثم يدور برأسه الأسود الفاحم ليرقبنا فى أثناء مرورنا ، وكان جسمه الأبيض كالثلج يلمع ويضيء بين الأعواد الخضراء الشبيهة بنبات الصبير .

وأخذنا ندور ونلف مصعدين بين إقبال وإدبار ، نشق طريقنا حول جبال

ذات فوهات بركانية خامدة ، ونجتاز ميلا يعلوه ميل من حقول اللابة التى تتصاعد منها أعمدة من بخار الينابيع الساخنة تلمع فى ضوء الشمس ، وتنبسط فوقها كتل ضخمة من الصخور ، ونعبر خنادق عميقة شديدة الانحدار ، على قضيبين لحسب من الحديد يمتدان تحت المعبر ويكونان دعامتى قنطرة . أما القردة التى كانت فيما يبدو تقضى وقتها بين القضبان ، فقد انفسح لها الوقت لتهرب قبل أن نصل إليها .

وكان من الممتع بعد تلك الحرارة الشديدة أن نبلغ تلك المرتفعات حيث كانت الرياح تهب بليلة ، ويبعث التنفس من هوائها لذة ، كالظامىء يعثر على نبع ماء بارد يجدد فيه النشاط .

وظللنا نقف على محطات لاحصر لها ، ومراكز صغيرة للتجارة استقر بها بعض العرب يزاولون فيها أعمالهم مع القوافل المارة ، ولكل مركز منها مسجده الصغير . وتقوم النساء بصب القهوة من أباريق فخارية يتصاعد منها البخار ، ويعرضن للبيع الفطائر الساخنة التى يقطر منها الزيت . ويتنقل فنجان متشقق من فم إلى فم بين ركاب الدرجتين الثانية والثالثة ، ولكن الثمن أولا ! ! فهم لا يثق بعضهم بالبعض .

وفى ساعة متأخرة بعد الظهر ، وقع نظرنا لأول مرة على مدينة هيلسلاسى .. لم تكن هناك مدينة حرية بالرؤية . فهى كلها من الخشب ، وليس فيها أى دليل على الحضارة ، ومن حولها ترتفع الجبال .. لقد قضينا خمسا وأربعين ساعة لقطع مسافة تبلغ ٥١٠ أميال ، ودلفنا ضجرين إلى إحدى سيارات الأجرة فأقلتنا إلى قلب المدينة .

الفصل الثانى

مدينة الهضبة

يرجع الفضل فى تشييد كثير من المدن إلى المصادفة ، وتعجب الأجيال التالية من سبب قيامها فى أماكنها هذه ، فى حين أن موقعا آخر أبعد من هذا قليلا يفضله كثيراً ، إما لأنه أكثر ملاءمة من حيث المناخ أو سهولة النقل

ويصدق هذا على أديس أبابا ، إذ أنها تقع فى مكان عظيم الارتفاع - أكثر من ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر — حتى أنك حين تسير فى موسم الأمطار يكاد رأسك أن يكون قريبا من السحب . ويسقط خلال تلك الأشهر الثلاثة ستمائة بوصة من الأمطار مما يعطيك فكرة واضحة عما يمكن أن تكون عليه حالة الفيضان ، ومن ناحية أخرى يندر وجود الماء إبان العام بدرجة مخيفة ، كما أنه لا ينمو فى المناطق المرتفعة بطبيعة الحال شىء ذو أهمية ما . ولابد من جلب الفاكهة والخضر من مسافات بعيدة حتى لا يكاد يتناسب سعرها مع قيمتها الحقيقية .

ولكن الإمهريين ، وهم المحاربون القدماء الذين يسكنون فى قلب البلاد ، يحبون المرتفعات التى تسكنها الطيور الجارحة ، ويفضلون هواء الجبال الرقيق على حرارة الأراضى الوطيئة ، وهم لا يستطيعون الحياة فى المنخفضات فى بخر السهول الثقيل ، ولم يكن يغريهم فى الماضى بترك الجبال غير الحرب والغزو وهم ما فتئوا لا يوافقون إلا كارهين على العمل فى الوظائف الرئيسية فى الشرطة والإدارة المدنية التى تعنى ذهابهم إلى أماكن بعيدة عن البلاد ويتأثر عملهم تبعا لذلك .

كان الإمبراطور منليك هو الذى اختار هذا المكان لسكناه فى الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر ، لسبب وجيه هو أنه مغطى بأشجار الأرز ولا تظنه من عشاق الجمال هوايته أن يقضى أوقات فراغه فى تأمل أشجار الأرز ، لا ، بل إن بواعثه على الإقامة بين أشجار الأرز كانت بواعث نفعية خالصة ، ذلك أنه كان بحاجة إلى أخشاب الوقود فى مطابخه .

وفى مدى خمسة أعوام أو ستة أتت النار على جميع الأشجار ، وأراد منليك الانتقال إلى مكان آخر ، إذ جرت العادة هناك — حتى عند الملوك والأباطرة — أن ينتقلوا وراء الخشب ، غير أن إثيوبيا فى ذلك الوقت كانت قد سلطت عليها الأضواء الساطعة بوصفها بلاداً ذات أهمية استراتيجية وكان منليك على غرار نابليون ، فحينما غزا الإيطاليون البلاد فى أواخر القرن الماضى وأصابهم بضربة قاصمة أسرعت الدول بإنشاء مفوضات فى أديس ابابا لتكون عيونا عليه . وكان البناء على الطراز الأوربى هناك كثير التكاليف ، إذ كان لابد من جلب معظم الأشياء من الشاطىء بواسطة القوافل ، ولذلك أبلغت الدول منليك أنها لاتحب أن تخرب مفوضياتها كلما تراءى له الانتقال وحضر أحد الألمان المتخصصين فى النبات لإنقاذ الموقف ، وحمل معه أشجار الكافور الاسترالية السريعة النمو ومن ثم أصبحت أديس أبابا اليوم تقع فى وسط غابة تؤرج جوها أشجار الكافور العطرة .

إنك لتقف مندهشا أمام هـذه المدينة التى تتكون فى جملتها من الأكواخ الطينية وكأنما هى قرى غير متناسقة لاحصر لها ، نقلت وألقيت إلقاء دون تخطيط بين أشجار الكافور ، ثم أنشئت بعد ذلك الطرقات الملتوية التى توصل بين القرية والأخرى . إن الحياة بين الأكواخ مبهجة وبدائية معا ، فالرجال يثرثرون ، والأطفال يلعبون ، والنساء يطحن الذرة بأسلوب العصر الحجرى بين قرصين مستويين من الحجر ، ويسحقن الفلفل أو يعجن روث الأبقار فى أقراص مستوية يضعنها فى العراء لتجف فى الشمس ، وهى تهيىء لهن كمية وافرة من الوقود يستخدمنه إبان موسم المطر .

وجميع الأكواخ الممتدة على طول الطرق الرئيسية ، إما فنادق وإما بيوت لهو يستطيع أدلاء القافلة والحماررون الذين أحرقهم الجفاف وكساهم الغبار أن يجدوا فيها العزاء . أما فى الأمسيات فالجلبة المرعبة ، حيث يجلس الرجال على مقاعد

منخفضة ، وإلى جانب كل منهم على الأرض باطية من نبيذ العسل . ويجلس فى أحد الأركان موسيقى ينقر على قيثار بسيط ، وترقص بعض النسـوة فى رحبة مكشوفة بوسط الكوخ ، فى وزراتهن الحريرية الزاهية الألوان .

وبالمدينة نحو سبعة أو ثمانية طرق مكسوة بالقطران ، أما بقية الطرق فدروب . ويقع حى الأعمال فى وسط المدينة حيث يملك اليونانيون والأرمن متاجر كبيرة تستطيع أن تشترى منها السلع المجلوبة من شتى أنحاء العالم ، ولكن جميع البضائع المستوردة باهظة الثمن إلى حد مخيف ، فالرحلة الطويلة بالسكة الحديدية من الساحل ترفع جميع الأثمان ، هذا إلى ما تتقاضاه الجمارك الإثيوبية من ضرائب ثقيلة .

وهناك داران للسينما فى الشوارع الرئيسية ، وتدوى مكبرات الصوت طوال النهار بالموسيقى الصاخبة ، ويقف الصوماليون القادمون لتوهم من عزلة الصحراء بملابسهم الزاهية الألوان وخناجرهم الفتاكة معلقة على أردافهم ، والجالا فى ملابسهم الجلدية ، والرماح بأيديهم والدهن يغطى شعرهم يقفون مندهشين ينصتون إلى هذه الموسيقى العجيبة . وتدور مناقشات لانهاية لها حول الإعلانات الكبيرة المعلقة بدبابيس الرسم فوق اللوحات الخشبية ، وتهتز الرءوس ، ويضحك القوم بصوت مرتفع من غرابة الرجل الأبيض

والحياة فى أديس أبابا ، وهى مدينة فقيرة فى بلاد فقيرة - خليط من العصر الحاضر والعصور الوسطى ، من الثراء والفقر المدقع ، ففيها رجال ونساء أنيقات سمان يركبون البغال ، ولديهم حشد من الخدم يجرون خلفهم . وهناك موظفون حكوميون متفرنجون يحتذون النعال ويرتدون الملابس الإفرنجية والمعاطف الشتوية والقبعات ويتصببون عرقاً تحت الشمس المحرقة ، ولكنهم على الرغم من ذلك مغتبطون بأن يظهروا لبقية سكان المدينة أنهم متمدينون ثم هناك أصحاب الأسمال البالية ، والأجساد النحيلة ، والأقدام الحافية وهم الأغلبية الساحقة .



الشارع الذى يمضى بك إلى أجمل أحياء المدينة حيث مساكن الطبقة الراقية والأجانب

ويمد المتسولون أيدى الضراعة من الجحور والزوايا ، ويعرضون مختلف ألوان تعاستهم : أذرع وسيقان واهنة ، أو ساق بها قرحة كبيرة متقيحة .

وهناك أيضا شبان يتسولون ، وليس بهم عمى ولا عرج ، ويرتدون ملابس نظيفة نسبيا . سراويل قصيرة وقميصا ، ويعرفون قليلا من الإنجليزية . فإن سألتهم لماذا يتسولون ولا يعملون ، أجابوك متأففين ، إنهم كانوا بالمدرسة وليسوا حالين . ويصل فى كل عام إلى العاصمة حشد من الشبان قضوا بالمدارس ثلاث سنوات أو أربعا — إما بإحدى مدارس التبشير وإما بالمدارس الحكومية — ثم قدموا على أمل أن يخلو لهم مكان بإحدى المصالح الحكومية المكتظة حاليا . لقد تعلموا القراءة والكتابة ، وهذا هو كل شىء تقريبا ، ولكنهم يعدون أنفسهم مثقفين إلى حد كبير ، وأن الطريق إلى الوظيفة الوزارية مفتوح أمامهم . وقد يحصل البعض على وظائف وينتهى البعض إلى الخدمة فى منازل الأجانب ، ويصبح البعض مجرمين .

ماذا ينبغى أن يفعل « شخص متعلم » تعس حين لا يجد لنفسه وظيفة فى مصالح الحكومة ؟ إنها مشكلة غير قابلة للحل وستظل قائمة إلى أن تتعلم أغلبية الشعب ، ولا تكون القدرة على القراءة والكتابة شيئا غريبا لا يستطيعه إلا الأقلون .

والعرب بعمائمهم وقباقيبهم الخشبية يدبون بها على أرصفة الشارع ، والنساء الهنديات يرتدين « السارى » الجميل ، وشارات الطبقة على جباههن ، والحلى على زوايا أنوفهن ويتبخترن برشاقة وهن يتخطين الحفر ، وتكشف نعالهن عن أظافر أقدامهن المطلية بالخضاب الأحمر ، ويرطن القوم بجميع لغات العالم ، وتتجمع هناك جميع الأجناس البشرية والجنسيات ، حتى لكأن البشر جميعا قد أرسلوا ممثلين لهم فى أديس أبابا .

وينفخ رجال الشرطة فى صفاراتهم يحاولون تنظيم حركة المرور المجنونة ، ويجرى الأطفال العراة هنا وهناك بين السيارات الأمريكية الحديثة والحيوانات المتداعية ، بينما لا تزال العربات ذات العجلتين التى تجرها الخيول الهزيلة بين « عريشين » - وهى وسيلة النقل الشائعة - تزيد الأمور تعقيداً وتساعد على تقصير أعمار الأولاد والخيير المرتبكة .

كانت إثيوبيا لعدة قرون سلفت ، بلاداً لا يحدث فيها جديد ، بلاداً شاعرية تسلب اللب ، بعيدة منيعة ، ذات سحر غامض لم ينقص منه بحال من الأحوال ما ذكره عنه بعض السياح ممن زاروها ونجحوا فى الخروج منها ، ومفروض أن كنز ملكة سبأ ، ومناجم الملك سليمان موجودة فيها فى مكان ما ، وإنها بلاد مليئة بالذهب والماس والعاج .

وكان الإمبراطور منليك الشهير ، هو الذى ترك فى أخريات القرن الماضى الباب نصف مفتوح أمام العالم الخارجى ، فبدأت الأحداث تأخذ مجراها ، وأنشىء خط حديدى ضيق مفرد بأموال فرنسية وصل إلى أديس أبابا عام ١٩١٧ ، ومن ثمة اكتسبت المدينة أهمية تجارية ، وارتفع شأن اليونانيين والعرب والهنود والمصريين واليهود حتى أصبحوا أمراء التجارة الصغار ، بل لا تزال لهم السيطرة على معظم المتاجر حتى الآن .

وخطت المدينة خطوتها التالية قدما على عهد موسولينى عندما أصبح سيدالبلاد من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٤١ ، وعمل فوراً على تنمية تلك الأراضى الخصبة ، وتدفقت على البلاد أموال طائلة لا مثيل لها فى تاريخ الاستعمار ، وصدرت إليها الآلات والمواد ، وانتقل إليها آلاف العمال ، ولكن جهود إيطاليا الضخمة لجعل مستعمرتها الجديدة جزءاً من إمبراطورية تكتفى نفسها بنفسها لم تكلل بالنجاح . غير أن اقتصاديات البلاد قد تحسنت تحسنا عظيما بوسائل قاسية كاستخدام القهر والسخرة ، وبدأت مصانع صغيرة كثيرة فى العمل ، ولا يزال عدد منها يعمل

ويدير معظمه الإيطاليون . وهى تقوم بصنع الأحذية والمنسوجات والسجاير والمكرونة والأسمنت والطوب .

وأصبحت أديس أبابا المركز الإدارى المزدحم . وكان لابد أن تصبح صالحة للسكنى بأسرع مايستطاع ، فشقت الشوارع ذات الأرصفة ، وكانت من قبل طرقات موحلة ، وشيدت « الفيلات » الأنيقة للموظفين الإيطاليين ، والعمائر ذات الطوابق للكتبة والعمال ، وأنشئت مرافق المياه ومحطة قوة محركة ، وأدخلت عملية المجارى . وفى مدى عامين أصبحت بعض الأحياء القذرة الموحلة وكأنها مدينة حديثة تماما ، مزودة بالحمامات وبمحطة للاتصال اللاسلكى .

ولكن وجد الإثيوبيون أن من العسير الاستمرار فى هذا التقدم إلى أبعد من ذلك ، فهم عاجزون عن العمل بطريقة منظمة ، ويضيعون الكثير فى الكلام والدسائس ، وهم كغيرهم من البلاد المتخلفة لديهم خطط عظيمة وقدر كبير من الإحصاءات التى تظهر تقدم البلاد وسلامة اقتصادها ، ولكن هذا يجب أن يؤخذ بشىء من الحذر ، فلن يكون التقدم هناك إلا بطيئاً ، والشعب قانع ببدائيته ، وليس للخبراء الأجانب ما يعملونه إلا القليل .

وأياً كان المكان الذى تحل به المرأة ، ومهما كانت الظروف البدائية التى تقابلها فيه ، فلن تمضى ساعات طويلة حتى تنهمك فى إعداد بيتها ، وهكذا كانت الحال مع تلك التى رافقتنى بإخلاص إلى إثيوبيا - لقد قطعت « الشمة Shamma » - وهى قطعة من نسيج القطن غير المتقن ذات حواش ملونة يغطى بها الإثيوبيون أكتافهم - إلى شرائح وعلقتها كأستار ، وجلبت من السوق موائد ومقاعد من الغاب المضفور المربوط بسيور من جلد القرد .

وبقى إعداد كمة المصباح مشكلة بعض الوقت ولكن حاسة المرأة بالنسبة إلى فائدة الأشياء وأثرها الزخرفى لا تكذبها مطلقاً . وجاءت فكرة الكمة من المظلات المبتكرة التى يحملها الإثيوبيون فى المرتفعات لحماية بشرتهم الرقيقة ،

فهم حريصون أشد الحرص على ألا يختلط بينهم وبين الزنوج الذين يعتبرونهم جنساً وضيعا . وقد اخترعوا قصتهم الخاصة عن الخلق التى سجلتها أساطيرهم القديمة ، تكريما لأنفسهم ولونهم ، وهى أن الله صور الإنسان من طين ، ولكن حين أحرق الطين لم تكن حرارة الفرن كافية فنتجت صورة بيضاء ، ممسوخة الوجه تماماً ، فحاول الرب مرة أخرى ، ولكن الفرن فى هذه المرة كان شديد الحرارة ، فجاءت الصورة الثانية سوداء فاحمة ، بيد أن الله عرف بذلك الطريقة الصحيحة ، وجاء لون الثالثة خفيف السمرة فكان إثيوبيا .

وقد يصبح الذهاب إلى السوق منقصة ، وحيثما كنت فى هذا العالم ، ووجد أناس ، فلابد من وجود سوق ، وهو المكان الذى تسمع فيه صوت الناس . والسوق فى أديس أبابا شىء ضخم ، إنه قرية برمتها قائمة بذاتها ، ذلك لأن العاصمة هى المركز التجارى لمعظم البلاد ، ففيها تتجمع بضائع التصدير كالبن والتوابل والحبوب الزيتية المجلوبة من جهات نائية على ظهور الإبل والحمير مجتازة مناطق خالية من الطرق . وفى أماكن أخرى تحملها سيارات نقل ضخمة يقودها إيطاليون أو يحملها النساء على ظهورهن ، بينما يسير أزواجهن على مقربة منهن « لحراسة السلع » .

وكلما اقتربت من السوق ازدادت حيرتك ، فهناك صراخ وضوضاء ، رجال يصيحون وهم يسوقون الحمير الناهقة بين الدهماء . وتجد هنا وهناك رجلا يسب ويلعن لأنه أصيب فى ظهره بضربة من كمامة حمار ، أو داس حافر أصابع قدمه العارية . وتسير الإبل بخطوات واسعة غير عابئة بالهرج ، مقدرة لما يحيط بها تقديراً هادئاً . ويخيم فوق كل شىء رائحة كريهة لأجساد الناس والحيوانات والسلع من كل صنف ولون ، ويثقل الهواء بالتراب والأوساخ .

والمسجد هناك على بعد ، وتستطيع أن تسمع صوت المؤذن من خلال الضجيج ، يدعو إلى الصلاة من فوق المئذنة - الله أكبر ، الله أكبر . وينشر

المسلمون حصير صلاتهم أمام الإبل ، ويسجدون لله متخذين مكة قبلة لهم ، ويعكفون على عبادتهم .

ويجلس صيّاغ الفضة ينادون على سلعهم التى يعرضونها فوق حصيرة من حولهم : وتتكون من أساور قبيحة المنظر وأطباق عليها نقوش ساذجة - صور رجال يغمدون حرابهم فى أسود وتماسيح - ويرفعونها لإغرائك بشرائها ؛ وهناك محكات للأذن وصلبان وخارز صغيرة تحك بها شعرك حين توجعك لسعات قملك .

وهناك صف طويل من الأكواخ يدير فيها الخياطون ماكينات الخياطة ، وتزين القمصان والسراويل واجهات هذه الأكواخ . وفيما وراء الخياطين أماكن تستطيع أن تبتاع منها ملابس قطنية رخيصة مجلوبة من الهند ، وأوان يابانية من الصفيح . وفى الصف التالى من الأكواخ يصنعون السلع الجلدية كالنعال وسروج البغال .

وهناك ساحات كبيرة فى العراء لتجارة الأغنام والمعز التى يجرى حولها الصبية ليفصلوا بين القطعان . وترى البغال والجمال وهى تتخفف من أحمالها ، من جلود الفهود والقردة ، وينجز الباعة المتحمسون مزايداتهم وتبادل السلع فى كثير من الصيحات المبحوحة والقسم بالله والمسيح ومريم العذراء .

وطبيعى أن يطلبوا فى قسم المظلات أثماناً باهظة ، ولكننا عرفنا أن الإثيوبيين تسرهم المعاملة التجارية إن اتسمت بالهدوء والجدية ، فالتجارة عندهم ينبغى أن تجمع بين اللهو والجد . والطقوس التجارية القديمة فى الشرق تستوجب المحافظة عليها حتى لو كنا فى إفريقية لأن أديس أبابا أقرب إلى الشرق .

إنهم يحبون الكلام - وكذلك زوجتى ، ولا ينقص من سرورهم أنهم لا يستطيعون استخدام نفس اللغة إلا فى أضيق حد . وقد تجمع حولنا صناع المظلات قبل أن يمضى وقت طويل ، ووقف المارة كذلك ليقدموا لنا نصحهم ، فتحدثوا وضحكوا إلى أن اتفقنا على الثمن المناسب ، ثم سرنا مبتعدين بمظلتنا عن صيحات

الجمع المحتشد ، من أصحاب العبارة المعتادة : فى التحية ، وهى : « متعك الله بالصحة استجابة لدعائى »

وهنا وهناك أسواق صغيرة يباع فيها الزبد والمسامير المستعملة والخلفات . وتجلس النسوة القرفصاء على الأرض . ومعهن زبدهن القذر الكريه الرائحة ، فى جرار من الخزف . وعندما يقبل عليهن مشتر ينتزعن من الزبد قطعة بأصابعهن فيكورنها ويغلفنها بقطعة من أوراق الموز ، ويطلب المشترى أن تزاد عليها قطعة فى مقابل نقوده ، فيثرثرون ويثرثرون فى هذا الأمر إلى أن يستسلم واحد أو الآخر . وتبيع بعض النسوة الملح والتوابل ، وتوضع كلها أكواماً فوق قماش ينشرنه أمامهن .

ويجب أن تتجنب الذهاب إلى السوق فى أيام السبت ، فهو بطبيعة الحال يوم السوق الكبير ، وتجرى فيه الأمور على أبهج الصور ولكنه أيضا اليوم الذى يعلق فيه قتلة الأسبوع على المشانق .

الفصل الثالث

حكومة "المترهلين"

تقابل فى الوزارات طرازا من الناس يختلف تماماً عن أهل الجبال الخشنين النحاف ، فأنت هناك تجد أناسا بدينين ذوى أيد ناعمة يرفعونها دائما بحركة الاستغفار عند الرفض ، أناسا منطوين خجولين ، يتصرفون فى كبرياء تدعو إلى السخرية ، سواء فى ذلك الوزير والبواب الحافى القدمين ، أما إذا كن من الجنس اللطيف فإنهن يتصرفن تصرف نجوم السينما فى هوليوود ، ويتفرسن فيك أو يتخطينك كأنك مجبول من الهواء . وتمتلىء الطرقات على الدوام بالمنتظرين من الأجانب الذين تعلموا فن الصبر فى بلد بيروقراطى ، حيث لا معنى للوقت أو المواظبة : بلاد البيض المستضعفين والسود المتعجرفين .

لقد عرفت لأول مرة حكم الورقة ونفوذ المترهلين ، وذلك حين اضطررت إلى إعداد العدة لكى يؤذن لنا بالإقامة فى البلاد ، فذهبت إلى الوزارة المختصة بمثل هذه الشئون . وعندما قدمت شرحاً مسهباً عما أريد ، وعن الأسباب ، طلب إلى أن أقدم طلباً باللغة الإنجليزية مصحوبا بثمانى صور شمسية .

وعدت فى اليوم التالى ومعى الطلب والصور ، وتجمعت هيئة الموظفين بكامل عددها ، وتبادلوا التفرس فى الوثيقة التى فحصت عندئذ ، ووضع أحدهم أصبعه فى وسط الطلب ، وعلى سحنته مسحة من الاهتمام ، والتقط آخر إحدى الصور وأخذ ينقنق ضاحكاً ، ثم وضع الملف كله جانبا ، وبدءوا يستمعون إلى بعض العرب الذين كانوا ينتظرون منذ وقت طويل متذللين عند الباب . وقال لى واحد منهم تصادف مروره ، إننى أستطيع أن أعود فى اليوم التالى .

وأخبرونى فى اليوم التالى أن الطلب ليس على ما يرام ، إذ يجب أن يكتب باللغة الأمهريه ، وكانت هذه قاعدة جديدة لم تتبع إلا فى عصر اليوم السابق ، ولم يعرفوا شخصاً يستطيع الترجمة من الإنجليزية إلى الأمهرية .

وقالوا إن هناك على مسافة قصيرة من الوزارة كوخا يبيع فيه واحد من العرب

طوابع التمغة التى يجب لصقها على جميع الطلبات . وكان الرجل بالإضافة إلى بيع الطوابع يعمل خياطاً ويدير مشرباً ، فنجحت فى إفهامه ورطنى ، فأرسل صبياً يحمل طلبى إلى شخص من « الروس الكبيرة » ، ورجع الصبى بعد آونة طويلة وعدت إلى الوزارة ظافراً وبيدى ورقة صغيرة مكتوب عليها طائفة من العلامات الغريبة ، ويبدو أنها جديرة حقاً بالشلنات الثلاثة التى دفعتها ثمناً لها ؛ ولكن أول شخص تناولها لسوء الحظ ، هز رأسه فى يأس ، وهز الجميع رءوسهم ، ثم أعيدت إلى الورقة وأوضحوا أنهم لا يستطيعون فهم قليل أو كثير منها .

وتفضل بعض الأشخاص فى الإرسالية السويدية فكتبوا لى الطلب ، فاعتمد فى هذه المرة . وطلب إلى أن أعود فى اليوم التالى ، فذهبت إلى هناك فى الساعة مؤملا أن يدبر الأمر خلال فترة الصباح ، ولكن هيئة الموظفين لم تكن قد انتهت بعد من تنظيف آذانها وأنوفها ، فأخبرونى بضرورة مقابلة المدير ، وكان هناك حارس بالباب اصطنعت عدم رؤيته قبل أن يعترض سبيلى ، ولكنه مد ذراعيه وباعد بين ساقيه وقلب سحنته ثم دفعنى إلى الخلف . وقضيت ساعتين أذرع الممر جيئة وذهابا وأخيراً سألنى المدير :

« أين جوازات السفر ؟ »

« سلمتها لمكتبك بالغرفة المجاورة »

« لا بد أن أراها ، ويمكنك أن تعود بها بعد ظهر اليوم ، وحينئذ أنظر فى ما يمكن عمله »

لم يكن من المستطاع العثور على جوازاتنا ، لقد أفرغت الأدراج فوق المكتب ، وكانت هناك جوازات بريطانية وأمريكية وهندية ، ليس بينها جوازات دنمركية . فكان لابد لى أن أسأل عنها كل يوم لعدة أسابيع قبل أن تظهر فى آخر الأمر . ويصل طلبى إلى المدير الذى أراد آنئذ مشاهدة « زوجتى » إذ كان لابد له أن يقتنع بأن الأصل مطابق للصورة الملصقة على جواز سفرها . وشد على يد زوجتى طويلا

وفى مودة ، وتفرس فى عينيها ثم أخبرنا بعد ذلك وهو يشير بحركة متعالية أن أمرنا سيدبر برمته فى خلال أسبوع ، وأنى أستطيع أن أحضر لآخذ بطاقاتنا الشخصية .

وانقضى الأسبوع ، ثم حدث أن اختلت الأمور مرة أخرى : ذلك أن رقماً من أرقام جواز السفر كان ناقصاً ، فطلب إلى بحث هذا الأمر بوزارة الخارجية .

ووجدت لدى ذهابى إلى هناك حشداً من الكتبة يفتش كل منهم فى حيرة أوراق زميله وهو يتشاجر أو يضحك ، وقد غرزوا أقلامهم فى شعر رءوسهم الصوفى المجعد . وأدخلونى عند رجل كبير يجلس خلف مكتب ، على كرسى ذى ظهر مرتفع من طراز عصر النهضة ، وكان مستغرقا فى الاطلاع على مجلة أمريكية حافلة بصور الفتيات الجميلات ، وشرحت له مهمتى باحترام .

وقال لى وهو يشير إلى مقعد ذى مسندين ، وغطاء ينسدل فوق ساقيه عارية وأخيراً دق جرساً موضوعاً أمامه على المكتب ، فحضر بعد هنيهة شخص من المكتب الخارجى فحص موضوعى وكان القرار : لا يمكن عمل شىء قبل أن يرسل إليهم طلب .

ومضى عام حتى فصل فى الأمر وأصبح من الممكن أخذ بصمات أصابعنا .

الفصل الرابع

جارتنا

كنا نعيش لوقت طويل بأحد الأحياء التى شيدها الإيطاليون فى « فيلا » واسعة هادئة ، أرضياتها ذات أعلام سود ، وبها مدفئة مكشوفة وقد اكتشفنا السبب فى وجود هذه المدفئة خلال فصل المطر ، عندما تتناوب الأيام الباردة الرطبة مع أيام الصحو المعتادة التى تبلغ درجة الحرارة فيها ٢٥° مئوية . وكان هناك أيضا بيوت أصغر منها ، وأكواخ صغيرة شيدت فى أحراش الكافور وتناثرت بينها .

وكانت جارتنا أميرة ، بيد أنها لم تكن صغيرة جميلة كما ينبغى أن تكون عليه الأميرات وفقاً لقصص « هانز أندرسن » بل كانت متقدمة السن ، ثقيلة الوزن بدرجة لا تصدق ، فالدليل على الثراء والوجاهة فى إثيوبيا هو أن تكتنز شحما .

وكانت تخرج أحيانا للنزهة ، تتهادى على رأس نفر من خادماتها اللائى يسرن وراءها فى مشية الأوزة بحسب مراتبهن ، فتسير فى المقدمة فتاة تحمل حقيبة يد صغيرة سوداء مصنوعة من اللدائن (البلاستيك) ، وهى لا تدلى هذه الحقيبة إلى جانبها ، بل تسير بكتفها مدلى من نهاية ذراعها مثل كبير الطبالة ، وتحمل التالية مظلة الأميرة ومعطفا سميكا أسمر ، ويليها أخريات يحملن على رءوسهن سلالا ، لو أدخلنا فى اعتبارنا أسراب الذباب التى تحوم حولها لحكمنا بأنها تحوى طعاما . ويأتى فى نهاية الموكب رجل فى ثياب بالية مسلح بعصا ويقوم بمهمة الحارس ، يدفع عنهن الناس والماشية ، وفى حين أنك تجد أناسا من ذوى المكانة يصحبون حارسا مسلحا ببندقية ، ترى الأميرة تكتفى من السلاح بالعصا .

والمفروض فى الجيران الطيبين أن يتبادلوا التحية ، ومع ذلك فإن الأميرة لم تتنازل أبدأ فتحييني بأكثر من إيماءة فى أية مرة من المرات القليلة التى تصادف أن حييتها فيها . وكنت أنحنى لها فى رشاقة حسبما تقتضى تقاليد البلاد ، وكانت تبدو عليها الكآبة بدرجة غير عادية ، ويروى الناس أن كآبتها ترجع إلى سلوك زوجها أيام شبابه سلوكا أحمق .

كان زوجها ، رأساً ، تجرى فى عروقه أنقى دماء زرقاء فى البلاد ، وكان هناك كثير من الروس يحارب بعضهم بعضا بكل شجاعة للظفر بالعرش ، وكان أشدهم مراسا الرأس تفرى — وهو الإمبراطور الحالى هيل سيلاسى — الذى أدرك ما يمكن أن يحدث من اضطرابات فزود جيشه الصغير بالسلاح الحديث ، بما قلل من خطر جميع الروس الآخرين ، أو أخمد نزوعهم إلى الحرب على أى حال . وقد بنى سجنا صغيرا لطيفا لواحد منهم . ووضع قيوداً ذهبية فى ساق الآخر ونفاه إلى جزيرة بإحدى البحيرات الكبرى فى جنوبى البلاد ، ولكن الأميرة زوجة الرأس أصيبت خطأ بطلق نارى ، فلم تستطع مطلقا أن تغفر له أو للإمبراطور هذه الفعلة .

وعاشت الأميرة فى بيت صغير متواضع بفنائه أكواخ لخدمها . وكثيرا ما كانت تطل من النافذة وتصيح : « اللصوص ! القتلة ! » فيسرع إليها حينئذ خادماتها والرجل صاحب العصا ، ثم لا يحدث شىء غير هذا . وكنا نظن فى بادئ الأمر ، أنها على وشك أن تقتل فتندفع إلى أقرب نافذة ، ولكننا عرفنا فيما بعد أنها كانت مجرد عادة .

ومرضت الأميرة يوما ما وساءت حالتها شيئا فشيئا . وكان يزورها بعض الكهنة العظام بقلنسواتهم السوداء ومظلاتهم الزرقاء ذات الحواشى الصفراء والعذبات الحمراء ، وفى أعقابهم صبيان يجران طبلة ضخمة . وقد نال الأميرة التعسة كثير من دقات الطبول والترانيم .

وذات يوم ونحن فى طريقنا إلى منزلنا ، فوجئنا بعربة الإمبراطور فى نفس الوقت الذى بلغنا فيه منزل الأميرة ، وخرج منها « الأسد الظافر من سبط يهوذا » ، وكادت زوجتى تفقد توازنها وتسقط على أرض الشارع الحجرية المخيفة عندما حاولت الانحناء له بالتحية ، ورد عليها بتحية سريعة ، وانحنيت أنا انحناءة جامدة .

ولا أدرى ما إذا كانت الأميرة لم تحتمل رؤية الإمبراطور ، ولكنها ماتت فى ساعة متأخرة من ذلك المساء .

واستيقظنا فى صباح اليوم التالى قبل شروق الشمس بوقت طويل على أفظع أصوات النواح والعويل ، وكانت زرافات من النساء يسرن على الطريق وهن يضحكن ويثرثرن على أكمل صورة من الانبساط ، ولكنهن حالما يصبحن على مسافة خمسين ياردة من البيت تلبس وجوههن مسحة من الجهامة المخيفة ، ويأخذن فى البكاء كأنما تتفطر قلوبهن حزنا ، وسرعان ما امتلأ الفناء بهؤلاء النادبات المحترفات . وكان هناك أيضا رجال ، ولكنهم لم يعولوا ، بل جلسوا متربعين يتسامرون مع بعضهم البعض فحسب .

وكان هناك ثوران ربط كل منهما إلى شجرة ، وعمد الرجال إلى أحدهما بعد هنيهة فربطوا سيقانه بحبال طويلة ، وكان يباشر هذه الإجراءات رجل يمسك بسكين طويل ، فما إن صاح فيهم صيحة واحدة حتى شد الجميع الحبال وجذبوا أرجل الثور من تحته فألقوه على جنبه . وعندما سقط الثور وقف رجال آخرون متأهبين للاحتفاظ به مستلقيا ، وقبض بعضهم على قرنيه الطويلين ، وقبض غيرهم على ذيله ، كما جلس البعض فوقه . وأخذ صاحب السكين يحز جلد رقبته السميك بينما كان الثور يخور فى يأس . وعندما لفظ أنفاسه آخر الأمر سلخ وقطع إربا ، ووضع لحمه وعظمه وأحشاؤه كل على حدة فوق «مشمنات» كبيرة مستوية حملت بعدئذ إلى ظل البيت حيث وضعت هناك كذلك دنان من خمر العسل ولم يبق غير الجلد المضرج بالدماء والحوافر وقطعة صغيرة من الرأس تقاتلت عليها الكلاب .

وأقام القوم لأنفسهم مأدبة غنية بلذائذ الطعام والنبيذ ، وبعد ذلك تزايد النشاط فى احتفالات تشييع الجنازة ، فاستأنف القساوسة تراتيلهم فى داخل المنزل بحماسة متجددة . وتجمع النسوة فى الفناء على شكل حلقة يولولن حول رائدة الندابات التى أخذت تروى فى أغنية رتيبة الفضائل الكثيرة التى كانت تتحلى بها المرأة

الراحلة ، وكانت النساء جميعا يقفزن من حولها بأرجل متوترة ويضربن صدورهن ضربات موزونة ويولولن مكتئبات أشد الاكتئاب .

وجيء بملابس الأميرة فألقيت فى الهواء. كما أحضرت صورة شمسية لها طافوا بها حول المكان ، وهى من عمل مصور البلاط الإمبراطورى ، وكان يونانيا يملك كوخا بالشارع الرئيسى ، ويستخدم على الدوام صورة كبيرة للأكروبول يجعلها خلفية لصوره . وتزايد هياج النسوة شيئا فشيئا فأخذن يقفزن ويصرخن ويمزقن الملابس من على أبدانهن ويلطمن أنفسهن حتى أخذ الدم يتقطر منهن .

ووصل فى وسط كل هذا تابوت الدفن ، وانطلق حينئذ الثور الثانى من عقاله واندفع إلى الطريق يتبعه بعض الرجال ، ولكنهم لم يعودوا به قط ، ولذا يحتمل أن يكون قد نجا بجلده سحابة ذلك اليوم على الأقل .

وبعد الظهر مباشرة خرجت جارتنا فى رحلتها الأخيرة ، وسارت النسوة الندابات أمام النعش يرقصن ويعولن ، وصدورهن تهتز ذات اليمين وذات اليسار .

الفصل الخامس

حفيد سليمان

راجت شائعة فى أديس أبابا مؤداها أن الإمبراطور كان سيقتل فى الأسبوع التالى بالذات ، غير أن المؤامرة كشفت فى آخر لحظة : إن أيدى موسكو قد وصلت إلى إفريقية - ألم يطرد أحد عملائها فى الأسبوع الماضى أو نحو ذلك ؟ إن سلاح الضباط الإثيوبى قد أصيب إلى حد كبير بعدوى الشيوعية، وكانت أديس أبابا من أعظم أوكارها ، وكان مركز الدعاية السوفيتية يعمل بكل قواه . وكان أطفال المدارس يتجمعون هناك كل مساء لمشاهدة أفلام عن الفردوس فيما وراء الستار الحديدى ، فى حين لم يكن للدعاية الأمريكية أية فائدة فأنت بحاجة إلى وسائل أقــــوى من المكتبة ؛ ويمكن أن ينتهى الأمر بحرب أهلية : ألا تذكر الضجة التى أحدثتها السفارة السوفيتية منذ وقت قصير بينما قالت : « إن الإمبراطور باع البلاد لأمريكا ؟ » ولقد قال أحد الإنجليز وهو يشرب كوباً من الجعة فى حانة الملك جورج : « أجل ولكن الروس على صواب فأى شيطان هذا الذى يستطيع مقاومة برامج المساعدات ، والأكياس العامرة بالدولارات ؟ ، إن إنجلترا نفضت يديها الآن من هذه البلاد » .

لم تكتب النشرة اليومية الخاصة بالبرقيات الخارجية شيئاً من ذلك ؛ ولا بد للوقوف على الحقيقة من انتظار الصحيفة الرسمية الأسبوعية التى تصدر باللغتين الأمهرية والإنجليزية ، والتى تهتم بنوع خاص بحكمة الإمبراطور وببراعة وزرائه وبالتقدم الذى أحرزته البلاد .

ووفقاً لما جاء فى هذه الصحيفة ، سجن رئيس مجلس الشيوخ وخمسة من كبار الضباط بتهمة تدبير اغتيال الإمبراطور وكانوا مزمعين التنكر فى شكل المسلمين وإطلاق الرصاص عليه فى أثناء الوليمة التى جرت العادة على إقامتها كل عام للمسلمين البارزين احتفالا بختام شهر رمضان .

وقد حــــكم عليهم بالموت شنقاً ولكن عفى عنهم فيما بعد نتيجة لجهود ممثلى السفارات الأجنبية الذين خشوا وقوع اضطرابات .

ليست حياة الحاكم المطلق بالحياة الآمنة وكان من حول هيل سيلاسى جماعات قوية منافسة ، عليه أن يتحرك بينها فى حذر ، فكان حين يخرج إلى المدينة فى سيارته يحيط نفسه بجدار من رجال الشرطة فى ملابسهم الرسمية السوداء مسلحين بالغدارات ، ممتطين دراجاتهم البخارية . لقد كان أعداؤه كثيرين ـ ولم يكن هؤلاء من عامة الناس الذين يجلونه ، بل من العظماء ـ فلم يكن بحاجة إلى التعرض لمخاطر لا مبرر لها .

والعنصر الهام فى سلطانه هو أن الشعب يعده الحفيد المباشر لسليمان ، وينص الدستور على أن سلسلة البيت الإمبراطورى متصلة الحلقات بمنليك الأول ابن الملك سليمان وملكة إثيوبيا و الأسطورة التى يتضمنها كتاب « تمجيد الملك = Kebra Negest » طويلة مفصلة ، وهى تتلخص فيما يلى :

عندما تأهب سليمان لبناء المعبد ، أرسل كتابا إلى جميع التجار يطلب منهم تقديم الأشياء التى يحتاج إليها ، عـــلى أن يدفع لهم ثمنها فضة وذهباً ، فقدم له « تمرون » وهو تاجر فى بلاط ملكة إثيوبيا خشبا أسود لا يأكله الدود . ولدى عودته أخبر الملكة بجميع ما رأى من عظمة سليمان وحكمته ، فأثار هذا الملك العجيب اهتمامها إلى حد بعيد حتى أنها قررت زيارته ، وخرجت فى قافلة كبيرة مكونة من ٧٩٧ جملا وعدد لا يحصى من البغال المحملة بالهدايا . واستقبلها سليمان فى كثير من مظاهر التكريم ، ومكثت عنده ستة أشهر معجبة بحكمته . ولم يمض وقت طويل حتى عدلت عن عبادة الشمس والقمر والنجوم ، وعبدت بدلا منها إله بنى إسرائيل . وقالت الملكة بعد مضى هذه الأشهر الستة إنها لا بد أن تعود إلى وطنها لترعى مملكتها ، وقال سليمان لنفسه : « إننى لأتساءل ، هل يرزقنى الله بثمرة من هذه المرأة الجميلة التى قدمت إلى من أقصى الأرض ؟ »

ويواجه مؤرخ الخبر عند هذه النقطة صعوبة فى تبرير عادات سليمان فى تعدد الزوجات . فيشرح فى كثير من البراعة أن الملك لم تحفزه إلى ذلك شهوة الجسد ، ولكنها مجرد الرغبة فى الاستكثار من الأبناء الذين يمكن أن يرثوا مدن الوثنيين

ليدخلوا فيها عبادة الإله الحقيقى .

ومن ثم صمم سليمان على بلوغ ذلك الهدف ودعا الملكة إلى وليمة وداع كبرى قدمت فيها ألوان الطعام متبلة بكميات وافرة من الفلفل والخل لكى تشعر الملكة بالظمأ الشديد . وانتهت الوليمة فى وقت متأخر جداً ، فاقترح سليمان على الملكة أن تقضى الليلة بقصره . وترددت الملكة فى بادىء الأمر ، ولكنها وافقت فى النهاية بشرط أن يقسم سليمان ألا يقربها .

ووافق سليمان مبتهجاً بهذا الشرط ، ولكنه طلب أن تقسم هى بدورها فى مقابل ذلك ألا تأخذ أى شىء من قصره بالقوة . ووافقت الملكة على ذلك ، وإن كانت قد احتجت لشكه فى أمانتها .

وأعد فراشان وضع كل منهما بأحد أطراف الغرفة الملكية ، وراحت الملكة فى سبات عميق .

وسرعان ما استيقظت الملكة على ظمأ فظيع . كان لسانها وحلقها يابسين كالجلد وكم كان فرحها حين وقع نظرها على إبريق ماء بوسط الحجرة ، وظنت سليمان غارقاً فى نومه ، فنهضت فى حذر وذهبت فشربت .

ولكن سليمان لم يكن نائما ، فقفز وأمسك بذراعها قائلا : « لقد حنثت بقسمك على ألا تأخذى من قصرى شيئاً ! » ، فأجابت الملكة أن القسم لا يمكن بحال أن ينسحب على الماء ، ورد سليمان على ذلك بأنه لا يوجد فى العالم شىء أثمن من الماء . وكان لابد لها من التسليم بصحة قوله ، ومن ثمة تحلل سليمان أيضا من قسمه وتزوجها ورجعت الملكة إلى إثيوبيا حيث ولدت ابناً اسمه منليك .

وينطبق أمر هذه الملكة على ملكة سبأ الغامضة التى ذكرت فى التوراة والتى جاءت من أقاصى الأرض لتستمع إلى حكمة سليمان ، ونشأت حولها

أساطير خيالية (١) . وكان من اليسير على الإثيوبيين أن ينتحلوها لأنفسهم لتتصل سلسلة نسبهم مباشرة ببيت داود .

ولنكمل قصة المؤرخ : عندما بلغ منليك مبلغ الرجال ، ذهب إلى والده فى أورشليم فحاول سليمان إغراءه بالبقاء هناك لأن منليك كان ابنه البكر ، ولكن منليك لم يوافق على البقاء . ولذلك أعطاه سليمان قوانين إسرائيل وأعلنه ملكا ، وقال إنه بناء على ذلك يجب أن يحكم إثيوبيا أحفاده من الذكور . وجمع سليمان ضباطه وقادة جيشه وقال لهم إنه يرسل الآن ابنه البكر إلى إثيوبيا وإن عليهم أن يرسلوا هم معه أبناءهم الأبكار أيضا كضباط وقادة . وكانت كلمة سليمان قانونا ، فأعدوا أنفسهم للسفر ، وكان الشيء الوحيد الذى يحزنهم أشد الحزن أنهم سيعيشون بعيداً عن أقدس شيء لديهم وهو تابوت العهد الذى يضم القانون الذى خطته يد الله ولذلك احتالوا على أخذه معهم إلى « اكسوم » .

ولم تضف هـــذه القصة ماضيا إلى البيت المالك وحده ، بل أمدت الأشراف بأسلاف جديرين بالزهو بهم ، ورفعت الشعب برمته من ظلمات التفاهة ، لأن تابوت العهد كان الشارة البارزة لوجود الله بين شعبه المختار .

ولسنا بحاجة إلى القول بأن هذه الأسطورة بحذافيرها مشكوك فى صحتها ، ولكن يتردد القول دائما بأن الحاكم من أحفاد سليمان . ولئن كانت هذه الأسطورة غير حقيقية من الناحية التاريخية ، وكان تكوين جدول للنسب أمرا محالا ، لأن نظام التسرى ينجم عنه ذرية لا حصر لها ، وجميع الأطفال الناتجين عنه يعدون غير شرعيين ، فإن هذا كله لا أهمية له فى الواقع ، لأن اعتقاد الناس الراسخ له قيمة أشد خطراً من صحة التاريخ ، إنه ذو أهمية فى مساندتهم للإمبراطور ،

(١) وردت القصة على وجهها الصحيح فى القرآن الكريم : سورة النمل الآيات من ٢٠ إلى ٤٤ فلتراجع (المراجع).

وأنه ليضفى عليه فى أذهان الناس منزلة لا يمكن أن تنال ، وقيمة هذا تفوق كل تقدير .

كانت الملكية الإثيوبية إلى عهد قريب محاطة بهالة غامضة من التقديس ، وما كان لأحد أن يقترب من الإمبراطور إلا حبوا وجبهته على الأرض ؛ فإذا ركب للخروج — وهو لا يسير على رجليه مطلقا — غطى وجهه ووراء قناع ، لأن الشعب يجب ألا يراه بشرا مثله . وفى مجالس القضاء كان يجلس مختفيا فى مقصورة ذات نافذة من الحديد ، ولكن حتى صوته يجب ألا يسمع . وهكذا يتحدث بدلا منه « صوت إمبراطور آخر » .

ولكن هيل سيلاسى لا يحيط نفسه بأية هالة من التقديس ، ولا يختفى وراء ستار ، بل يجلس فى سيارته مرتديا زيه العسكرى ويحيى شعبه الذى ينحنى له برفع يده إلى قبعته المدببة .

ولقد اختير الرأس تفرى — كما كان اسمه قبل اعتلاء العرش — نائبا للإمبراطور ووريثا للعرش حين بلغ من العمر خمسة وعشرين عاما ، وكانت البلاد قبل ذلك فى فترة حرب أهلية ظلت تهدد كيانها على الدوام ، إذ كان الإمبراطور منليك العجوز الذى مات سنة ١٩١٣ بعد أن ظل عدة سنين عاجزاً عن إدارة دفة الحكم بسبب مرض أصابه ، ولم يرزق أولاداً ، قد اختار حفيده « ليدج جاسو » خلفا له .

أخذ الرءوس فى أثناء مرض منليك يدبرون الدسائس ، كل لصالحه الشخصى ، وبذلت الإمبراطورة قصارى جهدها لجمع السلطة فى يدها ، وكانت سيدة ذات دهاء وشجاعة ركبت فى صباها على رأس فرقتها الخاصة وأوردت كثيرين من أعدائها موارد التهلكة بضربات سيفها القاطع وصيحات الحرب الحماسية . وهى زوجة منليك الرابعة . وهو زوجها الخامس ، وكانت سيدة ذات خبرة ولها على الدوام

نصيب فى الحكم . ولم تكن تستمع إلى لدج جاسو ، بل كانت تريد العرش لأسرتها هى ، بيد أن « أبونا » أو الأسقف قد اتهمها فى سنة ١٩١٠ ، كما اتهم نواب الملك بحنثهم فى القسم الذى أدوه أمام منليك على أن يرث جاسو العرش ، وحينئذ استسلمت .

وأعلن نواب الملك أن جاسو قد بلغ من العمر مبلغا يستطيع معه ولاية الحكم بإرشادهم ، ولم يكن لهذا التغيير أية أهمية بالنسبة للبلاد التى افتقدت يد منليك الراسخة القوية وتدفقت الأسلحة إلى البلاد وازداد التمرد على القانون ، ونشب النزاع ، ولولا نشوب الحرب العالمية الأولى وانشغال الدول المعنية - إنجلترا وفرنسا وإيطاليا - فى مناطق أخرى ، لتدخلت فى الأمر ولو حدث هذا لما كان من المؤكد بقاء إثيوبيا مستقلة حتى اليوم

أما « لدج جاسو » الذى كان قد تحول تدريجيا إلى الدين الإسلامى ، فقد أعلن فى سنة ١٩١٥ أنه لم ينحدر من نسل سليمان بل ادعى أنه من نسل محمد ، وطرد زوجته المسيحية من بيته ، وأدخل القانون التركى ، وأهدى قنصل تركيا علما إثيوبيا مطرزاً عليه هلال وعبارة « لا إله إلا الله » .

ولم يكن جاسو غراً ، فلو نجحت سياسته التركية لساندته المجموعة الإسلامية من سكان البلاد ولأصبح أقوى من أى رأس آخر ، وقد ذهب إلى الجزء الشرقى من البلاد حيث جمع جيشا لكى يشن حرباً دينية . وسار الرءوس بقواتهم إلى أديس أبابا مباشرة وطالبوا « أبونا » بأن يحلهم من قسم الولاء لجاسو ، وقالوا لـ « أبونا » نحن مسيحيون ولن نخضع للإسلام ... إن جاسو يدمر بلادنا ، واختاروا بدلا منه زوديتو ابنة منليك إمبراطورة عليهم وتفرى وريثا للعرش .

وأقر أبونا هذا الاختيار ، وأعلن بعد أن رفع الصليب عالياً أمام المجتمعين أن من لا يطيع الحكومة الجديدة سينزل عليه غضب الأب والابن والروح القدس وغضب آباء نيقيا الثلاثمائة والثمانية عشر ، ولعنة آريوس ، والهلاك الأبدى .

وأصبح لدج جاسو محروما من حماية القانون .

وتوجت زوديتو بالتاج الإمبراطورى فى سنة ١٩١٧ ، ولكن تفرى اعتبر أصغر من أن يصبح نجاشيا ، فأعطى هذا الشرف لرأس ضعيف الجسم والروح .

ولكن حق تفرى فى العرش كان يجرى فى عروقه ، فأبوه رأس مكنن ، ابن عم منليك ، وكان حاكم هرر وفيها تلقى تفرى تعليما راقيا على يد الرهبان الفرنسيين .

وظلت أمامه أعوام طويلة مليئة : بالمكائد ، فلا بد له من الحرب للمحافظة على مركزه ونفوذه لأنه كان محاطا بدهاقنة من عهد منليك . وكان الموقف شبيها بلعبة شطرنج لا تنتهى ، وقد انتصر فيها نظرا لطباعــه الإنسانية المتواضعة . وانقضت عشر سنوات على هذه الحال تطلبت منه الصبر . واضطر تفرى الذى ورث عن أبيه حبه للأفكار الحديثة إلى الانتظار بمشروعاته التى تهدف إلى تحويل إثيوبيا إلى دولة حديثة . وقد عمل إبان هذه الفترة على تحسين أحوال مقاطعته هرر ، وبحث عن عقد صلات بالخارج . فحصل على عضوية عصبة الأمم سنة ١٩٢٣ وقام بأسفار طويلة فى أوربا سنة ١٩٢٥ .

وأخذ ميزان القوى يميل تدريجيا إلى جانب تفرى ، إذ أصبح له جيش يمكنه الاعتماد عليه ، ولا يقل عن ذلك أهمية أنه يستطيع أن يدفع به إلى ميدان الحرب بأسرع مما يستطيع منافسوه ، وأكثر من هذا إثارة للاضطراب أنه أصبح متفوقا وأضعف نفوذه المتزايد مؤامرات الإمبراطورة وحزبها ، فأصبح الموقف مائعا ولم يعرف أحد ماذا ستكون النهاية . وبلغت الحالة ذروتها فى سنة ١٩٢٨ حين وضع حجر الأساس لخطة تفرى التالية ، فقد ركب - كما كان يفعل يوميا - من قصره الخاص ، أو القصر الصغير إلى قصر الإمبراطورة ، أو القصر الكبير حيث كانت تدار شئون الدولة ، ولم يكد يدخله حتى أغلق من ورائه الباب بعنف . واحتشد من حوله جند الإمبراطورة . وكان قد وضع مدفع رشاش فوق سطح ضريح منليك الفاخر القائم فى ساحة القصر ، وصوبت فوهته إلى تفرى مباشرة .

وسار تفرى قدما إلى القاعة حيث استقبلته الإمبراطورة وعنفته على أنه يستهدف التسلط التام ، وأنها تشعر بالتهديد . ولكن تفرى رد جميع اتهاماتها ، ثم انصرف عنها وعن الرءوس المجتمعين فى القاعة بخطوات منتظمة الخطو . وعندما خرج استطاع بمحض قوة شخصيته أن يوقف الجنود بعيداً ، وأمر بفتح الباب ثم سار قافلا فوق بغله .

وأخفقت الإمبراطورة فى آخر مكيدة لها ، وتوج تفرى « نجاشيا » بعد ذلك بيومين . وعندما وضع « أبونا » التاج على رأسه جرد الرءوس سيوفهم كأنها ومضات الضوء ، ثم لوحوا بها تكريما له .

وعندما قوى شأن تفرى شهرة وسلطاناً ، سارع بالتخلص من خصمه القوى الأخير ، زوج الإمبراطورة السابق ، الرأس جوجسا حاكم « بجمدر » ، وجرد عليه وزير الحرب ، ولقى جوجسا مصرعه فى ميدان القتال سنة ١٩٣٠ . وحين وصلت هذه الأخبار إلى أديس أبابا ماتت الإمبراطورة ، وأصبح تفرى ملك الملوك واختار لنفسه اسم « هيل سلاسى » .

أصبح هيل سيلاسى الآن حراً فى مباشرة برنامجه الجديد ، ولكن الأربعة عشر عاما التى قضاها فى الانتظار زادت من صبره الطبيعى . وكان لا يزال عليه أن يدخل فى حسابه الجيل القديم الذى يحظى باحترام كبير فى إثيوبيا حيث يعتبر الشعر الأشيب مرادفاً للحكمة . ولكى يزيد من ثقة الشعب فى شخصه ، كان لابد له أن يختار أولئك الذين كانوا ضد كل تغيير مستشارين له ، وكان عليه أن يعطى أعظم اعتبار للكنيسة ، فهو وإن يكن قد ظفر بمؤازرتها ، إلا أنها ذات قوة هائلة يجب أن تعامل بحصافة وسياسة .

وكانت النقطة الأولى فى برنامجه خلق دولة موحدة تدين له بالولاء ، وللوصول إلى هذا الهدف ما استطاع إليه سبيلا ، بعث بأشخاص يستطيع الاعتماد عليهم ليلوا الحكم فى المقاطعات المختلفة بدلا من الرءوس . ولقد حدثت مناسبة كهذه

سنة ١٩٣٢ حين أطلق رأس « هيلو » صاحب جوجام سراح « لدج جاسو » الذى كان مسجوناً هناك منذ سنة ١٩٢١ وحدثت ثورة خطيرة أخمدتها قوات الحكومة التى دربها الضباط البلجيكيون ثم السويديون . وعزل رأس هيلو من حكم مقاطعته وحكم عليه بالإعدام للمرة الرابعة ولكن عفى عنه فى هذه المرة كذلك ، إذ كان رجلا قويا ، له أصدقاء أشداء . ولقد احتفظ به الإمبراطور فى العاصمة وجعله عضواً فى مجلسه ، فلم يدعه يغيب عن نظره .

وأنشأ عدة وزارات . استخدم لها مستشارين من الأجانب . ولما كان عدد قليل جدا من الموظفين هم الذين يفهمون المستشارين أو الغرض من وجودهم . فقد كانت مهمتهم مستحيلة التنفيذ .

وكان أول عمل قام به هيل سيلاسى هو الدستور الذى أعلنه سنة ١٩٣١ وأسس برلماناً ، ولكن هذا البرلمان لم ينتقص من سلطان الإمبراطور ، ويتكون البرلمان من مجلسين : مجلس شيوخ يختار الإمبراطور أعضاءه ، ويضم النبلاء والقضاة وكبار الموظفين ، ومجلس نواب يعين أعضاؤه محليا بواسطة حكام المقاطعات مادام الشعب فى وضع لا يسمح له بالانتخاب المباشر ، ووظيفة هذا البرلمان محكومة فى جملتها بالمادة التالية من الدستور .

« لا يكون للقانون قوة النفاذ مالم يناقش فى مجلسى البرلمان ويقره الإمبراطور . »
فالبرلمان بذلك ليس إلا هيئة شكلية ، وليس له أى نفوذ فى توجيه شئون الدولة ؛ ومع ذلك فإن له دوراً يجب أن يقوم به فى تقدم البلاد . وهو نشر الوعى بين الناس فيما يتصل بشئون الدولة .

ثم التفت إلى المدارس ، وكان منليك قد بدأ فى سنة ١٩٠٨ بإنشاء مدرسة فى أديس أبابا . وأسس هيل سيلاسى مدرستين ، كما أسست الإمبراطورة مدرسة للبنات ، فكان هناك نحو ستمائة تلميذ وتلميذة قبل الغزو الإيطالى يتلقون العلم بصورة ما على أسس حديثة . وبالإضافة إلى هذه المدارس كانت هناك المدارس

الملحقة بالكنائس. وهى تشكل نظاما تعليميا من أقدم الأنظمة فى العالم، والتثقيف فيها بوجه عام مقصور - كما هو فى مدارس تحفيظ القرآن عند المسلمين - على المزامير وفقرات من الكتاب المقدس تحفظ عن ظهر قلب، ولكن بعض هذه المدارس يعلم القراءة والكتابة تعليماً أولياً.

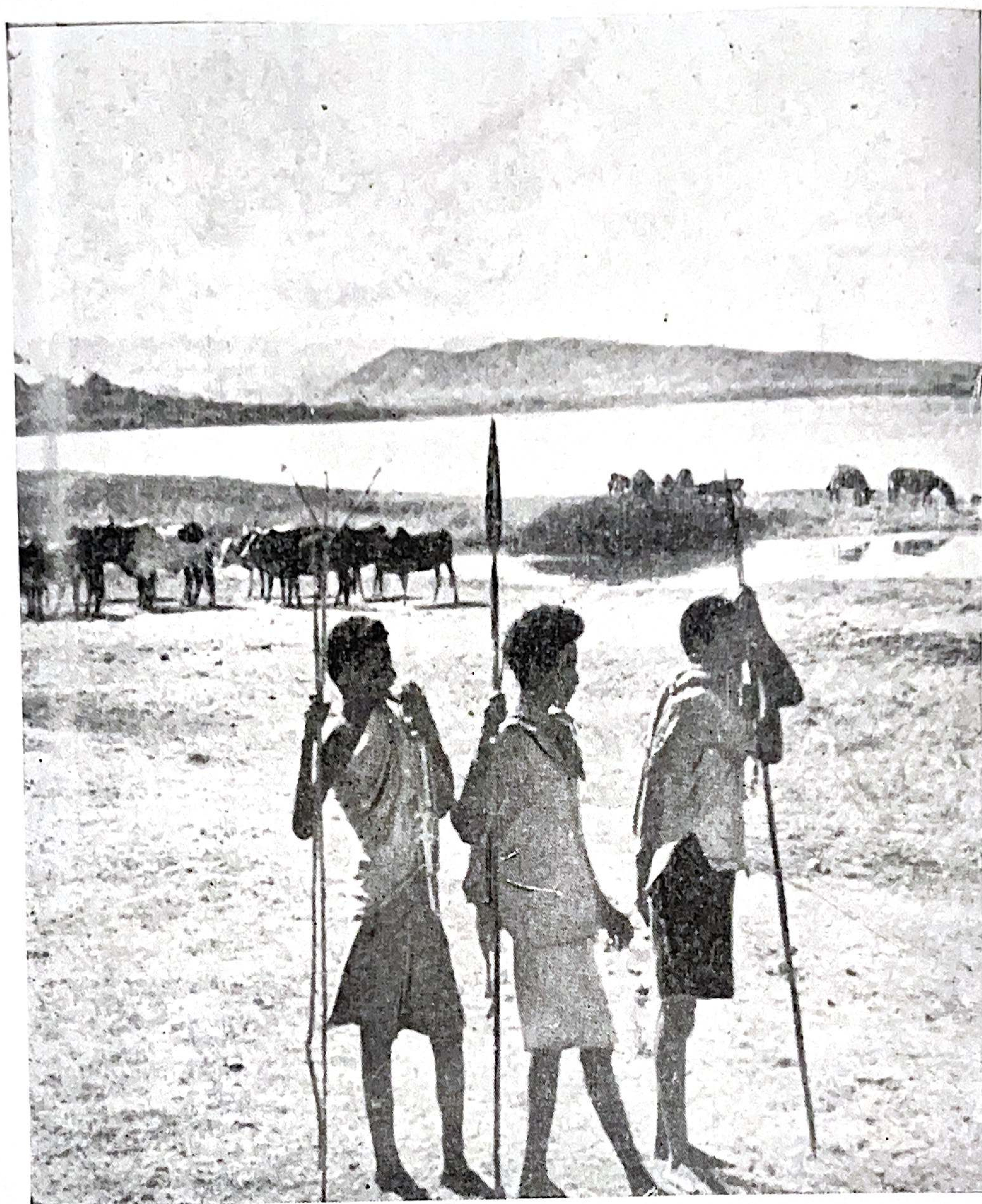
وأدخل فى البلاد إبان العقدين الثانى والثالث من القرن التاسع عشر لونا محدوداً من التعليم على يد البعثات التبشيرية الكاثوليكية، والسويدية اللوثرية، وأدفنتست اليوم السابع، والبرسبيتريين التى افتتحت المدارس فى العاصمة والريف القريب منها.

وأرسل الإمبراطور نخبة من الشبان إلى الخارج للاستزادة من التعليم، وقد عاد أكثر من مائة من هؤلاء إلى البلاد قبل الاحتلال مباشرة، ولم يتم تعليمه عدد كبير منهم إذ عجز معظمهم عن التحصيل، كما أنه لم يبق منهم على قيد الحياة إلا القليل بعد المذابح المروعة التى حدثت فى أديس أبابا وبقية البلاد فى سنة ١٩٣٧ والتى ارتكب فيها الإيطاليون التقتيل والإحراق انتقاما لمحاولة قتل جرازيانى.

ووضعت الحرب الإيطالية حداً مؤقتا لأعمال هيل سيلاسى، فقد مسحت الطائرات القرى وأمطرتها وابلا من القنابل والغازات السامة والسوائل الحارقة. وبعد سبعة أشهر من القتال، زحف الإيطاليون إلى العاصمة التى كان الإمبراطور قد غادرها إلى لندن قبيل ذلك بأيام قلائل.

الفصل السادس

دهر عتيق وعيد كنسى قديم



تكثر البحيرات في جنوب إرتريا

على مسافة ستين ميلا تقريبا من شمال أديس أبابا ، يقع مكان من أقدس الأمكنة فى البلاد ، وهـــو دير « دبرا ليبانوس » حيث تحفظ عظام القديس « تكلا هيمانوت » وقد شيده الرهبان على مر القرون ليـكون حصناً دينياً .

ويقوم الدير وأكواخ الرهبان فى أحد الأودية ، وتستطيع أن تلمح الـكنيسة بين الأشجار من مسافة بعيدة جداً . ولـكى نصل إليها عبرنا جسراً كان قد بناه « بايز » البرتغـالى اليسوعى سنة ١٦٠٠ حين اختار هذه البقعة ميداناً لنشاطه . وتسقط أشعة الشمس المحرقة على الصخور التى يخترقها الطريق ، حيث ينمو نبات اللحلاح بأزهاره الحمراء فيرتفع من الفجوات إلى مثل قامة الرجل . ويكوّن الوادى بوهاده الشديدة الانحدار ومراعيه الخضراء وخوانق أنهاره منظراً خلابا . ويجرى النهر فى طريقه متعرجاً صوب النيل الأزرق

وهناك راهب يعلم مجموعة من الصبية فى ظل كوخ ، ويجلس وهو مغمض العينين وسنان فى حرارة ماقبل الظهيرة بينما يتحدث الصبية جميعا فى وقت واحد ، ويتلون الأبجدية المـكونة من ٢٧٦ رمزاً يمثل كل رمز فيها مقطعاً لا حرفاً هجائيا . ومع كل صبي لوح من الورق المقوى مكـتوب عليه هذه الرموز وعندما وقعت أنظارهم علينا توقفوا وفتح الراهب عينيه فى ارتباك ونهض واقفاً على قدميه وحيانا ، ولـكنه لم يكن ودودا بنوع خاص وحين سألناه عما إذا كان يسمح لنا بزيارة الدير قال «لا» فى شيء من الغضب وجعلنا ندرك أن خير ما نفعله هو أن نرحل ؛ بيد أن قطعاً قليلة من النقود ساعدت على اعتدال مزاجه ، فطاف بنا الدير وهو يرمقنا خشية أن يكون معنا آلة تصوير .

لا عجب أن يتصرف رهبان هذه الطائفة تصرفاً غير ودى إزاء الأغراب ، فقد

قاسوا على أيدى الإيطاليين الذين اتهموهم بالاشتراك فى جريمة محاولة الاعتداء على حياة جرازيانى فقتلوهم جميعا رمياً بالرصاص ، فقتلوا أكثر من أربعمائة منهم . وكانت هذه ثالث مذبحة تحدث لهم .

وهناك شلال مائى صغير ينحدر من جرف يزعم الرهبان أنه يجرى ماء تحت الأرض ينبع من نهر الأردن ، وقد حوله إلى هناك القديس ميخائيل ، ويزعمون أن ماءه يشفى المرضى وأن له قدرة على غسل الخطايا . وعلى الشلال طيور ذات ألوان زاهية ، وهى فى حجم الحمام . لكن رءوسها خضراء ، وأجسامها زرقاء قاتمة متألقة . أما الخوافى فحمراء قانية . وهناك أيضا كهف فسيح كان يستخدم مدفنا ، وكان القرويون يحفرون قبور موتاهم بعد سنين قلائل ويخرجون بقاياهم ويودعونها هذا الكهف حيث توضع العظام والجماجم أكواما ، كما يوجد به عدد من التوابيت بعضها صناديق شحن من أوربا مسجل عليها اسم الشركة ، ومكتوب عليها « عن طريق جيبوتى » .

وفى شهر مايو – وهو الشهر الذى مات فيه « تكلا هيما نوت » يفد كثير من الحجاج ليلتمسوا بركة القديس ، وليغتسلوا أو يشربوا من الماء المقدس . وكان « تكلا هيما نوت » رجلا غريب الأطوار عاش فى القرن الرابع عشر ، وقد أرغم أحد الحكام على اعتزال الحكم لصالح واحد من أحفاد سليمان . وقصة حياته المليئة بعدد من المعجزات الخارقة ، مكتوبة على رق ومحفوظة بالدير ، ومن ثم فلا تعوز الرهبان القصص المثيرة المهذبة .

ولقد سافر مرة لهداية شعب كان يعبد الأشجار وعندما وصل إلى هؤلاء الوثنيين وجد الشيطان نفسه جالسا على عرشه فى قمة شجرة ضخمة كان يقدسها الناس ، فأمر تكلا هيما نوت الشجرة باسم الله أن تتمزق من جذورها ففعلت ، وارتفعت الشجرة إلى أعلى وهى تدوى وتقعقع بصوت مخيف ، ثم هبطت منزلقة نحو النبى بينما قفز الشيطان وهرب فزعاً . ولكن لم يكن هذا هو كل شىء ، بل إنه رد

الحياة إلى ستة وثلاثين وثنيا ممن قتلهم الزلزال الذى أحدثته الشجرة وهى تقتلع نفسها وبعث معهم ٦٠٠٢ من الأنفس ، جاءت من عذاب الجحيم إلى حفل التعميد الذى عمد فيه مايزيد على ٣٠٠٠٠ نسمة .

لقد كان رجلا فيه شى ما . كان يذهب إلى الدير فيما بين فترات هدايته للوثنيين فيقوم بعمل خمسين رجلا . وكتب الإنجيل كله مرات لاعداد لها ، وكان يجلب الخشب من الغابة والماء من النهر ، كما كان يطحن الغلال ، ويصوم كثيرا ، ويرتل جميع المزامير كل يوم . وبالإضافة إلى هذا كله كان يؤدى أربعمائة سجدة فى النهار ومثلها كل ليلة .

وعندما بلغ أرذل العمر ، تقاعد عن الحياة العاملة وكان يقضى حياته الخاوية بكهف فى الجبال واقفاً على رجل واحدة حتى وافته منيته .

* * *

ليس بين بلاد العالم بلد مكتظ بالكنائس والأديرة والكهنة والرهبان والنساك مثل إثيوبيا ، فالنساك فيها يحيون حياتهم الهادئة فى التلال ويدرسون الإنجيل ويعذبون أنفسهم . وقد لا يكون هذا التعذيب بالوقوف على رجل واحدة كما كان يفعل تكلا هيما نوت ، بل هناك طرق أخرى كثيرة ، فمن عادة البعض الوقوف فى النهر حتى يصل الماء إلى أعناقهم والبعض يضربون أنفسهم بالأغصان الشائكة . وهم يعيشون على جذور النبات وعلى أى شىء آخر يصلح للأكل يمكنهم الحصول عليه من على منحدرات الجبال ، فإن تصادف وجود قرية مجاورة جلبوا منها بعض القمح وقليلا من الحبوب فى موسم الحصاد ويقومون مرة أو مرتين فى العام بجولة فى كنائس المنطقة ، يبشرون خارجها فى الأيام المقدسة ويأتى الناس ليقبلوا أقدامهم باحترام .

وتلعب الرهبنة دوراً عظيماً فى الحياة الدينية بإثيوبيا ، وقد بنى كثير من الأديرة فى عهد بالغ القدم من تاريخ الكنيسة ، ويحتمل أن يكون ذلك نتيجة

لوصول الرهبان السريان فى القرن السابع إلى البلاد وتقع الأديرة - وهناك بعض الصوامع كذلك - فى أمكنة يصعب الوصول إليها عادة . ويجثم واحد منها على قمة تل جوانبه شديدة الانحدار حتى لا يستطيع أحد بلوغه دون مساعدة بحبل طويل يدليه الرهبان لمن يريدون رؤيته .

ورأس التل مستو به فجوات تتجمع فيها مياه الأمطار ، وتنمو به الحشائش لتغذية ماشيتهم ، فهم بذلك فى موقف يسمح لهم بمقاومة الحصار وقتاً طويلا للغاية .

والأديرة غنية تملك مساحات واسعة من الأرض ، ظل الأرقاء يزرعونها دون انقطاع حتى سنة ١٩٣٠ . وكانت جميع ضروب التعليم والتعلم فى الأزمنة القديمة مركزة فى الأديرة ، فكانت هى مراكز الحياة الثقافية فى البلاد - يمكنك أن تدرس فيها الإنجيل والأساطير المقدسة ، وقصة الملك ، وكتاب القوانين ، ولم يكن هناك آداب أخرى ، بل لا يوجد حتى اليوم أدب حقيقى من أصل إثيوبى .

ويتمتع الرهبان بسمعة خير من سمعة القساوسة الذين هم فئة فقيرة جداً . ويلقى القانون الذى أصدره الإمبراطور سنة ١٩٣٣ دون استشارة « أبونا » كثيراً من الضوء على حياة القساوسة اليومية ، فهو يذكر أن من حق القساوسة أن ينالوا بعض المكافأة نظير خدماتهم ، ولكن ليس من حقهم أن يشربوا الخمر حتى يتورطوا فى الشجار . ثم يتركون جرحى يلاقون الموت على جانب الطريق .

والجهل والتأخر وسوء الخلق ، هى الصفات التى استخدمها رحالة مختلف العصور فى وصف الرهبان ، وهى لا تزال تنطبق عليهم فى الوقت الحاضر . فهم يجعلون من الموت والجحيم عملا مربحاً . ولا بد للصلوات التى يتلونها لراحة الأنفس ولتخفيف العذاب عنها فى جهنم ، أن تعاد مراراً وتكراراً ، وهى باهظة الثمن بل مهلكة للفقراء الذين يرون ماشيتهم وحبوبهم تختفى تحت أنظارهم والجوع واقف ببابهم .

ويعيش القساوسة مع عائلاتهم على أراضى الكنيسة التى يزرعونها هم أو

تؤجرها الكنيسة لغيرهم . أما فيما يتصل بمعاشهم فيعتمدون على الأجور التى يتقاضونها فى مقابل خدماتهم . وكثيراً جداً ما يتزوج القساوسة من عائلات من نفس المهنة ، وهى فى الغالب مهنة متوارثة ، وهى وظيفة لا تحتاج إلا إلى قدر طفيف من التعليم ، ويكفى أن يكون بمقدورهم قراءة اللغة الميتة « الجعز » ، ولكنهم ليسوا بحاجة إلى فهمها . ويجب أن يكون فى استطاعتهم نطق مختلف العبارات التى تصحب الطقوس التى يؤدونها فى الكنيسة وأن يهمهموا بالمزامير وبفقرات من الإنجيل .

وهم يتعلمون الطقوس كخدم للكنيسة ، ويؤخذون فى سن السابعة ، أو وهم فى عهد الطفولة ويتوقفون عن الخدمة الدينية حالما يبلغون سن المراهقة حتى لا يدنسوا قداسة الكنيسة بسلوكهم الفاجر قبل الزواج ، ثم يستأنفون تدريبهم بلبس قبعات من جلد القرد والتجول للتسول أولا فيعيشون بجوار الأديرة والكنائس حيث يرتلون ويتلون .

وتعاون الكتبة عظيم الأهمية بالنسبة للأعمال الكنسية ، فهم ليسوا مكرسين كالقساوسة ، ولكنهم يقومون بوظائف شتى بعضها يدهش له الأجنبى ، فهم مغنون وراقصون ، وهم فى نفس الوقت الفئة المتعلمة من بين رجال الكنيسة . وتعليمهم أكثر جدية من تعليم القساوسة لأنهم مكلفون بإتقان جميع الخدمات الكنسية . ويلحق عدد كبير منهم بالكنائس الكبرى ويتقاضون مرتبات ، ولكن معظمهم يقدمون خدماتهم تطوعاً بدون أجر ، على أمل أ يدرجوا فى سلك الهيئة الكنسية الدائمة . وأهم مورد لدخلهم هو عمل التعاويذ التى يبيعها جميع رجال الدين ، وهى تعلق حول عنق كل طفل .

وتتكون هذه التعاويذ عادة من قطعة من جلد الخراف تطوى على شكل كتيب صغير وتوضع فى كيس صغير من الجلد يعلق بشريط حول العنق ،

وتبدأ دائما العبارة المكتوبة بخط رفيع بهذه الكلمات « الأب والابن والروح القدس » وهى كلمات فعاله تزيد من قدرة النص الطويل الذى يليها ، وهو غالبا مأخوذ من الإنجيل وقد توجد فى التعاويذ أيضا بعض الرسوم للقديس جورج والتنين ، وأشكال سحرية هندسية .

وتستطيع أن تحصل على تعويذة جامعة لكل شىء ، أو على الأقل هذا ما قاله عن تعاويذه القسيس الذى اشتريت منه بعضها ذات يوم ، ولكن تعاويذه كانت أيضا باهظة الثمن وهم يزعمون أنها ذات أثر ضد جميع الأمراض ، والعين الشريرة ، والعقم ، والضعف الجنسى ، والعظام المكسورة والجن والشيطان نفسه ، فمن ذا الذى لا يحاول أن يضمن لنفسه شيئا من هذه التعاويذ ؟

ويشمل عمل الأساقفة تطهير وتكريس أى تابوت للعهد ـ وهو الشىء المقدس فى كل كنيسة ـ الذى يتصادف لسوء الحظ أن تلمسه يد علمانى ، أو يد أحد رجال الدين دون رتبة القسيس ، ولكنهم قد لا يكرسون تابوتا لكنيسة جديدة وهم الذين يديرون احتفالات التدشين عندما يقبل شخص ما فى أحد الأديرة ، فيصلون صلوات مقررة للطائفة التى ينتسبون إليها . وهم ليسوا قادة للقساوسة الذين يلون « أبونا » مباشرة فى المرتبة . وكلمة « أبونا » معناها « الوالد أو الأب » .

وأبونا هو رجل البلاد القوى ، إذ أنه هو الذى يفصل فى كل المسائل المتصلة بالمذهب والنظام والأخلاق ، وهو كذلك عضو فى الحكومة ، ويجلس على يمين الإمبراطور فى كل اجتماعاته ، وله الحق فى حمل مظلة مطرزة بخيوط مذهبة ، وهو امتياز لا يشترك فيه إلا هو والإمبراطور .

وهناك كاهن آخر له سلطة كبرى ، هو مساعد عرش الإمبراطور (Jehagé) والأمين على العلوم الكنسية وعلى الأديرة وإدارة جميع أراضى الكنيسة وممتلكاتها .

والإمبراطور هو الرئيس الزمنى للكنيسة ، وقد عمل هيلاسلاسى على رفع مستوى رجال الدين منذ أن ولى العرش .

وصلت المسيحية إلى إثيوبيا فى القرن الخامس ، وقد كتب مؤرخ يونانى معاصر وصفا للطريقة التى وصلت بها ، وهو وصف موثوق به لأنه يتفق مع كتابات ووثائق أخرى معاصرة .

ويروى هذا الإغريقى كيف خرج أحد الفلاسفة فى رحلة مع شابين كان يعلمهما ، هما فرومنتيوس وأيديسيوس ، فلما رست السفينة على الشاطىء للتزود بالماء ، صعد إليها المتبربرون وقتلوا جميع من بها إلا الصبيين اللذين أخذهما المتبربرون إلى ملكهم ، فجعل من أيديسيوس ساقيه ، ومن فرومنتيوس كاتم أسراره . فلما مات الملك وكان ابنه أيزاناس لم يزل بعد طفلا طلبت الملكة من الشابين أن يعاوناها فى حكم البلاد إلى أن يبلغ من العمر مبلغاً يسمح له بحكمها .

ولم يمض غير وقت قصير حتى حرك الله قلب فرومنتيوس فبحث عن بعض التجار المسيحيين من الرومان ومنحهم نفوذاً كبيراً واستحثهم على نشر إنجيلهم . وحالما أصبح أيزاناس قادراً على الاضطلاع بالحكم غادر الاثنان البلاد ، فذهب فرومنتيوس إلى البطريرك بالإسكندرية حيث كرس أسقفا وقفل راجعا إلى إثيوبيا .

وأصبحت الكنيسة الإثيوبية بذلك فرعاً من الكنيسة القبطية بمصر التى اعتنقت مذهب الطبيعة الواحدة ، أى أن طبيعتى المسيح الإلهية والإنسانية قد اندمجتا فى طبيعة واحدة .

وكما أخذت الكنيسة الحبشية بالطقوس القبطية فإن فيها كثيرا من مظاهر الديانة اليهودية كعادة الرقص فى مناسبة الأعياد ، وضرب الطبول الذى يصحب القداس وتضحية عنز وشاة وثور عند تدشين كنيسة ، وهم يستخدمون التمييز الموسوى بين اللحم الطاهر وغير الطاهر . وهم يحافظون بخشوع على يومى السبت والأحد .

وإذا أخذنا الأسطورة القومية على أنها حقيقة تاريخية ، وهو أمر لا يمكن

التسليم به فإنه يمكن تفسير وجود اليهودية فى إثيوبيا بسهولة ، ونجد التفسير المحتمل فى القرن السابع حين كانت جميع أرجاء الجزيرة العربية تعج باليهود وتزدهر فيها اليهودية فى ذلك العهد كان للإثيوبيين علاقات سياسية وتجارية بالجزيرة العربية ومن ثم فيمكن أن يكون النفوذ اليهودى قد انتشر بسهولة على الجانب الآخر من البحر الأحمر . وينبغى أن نتذكر فى نفس الوقت أن الكنيسة الإثيوبية كانت منعزلة إلى حد ما : فهى وإن كانت على صلة دائمة بالكنيسة الأم فى مصر فقد تركت وشأنها فى دراسة الكتاب المقدس . ولما كان السكان فى الأصل من الساميين ويشعرون أنهم ورثة تلك الحضارة السامية ، فقد حملوا لكتاب العهد القديم احتراما لايحتمل أى نقد

* * *

وتتميز السنة الإثيوبية بالأعياد الكنسية البهيجة ، وتزداد فخامة هذه الأعياد بنوع خاص فى أديس أبابا حيث يدور كل شىء حول الإمبراطور . ويشترك فيها عدد كبير من رجال الدين من الكنائس العديدة فى المدينة وقد ارتدوا أرديتهم الجميلة .

وعيد الغطاس من أروع الأعياد ، وهو يرمز إلى تعميد المسيح ، ويحتفل به خلال ثلاثة أيام من آخر يناير .

وتكون المدينة كلها بعد ظهر اليوم الأول مشغولة ، إما فى إعداد مسرح الاحتفال ، وإما بالسير فى صفوف بجوار الكنائس وعلى طول الطرق المؤدية إليها ، فهذا هو اليوم من السنة الذى تؤخذ فيه جميع توابيت العهد من قدس الأقداس فتحمل إلى أقرب مجرى ماء لتبارك بوجودها جميع الأماكن من حولها .

وتتحرك مواكب رجال الدين العديدة المبهجة ، موكب من كل كنيسة ، وعلى رأس كل موكب صبية يدقون الأجراس وآخرون يحملون الصور المقدسة

والمباخر ، ثم يأتى من بعدهم القساوسة فى زينتهم ، يحمل أحدهم على رأسه التابوت مغطى بالأبسطة ، ومن فوقه مظلة كبيرة من الحرير ذات أهداب مذهبة

ويقبل الناس الأرض أمام الموكب ، ويلقون بأنفسهم على التراب كلما مر بهم التابوت لأنهم يعتقدون أن القديس الذى دشنت باسمه كل كنيسة ، يحل بتابوتها فى أيام الأعياد ، وياله من حظ أن يكون عندك قديس لا يبعد عنك إلا بخطوات ، وعلى مسمع منك !! وهم يستغلونه إلى أبعد حد ، وتسمع التمتمة بالصلاة والتوسلات على طول الطريق .

وتصل المواكب الواحد بعد الآخر إلى مكان الاحتفال ، فإذا ما اجتمعت كلها هناك وكل موكب بتابوته ، جاء الإمبراطور نفسه فيركع على بساط أمام توابيت العهد ، ويسجد حتى تلمس جبهته الأرض ، ويظل هكذا وهو يصلى وقتا طويلا — شخص ضئيل الجسم فى حلته العسكرية الرسمية .

وأخيرا ينهض ويذهب إلى مقعده الذهبى الموضوع على مقربة تحت ظلة مقصبة وتقف حاشيته وراء المقعد . ويرتل الكاهن ويقرأ شيئا من الإنجيل نحو ساعة ، ثم ينسحب الجميع إلى الخيام حيث يقضون الليل . ويودع كل تابوت فى خيمة منفردة معددة إعداد حسناً .

ويبلغ الاحتفال ذروته فى صباح اليوم التالى فى حفلة التعميد ، ففى طلاقة الصباح الباكر تمتلىء جميع الطرقات بالناس فى ثياب العيد ، معظمهم عارى الساقين كعادتهم ، غير أن النساء يصبغن كعوبهن وأصابع أرجلهن باللون الأحمر تكريما لهذه المناسبة . وحين تقترب من مسرح الاحتفال يخيل إليك كأن الناس على هجرة ، وفضلا عن ذلك فإنك تجد حائطا سميكا منهم فى أماكنهم المناسبة لايكبحهم غير عدة صفوف من الجند ورجال الشرطة .

ثم يأتى الإمبراطور ! يحيط به حرسه على الدراجات البخارية فيجتاز الميدان ببطء وتصفق جموع الشعب وتهتف بصوت مرتجف بالغ الشدة لى ـ لى ـ لى

ويستقبل « أبونا » الإمبراطور فى هذه المناسبة مرتديا سترة سوداء وغطاء أسود للرأس ، ويقوده إلى العرش القائم فوق منصة مفروشة بالبسط السميكة . ويقف إلى يمين الإمبراطور وجوه القوم ، ويقف إلى يساره « أبونا » وغيره من الأحبار فى أوشحة موشاة بالفضة والذهب ، وترتفع فوق رءوسهم مظلات هائلة لاتقل فخامة ، وأمام الإمبراطور بركة مستطيلة بها نافورة . ويطفو على الماء صليب عليه شموع موقدة . وفى الطرف البعيد من البركة يرتفع عمودان عاليان عليهما نقوش محفورة وبينهما حوض المعمودية الذى يتدفق منه الماء كذلك.

وتسمع خرير الماء الهادىء وهمهمة عامة الشعب الخافتة ، ولكن فيما عدا ذلك . فكل شىء لايزال فى صمت مترقب

ويطوح القساوسة فى الهواء أعواداً من البخور ، ثم يأخذ أحدهم فى القراءة من إنجيل مموهة أطرافه بالفضة مطبوع على رقائق من الجلد ، وهو إنجيل ثقيل يرفعه صبيان يرتديان دثارين من المخمل البنفسجى . ويضعان على رأسيهما تاجين مذهبين . وبين الحين والحين تقطع هذا السكون ترانيم هادئه تؤديها فرقة من المرتلين فى نغم هادىء يرتفع ثم يتلاشى بالتدريج . وعند أداء بعض فقرات خاصة من النصوص الدينية يقف الإمبراطور والجماعة كلها ، وينزع الإمبراطور قبعته العسكرية ويعتلى مقعداً أمام العرش ، ثم يحمل الإنجيل فى النهاية إلى الإمبراطور فينحنى فوقه ويتمتم بالصلاة ويقبله ، ثم يسير على رأس رجال الدين حول البركة حتى يبلغ حوض التعميد حيث يعمده « أبونا » .

وبينما يجرى الاحتفال على هذا النحو ، يحول وضع العرش بحيث يكون ظهر الإمبراطور إلى البركة عندما يعود ثانية للجلوس عليه .

ومع ذلك فليس الإمبراطور وحده هو الذى يرغب فى أن يعمد على الرغم من وجود مسافة ما للوصول إلى الماء المقدس حتى بالنسبة إلى أقرب الناس إليه ووفرة عدد الجند ورجال الشرطة، فإن شغل الناس الشاغل هو الرغبة فى مجرد رش

رءوسهم بالماء بعد الإمبراطور مباشرة . وتظهر الثغرات فى الحاجز ، وتندفع موجة الشعب إلى الإمام مقرونة بالصيحات المرتفعة لتغمر كل شىء فى طريقها . وإذا بالقوم فجأة فى دوامة ، لحماسة الشعب ، والضغط من الخلف ، والحفر الصغيرة الغائرة فى الأرض تجعلهم ينقلبون رأساً على عقب الواحد فوق الآخر . وهنا يسهل تكوين حاجز آخر ، فى حين أن مئات قليلة فقط هى التى تستطيع الوصول إلى البركة حيث يرشون أنفسهم فى اغتباط بالماء إلى أن يدفعوا عنه دفعاً .

ويمثل بعدئذ منظر عجيب أمام الإمبراطور ، إذ يتقدم نحو مائتى كاهن فى صفوف طويلة ، وعلى رءوسهم القلانس ، والمعاطف البيضاء الطويلة ، ويأخذون فى الغناء والرقص ، ويمسكون بإحدى اليدين عصا طويلة معقوفة ، وبالأخرى جلجلا يصلصل . وفى خطوات شبيهة بالانزلاق ، وفى حركات مرنة وعصيهم المعقوفة تصور نمطا معيناً ، يرقصون فى صفين متقابلين وجها لوجه ، جيئة وذهابا يتلاقون ثم يفترقون ، ويصحب الرقص طبل ضخم يوقع عليه براحة اليد .

وتكون جميع توابيت العهد آنئذ قد جمعت فى جانب واحد ، ومن خلفها قساوستها بمظلاتهم ، الصارخة الألوان ، ويهز بعضهم المباخر برشاقة فتهب عليك موجات من الرائحة الشذية .

* * *

ويعود بك ذلك إلى الماضى البعيد — إلى داود الملك الذى كان يجلس على عرشه الذهبى يرقب كهنته وهم يرقصون أمام تابوت العهد فالإنشاد الحزين ، وصوت الطبول الكئيب ، وألوان أردية الكهنة المبهجة ، والأوانى الثمينة ، والصلبان والتيجان الفضية ، تتضافر جميعا فى رسم صورة شرقية إطارها جبال « إنتوتو » العالية يتلألأ عليها ضوء الشمس المحرق ويتألق .

الفصل السابع

الحياة على الهضبة

كان جيمى أمريكيا وهو واحد من النخبة المختارة ، يشغل وظيفة ضخمة فى الأمم المتحدة فى إحدى مؤسساتها التى تحمل اسماذا حروف لا معنى لها ،وهدفها القيام بعمل نافع بين الشعوب المتخلفة ، فهو يجمع إحصاءات عن أشياء غريبة تافهة ، ويحصل على معلوماته من دواوين الحكومة ، ومن ثم فالمادة الأساسية لمنحنياته ورسومه البيانية نفسها كاذبة فى جملتها ، ولكن حتى هذا ليس له أية قيمة فكل مايهم من الأمر هو أن يعد أوراقاً يمكن لغيره فى مكان آخر من العالم أن يدرسها ويكتب عنها تقارير .

والواقع أنه كان عندما قابلته يستعد للذهاب إلى بلد آخر من البلاد المتخلفة ولكنه غير خططه بسرعة حين سمع بالرحلة الطويلة إلى الشمال ، التى كنت أفكر فيها منذ بعض الوقت ، وكان متحمساً جداً لمرافقتى .

وبعد أيام قلائل أعددنا سيارة « جيب » قديمة . وفى صباح يوم بارد معتم قبل شروق الشمس بوقت طويل دفعناها إلى حافة المنحدر على أمل أن تسير وحدها ، وكنا قد أحضرناها من ميكانيكى إيطالى فى الليلة السابقة ، أقسم لنا بكل مقدساته أنها تعمل بحالة جيدة . وحالما بدأت السير أخذت تكركر فى طريق الشمال الذى كانت تسير فيه خبباً آخر الضباع نحو جحورها بعد زيارتها الليلية للمدينة .

ويتجه طريق الشمال إلى أسمرة فى إرتريا — التى كانت مستعمرة إيطالية — وهو الطريق الذى كبد الإيطاليين كثيراً من الدماء والمال ، فقد كانت الأوامر أن تبنى بسرعة وبإتقان إذ أن إمدادات الجيش جميعا تأتى من إرتريا . ومن ثم فكلما تقدم الإيطاليون كانت فرق العمال تقفو أعقاب الجنود . ولم يروع الإثيوبيين



الطبيب الشانقلي الساحر . فاتن وذكي

وجود الفرق الإيطالية ، فهم يعرفون جبالهم ويستطيعون الاختفاء فى الأخاديد والوهاد ، فإذا ماهبط الظلام هاجوا مخيمات العمال وقطعوا رقاب النائمين . إن الإثيوبيين يجدون فى القتال متعة .

لقد كانوا قديما ، أناساً قلما يموتون فى فراشهم ، وقد جعل القتال المستمر على مدى القرون منهم محاربين لايشق لهم غبار ، جسماً وعقلا . وهم إلى ذلك وطنيون متحمسون إلى أبعد حد ، وإن كانت وطنيتهم مقصورة فى الغالب على المقاطعة التى يتكلمون لغتها أو لهجتها أو « أرضى الخاصة » على حد قولهم .

ولم يتهيأ للإثيوبيين مطلقا المال ولا المعرفة ولا الرغبة فى المحافظة على الطرق التى بناها الإيطاليون ـ الذين تمكنوا من إتمام ٥٠٠٠ ميل تقريبا من الطرق وعدد من القناطر ـ وكان ذلك إحياء لتقليد بناء الطرق الذى كان يفخر به الرومان القدامى ـ عندما كانت روما مركزا لشبكة من الطرق الجيدة الرصف تمتد من الشرق إلى الغرب حتى تصل إلى بريطانيا . وأراد موسولينى أن يرى العالم بأى سرعة يستطيع أن يحول قطراً همجياً متوحشاً إلى مستعمرة مثمرة ، يسودها القانون والنظام . وتجد الآن الهراسات وآلات تحطيم الأحجار ، والجرارات ملقاه على جوانب الطرق ، ومهشمة يعلوها الصدأ .

كانت الساعة السابعة والشمس على وشك الشروق فوق الأفق ، ووقفنا فى قرية صغيرة نحيى عودتها كما كان يفعل الإنسان منذ فجر الزمان . وطلعت الشمس بسرعة فأدفأت أبداننا المرتعشة وردت إلى القرية الحياة : سيقت المعز والأبقار من الأكواخ ، وبرزت النساء لجلب الماء من أقرب جدول .

واختفت قشعريرة الصباح بسرعة ، وكانت الساعات القلائل التالية حتى الضحى أبهج ساعات النهار كما هى العادة دائما فلما حانت الظهيرة أصبح الجو حاراً ولكنه غير بالغ السوء ، فالهواء فى هذا الارتفاع بارد دائماً ، ولا تحتاج إلى البقاء طويلا فى ظل ظليل حتى تحس ببرودته ، وفى العصر يهب نسيم بارد ينذر بمغيب

الشمس فيلف الإثيوبى « شمته » بإحكام حول كتفيه . والنهار هناك شبيه بنهار الصيف الحار فى البلاد الشمالية ، ولكن الليل ليس له ضوء ليالينا ، ليالى الصيف الدافئة ، وليس من الغريب فى أديس أبابا أن تجـــد صقيعاً فى ليالى يناير وفبراير .

وقدم علينا رجل مكفوف البصر يتوكأ على عصا ويقوده صبى صغير فأعطيناه قطعة خبز وضعها فى غرارة متدلية من كتفه ، ثم رفع ذراعيه وباركنا باسم يسوع ومريم العذراء .

وكلما ابتعدنا عن العاصمة ازداد الطريق سوءاً وأصبحت الحفر أشد عمقاً وأكثر عدداً ، وبرز كثير من أحجار الأساس . وكان من العسير على جيمى أن يسير ببطء ، فلا أهمية عنده لانكسار اليايات . وانطلق كما لو كان الشيطان يلاحقنا ، ويصيح بى وسط ضوضاء السيارة قائلا ، إنه لو كان لهذه السيارة محرك خيراً من هذا لاستطعت أن أتسلق بها الأشجار ولم يثب إلى رشده إلا حين انزلقت صفيحة من صفائح البترول التى تملأ كل ظهر السيارة « الجيب » وسقطت على كتفه سقطة ليست بالهينة ، فكبح فجأة من سرعة السيارة حتى كدت أن أطير فى الهواء ، وتركه هذا الحادث منكمشاً فتبادلنا مكانينا . وجلس بجانبى صامتاً لا ينبس ، وقد أمسك بكتفه .

كانت المناظر الطبيعية تتسم بالجلال ، ولكن البلاد نفسها كانت مجدبة لا لون لها ، فلا تجد على الهضبة ذلك الغنى المدارى ، فهى غير مشجرة ، تعصف بها الرياح وينتشر على سطحها الحصا هنا وهنالك . . . فيافى عظيمة الاتساع ، ووحشة صفراء ضاربة إلى السمرة ، تنادى فيها أشجار الأرز المتفردة بعضها بعضاً . وهناك على مدى البصر ترى قمم الجبال ضاربة فى السماء الزرقاء الصافية .

وكنا نقابل الفينة بعد الفينة قافلة من الحمير أو البغال بأحمالها الثقيلة من الجلود والحبوب ، ونمر بقرى من ستة أكواخ أو سبعة فحسب ، حيث يرتفع

نبات الـ « تف Teff » فى حقول صغيرة تحميها من العين الشريرة جماجم ثيران معلقة على قوائم .

والـ « تف » هو الغلة الغذائية الوطنية فى إثيوبيا ، واسمه فى علم النبات هو Erugrostic Abyssinica ، ويستخدم الرجال للحصاد مناجل صغيرة يصنعها حداد القرية ، وهم يقطعون الغلة قبضة قبضة ويتركونها خلفهم فتقوم النسوة بربطها ، ثم تجمع فى كومات تدرسها الثيران التى يقودها الأطفال جيئة وذهابا ويجدون فى هذا العمل أكبر ابتهاج وعندما تدرس الحبوب – وهى صغيرة جداً – بواسطة الثيران تنفصل عن قشورها بتذريتها فى الهواء .

وصلنا « أنكوبر » وهى المدينة القديمة التى عاش فيها منليك قبل أن ينتقل إلى الجنوب ويؤسس أديس أبابا ، بيد أنه ليس بها مايشير إلى أنها كانت يوما ما مقر الملك ؛ فهناك مجموعة أكواخ ولا شىء غير ذلك . وكان من عادة المحارب العجوز « منليك » أن يقوم بجولتين فى العام ، فيقطع الطريق مجتازاً بلاده مع جيشه كأنما هم سرب من الجراد . وكان معظم الرجال يصحبون نساءهم فيكون هؤلاء حرساً ضخماً لمؤخرة الجيش . وتعنى النساء بإدارة تعيينات الجيش . وكانوا يحملون من موطنهم كل مايستطيعون حمله ، ولكن ذلك لم يكن ليكفيهم وقتا طويلا ، ومن ثم يبدءون فى السلب ، ولم يكن منليك بطبيعة الحال يدفع مرتبات لجنوده ، بل كانوا يتقاضون مرتباتهم مما يستطيعون الحصول عليه بأنفسهم ، ومن ثم لم يكن هناك تقاعس عن المعركة ، لأنك إذا لم تبادر بالسبق فقدت أطيب الغنائم .

وكانت المسافات بين القرى شاسعة فى ذلك الجزء من البلاد ، الذى كان مركز حركة المقاومة فى أثناء الاحتلال ، فأباد الإيطاليون سكانه إلا القليل . وكان قائد الحركة رئيس شرطة أديس أبابا عندما دخلها الإيطاليون ، فلما فر الإمبراطور وتدهور كل شىء ، عاد إلى مقاطعته ونظم بها قوة للمقاومة ، وكان السلاح هو

المشكلة الكبرى ، ولكنه سرعان ما وضع خطة لمهاجمة فرق النقل الإيطالية القادمة من الشمال ؛ وكان لديه كشافون على طول الطريق ، وبذلك انفسح أمامه وقت طويل لوضع رجاله فى الخنادق والأخاديد ، وسد الطريق بالأحجار قبل وصول الفرق . إنها كانت مفاجأة غير سارة للإيطاليين أن ينثال عليهم المتوحشون فجأة من بين الصخور ، ولابد وأن منظرهم كان وحشيا بشعورهم النافرة المشوشة فوق رءوسهم – فالإثيوبيون يرسلون شعورهم فى وقت الحرب ليوحى منظرهم حقيقة بالفزع .

كان من الطبيعى ألا يترك الإيطاليون مثل هذه الأمور دون عقاب فكانت حملاتهم التأديبية تحرق القرى على مساحة واسعة حول كل مكان يحدث فيه الهجوم ، ثم أخذوا يمنحون مائة ليرة عن كل رأس يقدم إليهم سواء كان لرجل أو امرأة أو طفل ، فكان ذلك بداية لمطاردة كبرى وأصبح الإثيوبيون يصادون بالرصاص كالأرانب ، ثم تجمع رءوسهم فى سلال كالبطيخ .

وانتقل « أريجاج » – وهو اسم زعيم المقاومة إلى جهات غير مطروقة حيث قاوم الاحتلال بكل قوته . ولم يكن جيشه قليل العدد ، كما كان مزوداً بالأسلحة الإيطالية بدرجة كافية تماماً ، بل وكان لديه مدفعان ، فظل شوكة دائمة فى ظهر الإيطاليين والرءوس الذين انحازوا إلى العدو .

وعندما دخلت إيطاليا الحرب فى جانب ألمانيا ، وغزا البريطانيون إثيوبيا عن طريق السودان وكينيا ، كان معهم أريجاج والمحاربون البسلاء فى زحفهم إلى أديس أبابا ، حيث استطاع استقبال الإمبراطور والترحيب بعودته إلى أرض الوطن . واعترافا بما قدمه من أعمال عين « رأسا » ووزيراً للحرب ، ولكن الإمبراطور ضاق أخيراً بأريجاج وبماله من نفوذ فى الجيش ، فنقله إلى وظيفة أقل نفوذاً وعينه رئيسا للشرطة .

تنحدر الهضبة فى الشرق انحدارفجائيا صوب صحراء الدناقل : ويغشى الإقليم

المنخفض ضباب ساخن متراقص ، وتستطيع أن تلمح على مدى البصر ضوء الشمس لامعا فوق نهر أواش الذى يحاول جاهداً بلوغ البحر الأحمر ولكنه لايلبث أن يستسلم عندما يوغل فى الصحراء مسافة طويلة على حدود الصومال الفرنسى حيث ينتهى إلى بعض المنافع الملحية .

وهناك طريق من طرق القوافل القديمة يخرج من «أنكوبر» يتعرج ويتلوى هابطاً إلى الإقليم المنخفض ، والطريق نفسه شبيه بنهر جف ماؤه فهو وعر تنتشر فيه الأحجار الضخمة ، وكان طريقا هاما قبل أن تظهر أديس أبابا فى الوجود ، تطرقه قوافل العرب تحمل الملح والأقمشة من الشاطىء وتعود بالذهب والأرقاء السود .

ويمتد طريق الشمال إلى مسافات بعيدة على حافة الهضبة ، وكثيرا ما كنا نذهب إلى أطرافها ونتطلع من فوقها فكأننا فى طائرة، إذ الإقليم المنخفض من تحتنا على عمق ميلين . وقد لايدرك المستغرق فى التفكير أن الهضبة قد بلغت نهايتها إلا بعد فوات الوقت ؛ فالهوة حادة ومفاجئة إلى حد بعيد .

ويمر «ترمابر» هو أعلى نقطة فى الطريق (٩٧٥٠ قدما) . وقد اجتزنا نفق موسولينى ثم هبطنا حيث كان الطريق منحوتا فى الصخر مجتازاً عدة أنفاق صغيرة، وينحدر ٥٠٠٠ قدم فى مسافة ٢٧ ميلا . وظللنا نسير وقتا ما على هذا الارتفاع ، وجانب الهضبة المنحدر المغطى بالأشواك إلى يسارنا حتى بلغنا بعض التلال الصغيرة ، فاجتزناها وسرنا فى قاع أخدود هائل إلى أن بلغنا مكانا يتفرع فيه الطريق إلى ثلاثة طرق . أحدها يتجه إلى الشرق مباشرة ويسير حتى ميناء عصب الصغير ، وطريق الشمال نفسه ويسير إلى أسمرة ، ويتجه الثالث غربا إلى بحيرة «رانا» وهو الطريق الذى سلكناه .

وكان الوقت متأخرا ، وقد أعيانا التعب حين أخذنا نجمع أعوادا لنشعل بعض النار وكانت بقمة جميلة من هذا الإقليم ، ذات جبال ووديان وأحراش صغيرة من أشجار المانوليا ، وهى آنئذ تغير أوراقها ، وبعضها لايزال جافا داكن

اللون ، بينما كان البعض الآخر تغطيه براعم خضراء زاهية ، وكذلك كان هناك نبات الزعرور البرى والحشيشة الحبشية التى يتخذ من أزهارها مطهر قوى يتعاطاه الناس هناك لمدة يومين أو ثلاثة أيام كل شهر ليتخلصوا من الديدان الشريطية ، أو على الأقل للوقاية منها . وكل الناس مصابون بالدودة الشريطية إذ لا محيص عن ذلك فى بلاد اللحم النىء فيها هو أشهى طبق . ويعفى الإثيوبى من جميع الالتزامات فى أيام تعاطيه الحشيشة الحبشية . فلا يحق لأحد إزعاجه حالما يتناول منها أول جرعة .

كنا قد تناولنا الطعام واضطجعنا نستمتع بألوان الغروب المتباينة فوق الجبال، ولم تكن هناك أكواخ ولا أناس بأى مكان قريب ، ثم جاء الظلام متسللا من الوادى مصعداً على جوانب الجبال ليطفىء وهج القمم الممزقة . وبعد قليل أصبحت الليلة سوداء فاحمة ، ذات سماء ساحرة غاصة بالنجوم . وكم كانت دهشتنا حين اكتشفنا أن الجبال كانت مأهولة بالناس . لقد كانت مرقطة بأضواء صغيرة من النيران المتلألئة .

وصلت أسماعنا بالليل أصوات خافتة ، وهببنا من نومنا مرة مذعورين على صوت ضبع يعوى عواء خبيثا على الجانب الآخر من سور الخيمة .

وظل الصباح ساكنا إلى أن استيقظت الطيور المغردة ، وغنى من بينها طائر ، نغما حزينا قصيرا ، قطعه ثم بدأه من أوله مرة أخرى . وداعبت أشعة الشمس غلالات الضباب التى تغشى الوادى . ومر قطيع من الغزلان على مدرج من الأرض تحتنا فى طريقها إلى النهر الذى غاض حتى أصبح مجرى جبليا صغيرا .

وأصبح الطريق آنئذ لا يمت إلى مفهوم الطريق إلا بصلة قليلة ، فهو فى بعض المواضع مطموس تماما ، وتحل محله حفرة واسعة أو منحدر شديد الميل ، أو تسده فى مكان آخر صخرة سقطت من على فنضطر أن ندور دورة طويلة .

ولقد منحت إثيوبيا أخيرا قرضا من البنك الدولى ، على أن يصرف جزء

منه على الطرق ، ويصرف الباقى على مشروعات التنمية . وقد بدأ العمل فى الطريق الممتد جنوباً من أديس أبابا إلى كينيا ، وجاء الأمريكيون بآلات المسح والتسوية ولكنهم لم يفعلوا شيئاً أكثر من ملء الحفر العميقة بالتراب الناعم حتى لاتكاد تراها . وهم لايزالون عاكفين على هذا العمل ، وسوف لايعملون إلافى الطرق التى يسهل عليهم النجاح فى عملها والتى تنطوى على أهمية حربية ، ومن ثمة تكون ذات نفع فى الدفاع عن إفريقية . أما فى الوقت الحاضر فستظل قيادة السيارات فى إثيوبيا لمجرد النزهة .

ولم يكن باستطاعتك قبل الاحتلال الإيطالى أن تذهب بعيداً إلا على ظهر بغل ، والركوب عمل معقد كريه ، وهو دون شك ليس مما يقوم به «أبونا» الذى عليه أن يكرس الكهنة فى طول البلاد وعرضها ، ولذلك اعتاد بدلا من الانتقال بنفسه ، أن يكتب كلمات الاحتفال ويضعها فى كيس من الجلد يحمله رسوله ويذهب به راكبا ، فإذا ما بلغ غايته أفرغت محتوياته فوق رءوس المرشحين الساجدين ، وهذا كل شىء .

وفى ساعة متأخرة من عصر أحد الأيام أصيب محرك السيارة بالسعال ، ولما تفاقمت حاله سوءاً وقفنا بجوار مجموعة من الأكواخ الواسعة فى ظل بعض الأشجار لفحصه ، فلم يمض وقت طويل حتى أخذ عدد من الأطفال يقترب منا فى تردد ، وكانوا يبرزون من وراء الأكواخ والأشجار ، ثم أخذ كل منهم يدفع الآخر إلى الأمام مما شجعهم ، ولذا فسرعان ما تجمعوا حولنا بفضول .

وبعد وقت قصير ، تقدم منا رجلان بسرعة ، وخلعا قبعتيهما القذرتين المصنوعتين من القش تحية لنا ، ثم أمطرانا بسيل من الأسئلة ، وكنا فى شغل عنهما نريد إنجاز مهمتنا قبل أن نبدأ فى التودد إليهما ، ولذا تلقى هذان السيدان منا إجابات مقتضبة لم يرضيا عنها كثيرا .

ووقفا يتمتمان معاً ، ثم تناول كل منهما مفكا من صندوق الآلات وأخذا

يخزان بهما الأجزاء الهامة فى سيارة الجيب ، وهما يؤكدان لنا بوجوه جادة واثقة أنهما يعرفان قدراً كبيرا عن «المكنة» ، وهى كلمة أدخلها الإيطاليون إلى إثيوبيا ؛ تستعمل لأى نوع من أنواع الآلات الميكانيكية . وعندما اعتذرنا بأدب عن عدم قبول معونتهما انسحبا بضع خطوات وهما يؤكدان كل لصاحبه أننا سوف نلتمس مساعدتهما بسرعة . ولم يمض وقت طويل حتى التمسناها فعلا لأننا لاحظنا أن أحد الإطارات الخلفية يبدو رخواً ، ولذا سمحنا لهما بفك «رجل المكنة» ، ويطلق هذا الاسم على «عجلة السيارة» . بكل بساطة ويسر .

واللغات الإثيوبية ـ وهناك لغات متعددة ـ فقيرة ، ولا محيص من أن تكون كذلك فى بلاد أجزاؤها المختلفة منعزلة عن العالم من حولها بوديان عميقة كالوهاد ، وكان لكل قسم من البلاد «رأسه» الخاص أو «النيجوس» الذى يحارب جاره بين الحين والحين ، ولكن هذا هو ماكان يراه السكان من بعضهم البعض ، ولم يكن هناك أى من تلك الحرف السلمية التى تنشر المهارات والأفكار وتوحد بين الناس والقبائل ، والتى تنمى اللغة وتخلق شعبا متجانساً بمضى الزمن . ومن أجل ذلك يصبح الإثيوبيون شعبا واحدا ، بل عدة شعوب . ولقد جعل الإمهريون ـ حكام البلاد الذين يقطنون مقاطعة «شوا» فى وسط البلاد ، الإمهرية اللغة الرسمية . وهم يحاولون القضاء على جميع اللغات الأخرى . وبالإضافة إلى المدراس العشرين التابعة للبعثات التبشيرية ، يوجد الآن مائة وخمسون مدرسة تقريبا ، ومدرستان ثانويتان . ولكن اتساع البلاد ـ وهى قدر مساحة الجزر البريطانية عشرين مرة ـ مع تعذر الاتصال يعطينا فكرة عن صعوبة المهمة وطول مداها قبل أن تندمج هذه المجموعات المتعددة نتيجة لهذا الوضع . ويمكن أن نحدس عدد السكان ، ولكنه مجرد تخمين ، إذ لم يجر لهم أى تعداد ، وقد قدر الإيطاليون عددهم بنحو ستة ملايين ، بيد أن الإثيوبيين يقدرونه بضعف هذا العدد .

وسرعان ماتبين لنا أن بقية ساعات العصر يجب أن نقضى فى السيارة الجيب وألا نبتعد كثيراً فى ذلك اليوم ، فقد ظهر أن محرك السيارة مجهد . وكان يقف حولنا نصف سكان القرية يرقبون باهتمام كل مانفعله . وأخذوا يتهكمون على مساعدينا لأنهما عجزا عن نزع إطار السيارة وإن كانا قد كافحا فى سبيل ذلك ببسالة مستخدمين أصابع أيديهم وأقدامهم ورافعة الإطارات .

وصاح بهم رجل ضئيل الجسم يلف حول خصره مئزراً بالياً وهو يهدر بالضحك : « راس يلوم » ومعناها « لاعقل لك » وهو وصف سيء إذ يوجه إلى الشخص . والواقع أنه ليس فى تلك البلاد ماهو أسوأ من هذا الوصف ، ولذلك نال الرجل الضئيل ضربة شديدة سريعة على مقدم رأسه برافعة الإطار ، وكانت مثل هذه الضربة كفيلة أن تلقيك أو تلقينى أرضاً ، ولكن الرجل الضئيل هز رأسه فحسب ، غير أنه لم يضحك بعد ذلك ، ووضعت القرية حداً لسخرية الآخرين كذلك وحينئذ قدمت يد المساعدة « للمكانيكيين » وأخرجنا الإطار الداخلى بسرعة ، ورممناه وأعدنا تركيب العجلة . وجاء دورها بعد ذلك لنفخها ، فألقيا على الآخرين محاضرة ضافية فى فن ترميم « رجل المكنة » وتغييرها .

وقدم علينا رجل عجوز حسن المظهر يضع « شمة » على كتفيه ، فقدم نفسه إلينا بوصفه « شيكا شوم » ومعناه على وجه التقريب « قاضى الصلح » والـ « شيكا شوم » هو جابى الضرائب والقاضى المحلى للأمور الثانوية ، وهو يقرأ بلاغات الحكومة فى الأسواق العامة ، ويكتب العقود . وقد أخبرناه عن المكان الذى نقصده ، وأننا نفكر فى ضرب خيامنا فى القرية لقضاء ليلتنا ، وانتهى حديثنا معه بدعوته لنا إلى تناول الطعام فى كوخه عند غروب الشمس .

وأخيراً ـ قبيل المساء ـ بدأ المحرك (يخرخر) بانتظام ، أوكما تفعل الجرة القديمة من بقبقة . وحينئذ فككنا متاعنا ، وتجمعت بعض السحب السوداء منذرة بالسوء ولم يلبث أن انهمر علينا المطر فجأة فدفعنا كل شيء إلى داخل

الخيمة ، ولذنا بها نحن أيضاً . واشتد زمهرير البرد بصورة مفزعة فجلسنا وقد جمدت أجسامنا انتظاراً لانقطاع المطر ، بينما كانت تنفذ المياه إلى داخل الخيمة التى عجزت عن الحيلولة دون نفاذ مظامه .

كان الظن أننا لانزال بعيدين إلى حد ما عن موسم الأمطار الخفيفة التى تسقط فى فبراير ، ولكنها لايمكن الاعتماد عليها ، فهى أحياناً لاتسقط مطلقاً ، وأحياناً أخرى قد تكون غزيرة جداً ، وتستمر حتى موسم الأمطار الغزيرة الذى يبدأ فى شهر يونية وينتهى فى نحو أول أكتوبر .

وكان الناس يومئون إلينا من أكواخهم ، فشعرنا أن من الخير لنا أن نقترب من النار لنصطلى ونجفف ملابسنا ، وقد نجد هناك كوخاً خالياً يمكن أن نقضى فيه تلك الليلة لأن ضرب خيمة تحت هذا المطر المنهمر ليس بالشيء البهيج .

أسرعنا إلى كوخ الرجل المسن الذى دعانا إلى طعام العشاء . وسرعان ما دعانا أيضاً إلى قضاء الليل عنده ، وقد أبدى أسفه لعدم وجود كوخ خال ، ولكنه أفهمنا أن لديه المكان الكافى لمبيتنا ، فحملت جميع أمتعتنا إلى داخل الكوخ ، وسرعان ماجلسنا جلسة مريحة حول مجمرة صغيرة تتواثب منها ألسنة اللهب ، وهى مبنية من بعض الأحجار .

ووضع إطار شدت عليه الجلود على فتحة الباب فساعد على صد التيار البارد ، وجلس كل منا على كتلة صغيرة من الخشب مجوفة بحيث كان المقعد شبيهاً بالقصعة . وكان الكوخ مستديراً عظيم الاتساع ، سقفه من القش ، وهو مخروطى الشكل ينتهى كله فى نقطة واحدة . ولم يكن به نوافذ ولا مدخنة ، وكان الدخان ينصرف من السقف الذى علق فيه المتشطىء وقد نمت بادراته ليتلقى الدخان ، إذ يجب أن يجهز الشعير على هذا الوجه قبل تخميره لصنع الجعة .

وفوق النار وعاء من الفخار به « الوت Wot » يتصاعد منه البخار ، وهو طبق من الطعام يؤكل مرة فى اليوم على الأقل ، يتكون من مرق الفلفل الأحمر

والزبد والثوم . ويوضع فى المرق الفول وكمية من البيض المسلوق ، وقد يوضع فيه دجاجة أو قطعة من لحم الضأن أو لحم البقر . ولكن لما كنا فى وقت الصوم فقد استبعد كل طعام من أصل حيوانى .

وكانت تقلب ما فى الوعاء بعصا طويلة امرأة شابة ، وكان ثوبها القطنى البدوى النسيج يلتف حول جسمها بإحكام ويصل إلى قدميها ، ولا يتغير طراز ملابس النساء فى تلك البقاع ، فكلهن يرتدين نفس اللباس . وجلس زوجها معنا يوجه إلينا الأسئلة بينما جلست أمه العجوز على الفراش ، وهو مجرد مصطبة بجوار الجدار مغطاة بالجلد وكان يتعارك فوقها طفلان عاريان ، وكلما بلغ عراكهما حد العنف عالجتهم الجدة بصفعة يتردد صداها .

وسأل الشاب عن أديس أبابا التى لم يرها قط ، كما لم يرها أحد من الآخرين ولكنهم سمعوا عنها ، وعما فيها من أشياء عجيبة يمكن شراؤها ، وعن عدد السيارات ، والإمبراطور ، والأنوار التى تضاء عندما تميل الشمس إلى الغروب ، وعن المكان الذى يعرض صوراً من شتى أنحاء العالم . ولمعت عينا الشاب وهو يسهب فى وصف كل تلك المعالم الرائعة ، فهو يرغب فى مشاهدتها ، ويتحدث بحماسة عن خططه لهذه الرحلة ، وهو يريد أن يجد هناك عملا وسألناه عما إذا كنا نعرف أحدا يستطيع أن يستخدمه . وغضب والده الشيخ وتسرع يحدثنا محتدا عن الفساد والفوضى ، وأن الناس يجب أن يعنوا بأرضهم وأن يعيشوا كما رسم الله وكما يقول الكهنة . ودخلت امرأة نصف بلبن فى وعاء من الفخار كانت قد حلبته لتوها ، وأخبرنا الشيخ أنها ابنته وأن زوجها كان من الثوار وقت وجود الإيطاليين ، وأنهم شنقوه ، ثم أدخلت ثلاث بقرات وعجل وحماران و بعض المعز إلى الداخل فقيدت بأحد أركان الكوخ .

وحان وقت الأكل فوضع الوعاء بيننا بحيث نستطيع جميعا الوصول إليه ، ووضعت بجواره كومة من الـ « إنجيرا » ، وهى فطائر مخمرة ذات لون رمادى شبيه

بلون مسحة الأرض مصنوعة من دقيق الـ (تف) وتخبز فى أوعية خزفية مستديرة ونقطع منها قطعاً صغيرة ونغمسها فى الإناء إلى أن تتشبع جيداً . وعكف الشيخ يتصيد لنا من الوعاء أطيب ما فيه فكانت أكلة ثقيلة . دار بنا إبريق من الـ (تالا) وهى نوع من الجعة المرة تخمر من الشعير فأطفأت قليلا من النار فى جوفنا ولكن مع هذا ظلت عيوننا تدمع . وحين ظننا أننا أدينا واجبنا قدمنا علبة سردين ، فظل الشيخ لحظة يرفض أن يطعم منها ، ولكنه حين فعل عاد شرها فاضطررنا إلى فتح علبتين أخريين .

وجلست النساء وحدهن فى أثناء تناولنا الطعام ، ولم يقتربن من الوعاء حتى انتهينا من الأكل ، ولم يكن ذلك لأنهن خائفات أو إماء للرجال ، فهن فى إثيوبيا أبعد كثيرا من هذا ، ولهن نصيب فى الأثاث والمتاع ، ولكن الرجل هو سيد الخليقة ، ورغم أنهن يستطعن مجادلة سيدهن بل وشتمه ، فللرجل عليهن حق الاحترام وخاصة فى حضرة الغرباء . ولكن من الطبيعى هنا أن تقوم المرأة كما هو الحال فى كل مكان من إفريقية بالأعمال الشاقة ، فالنساء والأجراء هم الذين يحملون الأثقال أو الأحمال ، فى حين يستطيع الرجل أن يجلس مستريحا غاية الراحة فى السوق إلى مكنة خياطة ، أو يغسل ثوب زوجته فى النهر .

قد يبدو فى ظاهر الأمر كأن المرأة الإثيوبية أمة ، فى حين أنها أحسن حالا بكثير من أخواتها فى أى بلد من البلاد المتخلفة ، ويحميها القانون القديم فى زواجها حماية خاصة .

وللزواج عند سكان الهضبة ضروب متعددة ، فهناك الزواج الذى تعقده الكنيسة ولا يلجأ إليه إلا القليلون لأنه غير قابل للفصم ، وهناك الزواج بالتعاقد ، ويغلب أن تنظمه العائلتان والزوجان فى سن الطفولة . وتعوض عائلة العروس عن حرمانها من خدماتها ، ويكون التعويض عادة فى شكل ماشية ويعطى مثل هذا التعويض أيضا عندما يعقد الزواج بين اثنين من الراشدين وتجرى العائلتان

المفاوضات فتكتبان عقداً مؤداه أن يتقاسم الفريقان بالعدل كل شيء فى حالة الطلاق ويصدق (الشيكاشوم) على هذا العقد. وهذا هو أكثر أشكال الزواج شيوعاً ويحضر قسيس فى يوم الزواج ليمنح البركة للعروسين. وعندما يتزوج الفقراء لا تحتاج العائلتان إلى فحص الأثاث والمتاع فليس هناك سوى كوخ صغير تجمع له الزوجة المواد ويقوم الزوج ببنائه. وهناك ضرب شرعى آخر كثير الشيوع من الزواج، وهو الزواج الموقوت بفترة محدودة فى مقابل أجر محدد تقاضاه الزوجة، وينفصم هذا النوع من الزواج من تلقاء نفسه فى نهاية المدة وليس على الرجل بعدئذ التزامات نحو الأطفال، ولكن هؤلاء يعتبرون أولاداً شرعيين لهم حق وراثته بيد أن المرأة ليس لها هذا الحق مالم تثبت أنها كانت بكراً فى وقت المشارطة، وتعتبر فى تلك الحالة كأرملة للرجل، ولكن إثبات ذلك ليس بالأمر اليسير بحال من الأحوال.

بعد أن تناولنا الطعام نظفنا جميعاً أسناننا، إذ قطع غصن رفيع إلى أجزاء قصيرة وزعت علينا. وراح كل منا يمضغ أحد طرفى الجزء الخاص به إلى أن أصبح لدنا كالفرشاة فنظفنا بها أسناننا.

وقامت الزوجة الشابة بعمل قهوة بها توابل نفاذة ومحلاة بعسل النحل، ثم تجاذبنا حديثاً عذباً حتى بدأ النوم يثقل أجفاننا. وكان أصدقاؤنا يودون لو استمروا فى الحديث طوال الليل، ولكن التحدث بلغتهم لعدة ساعات متوالية كان أمراً متعباً فيه شيء من المشقة ولذلك طلبنا بعض الدريس لنضعه تحت الغرارات التى ننام عليها. وأصر الرجل الشيخ على أن نرقد فى مكان نومه هو ولكنه سلم فى النهاية بأن الأفضل لنا كثيراً أن نرقد على الأرض.

ران الهدوء شيئاً فشيئاً على الكوخ، ورقدنا بعيداً بعض الشيء عن العائلة التى نامت فى عدة أجزاء من الكوخ على ذلك الرصيف المرتفع بجوار الجدار الخشن المغضن المبنى من الطين. وكنت ألمحهم بين الحين والحين كلما تأججت الجمرات

الآخذة فى الخمود. كانوا قد سحبوا شماتهم، فغطوا بها رءوسهم حتى أصبحوا أشبه بالموميات، واستقر بعض الدجاج على مجثم تحت السقف، وشغلت الفيران بالسعى على الأرض، واضطرتنا البراغيث التى لامفر منها إلى اليقظة وقتاً طويلا، ولكنى رحت فى النوم أخيراً على صوت اجترار البقر وحركة الحيوانات الأخرى التى لا يقر لها قرار.

وأيقظنا فى الصباح صياح أحد الديكة، وأخذت الموميات تتجرد من أغطيتها وكان من الطبيعى أن ينهض النساء ويعملن أولا، وسيقت الحيوانات إلى الخارج، وحمل روثها فوضع تحت نتوء من السقف ليحول إلى وقود فى أثناء النهار وركعت أحدى النسوة بالقرب من الموقد وجرفت الرماد بعناية إلى جانب، فوجدت فحماً مشتعلا ظلت تنفخه حتى تلظى ووضعت عليه أغصاناً يابسة، ومن فوقها قدر الموت، فلم يمض وقت طويل حتى أعد طعام الصباح.

خرجنا وأخذنا نتجول حول الأكواخ، فحيانا القوم المحبون للضحك بالابتسامات والإشارات المزعجة، وكانت النسوة مشغولات بأعمالهن اليومية. بعضهن يطحن الدقيق، على ركبهن، ويدفعن أحجار الرحى ذهاباً وإياباً، والبعض الآخر يسحقن الفلفل أو يغزلن القطن، وهو عمل يبدو كلعب الأطفال، فهو مجرد برم وتد خشبى صغير بين الإصبع الوسطى والإبهام، بينما تمسك اليد اليسرى بقطعة من القطن تتحول إلى خيط فوق المغزل الخشبى ويزرع القوم قليلا جداً من القطن، ولابد من استيراد كمية من القماش لتزويد الرجال بقمصانهم وسراويلهم المضحكة، وهى سراويل ضيقة عند الساق، منتفخة عند العجز، أما قطنهم المحلى فيستخدم فى صنع الشمات، والقمصان. وعندما ينجز النساء قدراً كافياً من الغزل يحملن كل المغازل الخشبية الممتلئة إلى النساج وهو الشخص الوحيد الذى يعمل شيئاً ما طوال العام. ويجلس خارج كوخه فى ظل السقف المائل المكون من

الحشائش بنوله البدائى ، ويثبت ساقيه فى حفرة بالأرض ، ويوجه الخيوط بأصابع قدميه الكبيرة

وكان بالقرية حداد ، وهو صانع ماهر إلى حد ما فيما يصنعه من أدوات بسيطة . ويستخدم فى كوره فحم الخشب الذى كان يحرقه بنفسه فى غابة تقع على مسافة بعيدة . وله صبى يعمل على منفاخ من جلود البقر مخيط بعضه ببعض . وكان يصنع الفئوس والمناجل ورءوس الرماح والخناجر ذات الحدين التى يعلقها الرجال إلى جنوبهم ويوجد الحديد على سطح الأرض فى موضع أو موضعين من البلاد وينقب عن الحديد الخام فى المناطق الشمالية الردغة منذ ألفى سنة ، وأخيراً جلب العرب الحديد إلى البلاد .

ويسوق الأطفال بقر الزبيو المسنم إلى خارج القرية ثم إلى السهل الجاف حيث القش اليابس والطلاح والأشواك ، وهى كل ماتنتظره الحيوانات الجائعة ، وهى حيوانات عجفا. يدهشك أنها استطاعت أن تظل على قيد الحياة فى موسم الجفاف الطويل ، حيث لا يقدم لها إلا القليل من تبن الذرة ، وليس له قيمة غذائية كبيرة . ولو أن هؤلاء الناس بذلوا القليل لإيجاد سلالات منتخبة ، ولو أنهم أقنعوا بأن البقرة يجب أن يتوافر لها ماتأكله فى موسم الجفاف ، كما هو الحال فى موسم المطر ، لأمكن أن يتغير شكل الماشية تغيراً تاما فى مدى عامين ، ولكن التحدث إلى الإثيوبى فى هذا الشأن لايزال سابقا لأوانه . وربما أمكن استثارة اهتمامهم فى مدى خمسين عاما أخرى . ولا ترجى فائدة من إدخال السلالات الأوربية ، فقد جربت هذه المحاولة ولكن الماشية خضعت للمناخ ، كما أنها لم تصمد للمعاملة القاسية التى طبقت عليها ، وحتى التهجين عملية غير ملائمة لأن أبقار الزبيو تفقد قوتها عندما تهجن .

وتلكأ الرجال فى ثرثرتهم ، إذ كان أحدهم يعد محراثه ، وتربط أجزاءه أشرطة من الجلد . وكان بعضها مقطوعاً فاستبدل بها غيرها جديدة . وكان المطر

الغزير الذى هطل فى اليوم السابق قد فكك الأرض التى أحرقتها الشمس فأراد الرجل أن يرى ما إذا كان فى استطاعته أن يحرث قطعة من حقله ، ولم تكن الأرض ملكه ، فالواقع أن فى البلاد قلة من الفلاحين الملاك ، لأن الأرض يملكها الوجهاء والكنيسة والأسرة الإمبراطورية ، وعلى الفلاح أن يدفع المالك ثلث المحصول .

ووجدنا صاحبنا الشيكا شوم (قاضى الصلح) جالساً تحت شجرة عتيقة يصغى إلى شكوى رجلين . وكان من المحال أن تعرف ماتدور حوله الشكوى فقد كان الرجلان يتكلمان بسرعة فائقة وبلسان ذرب وجىء بالشهود ، وأدلى الحاضرون كذلك بوجهات نظرهم .

كان المشهد عند تلك الشجرة صورة حية حقيقية لقصة يستطيع راوى القصص القديمة فى أديس أبابا أن يثق على الدوام بأن يحصل منها على نصيب طيب من التصفيق بالإضافة إلى قليل من المال .

• ◦ ◦

ويجمل القصة أن امرأة من قرية جادار فقدت أغنامها فى الصباح الباكر عند شروق الشمس عندما تركتها تخرج من الكوخ . فدخلها الشيطان على حين فجأة ، واختفت الأغنام . وأخذت المرأة تبحث عنها وتبحث طوال الصباح فى القرية وفى الحقول ، وفى الغابات النائية التى جابت كل طرقها . وكانت المرأة أرملة فقيرة لاتملك أبقاراً ، وليس لها إلا هذا القطيع الصغير من الغنم ، ومن ثم فستنزل بها الكارثة إن لم تعثر عليه .

وقابلت بأحد ممرات الغابة رجلا جالساً يتناول طعامه ، وكان الرجل غريبا ، ولذلك لم تعرف أنه أصم ، وسألته إذا كان قد رأى مصادفة قطيعا صغيراً من الغنم بلا راع يسير فى ذلك الطريق ، وأشار الرجل الأصم إلى الممر مباشرة لأنه ظن أنها لابد تسأل عن مكان المخاضة عبر النهر الذى يجرى غير بعيد من هناك .

وبعد أن شكرته الأرملة على تلك الأخبار السارة واصلت سيرها فى الطريق حتى بلغت النهر ، وسارت بمحاذاة الشاطىء ، فوجدت بعد برهة وبمحض المصادفة أغنامها واقفة تشرب هناك . ولكن يا للأسف !! لقد سقط حمل صغير من على المنحدر وكسرت ساقاه الأماميتان ، فتأبطته وذهبت به مع بقية الغنم إلى بيتها .

وكان الرجل الأصم قد اضطجع لينام بعد الأكل ، فلما بلغته المرأة أرادت أن تشكره وأن تقدم له هدية ، هى ذلك الحمل المكسور الساقين ، ولما لم يستيقظ على الرغم من صياحها به ، هزته من كتفه ، فلما فتح عينيه واستوى جالساً رفعت إليه الحمل بساقيه المتدليتين اللتين تبعثان على الرثاء .

وصاح الرجل : « إننى لا أعرف شيئاً عنه » لأنه ظن أن المرأة تحاول أن تلقى عليه مسئولية الحادث .

فقالت : « نعم ، ولكنك أرشدتنى إلى الطريق الصواب »

وصاح الرجل غاضباً وعاد إلى رقاده : « إليك عنى ودعينى أنام فى سلام »

وتجمع نفر من الناس ، تصادف أن كانوا فى طريقهم إلى سوق قريب ، فقصت عليهم المرأة كيف كانت تبحث عن أغنامها ، وكيف أرشدها الرجل إلى الطريق الصواب ، وأنها تريد أن تعطيه الحمل شكراً له .

وقفز الرجل الأصم واقفاً على قدميه وصاح وهو يحتدم غيظا . « لقد أخبرتك أننى لا أعرف شيئا مطلقا عن أغنامك . فكيف تتجاسرين على شتمى !! » ثم ضربها بعصاه على ظهرها .

وصاحت المرأة مولولة : « آه ، لقد ضربنى . ضربنى . . . لابد أن أصحبه إلى القاضى »

وهكذا ذهبت المرأة بأغنامها ، والرجل الأصم وجميع المشاهدين الذين نسوا أنهم كانوا فى طريقهم إلى السوق يبحثون عن القاضى ، وتجمعوا جميعاً تحت الشجرة

الكبيرة فى القرية حيث تعقد المحاكمات ويفصل فى الأمور الهامة . وجىء بالقاضى من كوخه .

وعرضت المرأة شكواها أولا ، ثم تكلم بعدها الرجل الأصم ، ثم أدلى كل فرد من الجمع برأيه ، فكانت مسألة معقدة اقتضت وقتا طويلا جداً ، وجلس القاضى على حجر وهز رأسه الذى وخطه الشيب وبدت عليه الرصانة التامة ولكن هذا لم يعن الشىء الكثير ، لأن القاضى نفسه كان مصاباً بصمم لا يقل عن صمم الرجل الذى ضرب المرأة ، كما أنه كان قصير النظر إلى أبعد حد .

وأخيرا رفع يديه فأوقف الثرثرة عند حد ، ثم أصدر حكمه فقال :

« إنه لمن المخزى أن يضطر المرء إلى الاستماع لمثل هذا العراك العائلى » ثم قال وهو يشير إلى الرجل الأصم : « وأنت يجب أن تقلع من الآن فصاعداً عن ضرب زوجتك بالعصا إذ يكفى تماماً أن تضربها باليد » وقال للمرأة التى تحتضن الحمل : « أما أنت فينبغى ألا تتكاسلى إلى هذا الحد ، وعليك من الآن فصاعدا برعاية طفلك وكوخك ، كما يجب أن تكون وجبات الطعام معدة حين يطلبها زوجك » .

ثم أحنى رأسه محييا الحمل وهو يبتسم له بلطف وقال . « أما عن هذا الطفل الجميل فإن الله سيمنحه حياة طويلة سعيدة ! »

عندئذ تفرق الناس ، وبينما كانوا يتجهون وجهاتهم المختلفة : قال بعضهم لبعض : ياله من عمل جليل ، أن توجد فى الدنيا عدالة ! »

* * *

كانت المحكمة لا تزال منعقدة تحت الشجرة ، وكانت الأصوات الحانقة ترتفع مسهبة فى الحديث ، وتؤكد كل جملة بإشارة وتلقى شرائح اللحم أمام قدمى أحد الخصوم ، وتمتد الأذرع علامة الاستسلام ، وترتفع قبضات الأيدى إلى السماء بينما يقسم أصحابها بهيل سلاسى ومريم العذراء . وكان صاحبنا يغير على الدوام نظام « شمته » ، يرفعها تارة فوق إحدى أذنيه ، وتارة أخرى فوق رأسه كله ، وثالثة يلفها حول وسطه كالقميص وحينا يلقى بها فى كبرياء وتعال فوق كتفيه .

إن أبسط وسيلة لفض نزاع مدنى ما ، هو أن تطلب شخصا ثالثا يقوم بالتحكيم ، فإن امتنع ذهب المتخاصمان إلى القاضى المحلى الذى يملك أيضا سلطة الفصل فى الجرائم الصغرى . ثم يلى ذلك محكمة الحاكم التى تضم قاضيين يستطيعان الحكم بالسجن الطويل الأجل وبالغرامة ويجلس الحاكم يومين فى الأسبوع فى محكمة للاستئناف ، وهو الشخص الوحيد الذى يملك الحكم بعقوبة الجلد .

ولما كان الإثيوبيون محبين للمشاكل ، فإن معظم القضايا المدنية ترفع فى جميع الأحوال إلى محكمة الاستئناف هذا إذا لم تعرض أيضا على المحكمة العليا فى أديس أبابا ، وتكون هذه هى نهاية المطاف ، إلا فى القضايا الجنائية حين يصبح الأمر مسألة حياة أو موت ، فيكون للإمبراطور القول الفصل فيما يتصل بعقوبة الإعدام .

وأساس النظام القضائى فى إثيوبيا هو القانون الموسوى الذى يقضى بأن العين بالعين والسن بالسن . وقد أضيف إلى هذا خلال العصور قوانين أخرى مختلفة الأصول : يونانية ، ورومانية ، وقبطية ، وإسلامية ، ثم من أوربا الغربية على عهد هيل سلاسى .

وحتى سنة ١٩٣٠ ، عندما أصدر هيل سلاسى مجموعة جديدة من القوانين ، كان « كتاب القوانين Fetha Negest » هو الأساس الموثق لجميع القضـــاء ، والكتاب من وضع أحد رهبان القرن الرابع عشر جمعه من مصادر عـديدة ولا يزال من بين الكتابات الكنسية المقدسة .

وتعرض الإمبراطور للقوانين القديمة التى احتفظت بها البلاد عدة قرون دون تغيير ، يعد عملا جريئا من جانبه فقد ألغى أولا بتر الساق أو الذراع كعقاب للسرقة ، ثم وضع حداً للعادة التى تقضى بأن يسلم المحكوم عليه بالإعدام حين يدان القاتل فى تهمة القتل إلى أسرة القتيل لتنفذ فيه الحكم فى نفس المكان وبنفس الطريقة التى ارتكب بها القاتل جرمه . وأقيم فى ظل النظام الجديد مبنى طويل أعد إعداداً خاصاً لتنفيذ عقوبة الإعدام . فيقيد الشخص المحكوم عليه فى لوح

مثبت من أحد طرفيه ، بحيث يكون فى طرفه الآخر أربع بنادق مصوبة مباشرة إلى القلب ، ثم تدير العائلة جهازاً آليا خاصاً فتنطلق البنادق الأربع فى وقت معاً . وقد أصبحت العادة القديمة الآن أثراً بعد عين . وكذلك الحال بالنسبة لدية القتيل التى جرى عليها العرف بين الموسرين وهناك تجديد آخر هو التمييز القائم الآن بين القتل العمد ، والقتل دون سبق إصرار ، وهو مالم يعترف به واضعو القانون القـديم .

ولتحاشى جرح شعور أى شخص قسم قانون هيل سلاسى على غرار القانون القديم ، ونص فى المقدمة على أنه تنقيح روعى فيه اتساع مدارك الناس وتقدم أحوالهم المعيشية . والقانون ممعن فى الإسهاب . وهو هام من حيث إنه أظهر كيف استطاع حاكم إفريقى مستقل التغلب على نفس المشكلات الصعبة الشبيهة بتلك التى واجهت الإدارة الأوربية الاستعمارية فى محاولاتها لتطويع القانون القبلى للظروف الحديثـة .

إن القوانين الحديثة أقرب إلى الروح الإنسانية ، والمبدأ الذى يسندها هو قول الإنجيل إن الذى يعرف أكثر يناله عقاب أوفر ، ومن يعرف أقل يكون عقابه أيسر . وهناك عشر درجات للإدانة : الأولى للأشخاص ذوى المراتب العليا الذين يعرفون القانون ، والثانية للكهنة الأقل مرتبة ، ثم يأتى بعد ذلك الفلاح ، والفقير الجاهل ، والأجنبى ، والمرأة الجاهلة ، والمعتوه ، والعاجز ، والإثيوبى من غير الأمهريين . وأخيراً الأطفال تحت سن الثانية عشرة

وبالإضافة إلى ذلك يجب فحص سلوك المتهم ، وهو عمل يستلزم توافر مواهب سيكولوجية عظيمة فى القاضى وهناك عشرة ضروب من السلوك وصف كل منها بالتفصيل ، وبأمثلة من الإنجيل فى معظم الأحوال ، وهى تشمل : الطاغية ، والمتمرد ، والمتكبر ، والحسود ، ومن لا يعتمد عليه ، والحقود ، والمتطرف ، والمشاغب وعديم الرأفة ، والفظ .

ولم يصل القانون الجديد بعد إلى المحاكم الصغرى بالأقاليم . وتصدر فى أديس أبابا أغرب الأحكام فى القضايا المدنية ، فى أشياء لا تمت بأية صلة إلى مجرى الأحوال العادى - أى جميع المشكلات الناشئة عن تقدم البلاد وازدياد تجارتها الداخلية أو الخارجية وعن وجود عدد كبير جداً من الأجانب .

* * *

وتبعنا قطيع من الصبية فى تجوالنا بالقرية ، وكانوا يتحركون وسط أسراب من الذباب ، ذباب فوق المخاط اليابس ، تحت أنوفهم ، وذباب عند زوايا أعينهم وقد بذلنا نشاطا فائقاً فى الدفاع عن أنفسنا . وكان لابد لأيدينا أن تظل فى حركة مستمرة لصـــد أسراب الذباب . وكانت أعين بعض الأطفال مليئة بالصديد وأهدابها ملتصقة تماماً . إنها التراكوما — مرض العيون المتفشى فى مصر والذى غالبا ماينتهى بالعمى .

كان يجلس خارج أحد الأكواخ رجل مسن قوى البنية ، وثب على قدمه بخفة عندما اقتربنا منه ، وأخبرنا أن زوجته مريضة ، وجذبنا إلى داخل كوخه الذى كان شديد الظلام لانتقالنا إليه من ضوء الشمس الساطع فلم نكد نرى على مسافة شبر أمامنا ، ولكن أعيننا اعتادت الظلام شيئا فشيئا ، فاستطعنا رؤية زوجة الرجل ممدة على فراشها . وكشف لنا الرجل عن ساقها ، فكانت ملأى بالبثور ، وكان علينا لسوء الحظ أن نقول إننا لا نستطيع مساعدتها ، إذ ليس لدينا شىء من العقاقير . لقد كانت مصابة بالزهرى ، ولكن نظرا لمضى الوقت الطويل على انتشار المرض وعرضه الوحيد بوجه عام فى أثيوبيا مرض جلدى بسيط يظهر أحيانا فى شكل بثور متقيحة متمردة .

ولو قلت للرجل إنه ينبغى أن يأخذ زوجته إلى المستشفى حيث يمكن لقليل من الحقن أن تعيد إليها صحتها ، يعد هذا القول نوعا من المزاح الثقيل مادام أقرب

مستشفى - وهو مستشفى تديره جماعة الأدفنتست - على مسافة بعيدة تزيد على مائة ميل .

إن الجهل بأبسط وسائل النظافة معناه تفشى الأمراض المعدية ، والقذارة وعدم وجود أية فكرة عن الشروط الصحية هما السبب فى انتشار نوع وبيل من التيفوس الذى يحمله القمل ، وفى البثور العفنة المعدية ، وفى الدوسنطاريا الأميبية .

وليس لدى السكان ما للقطط من عادات النظافة ، فترتب على ذلك أن المصاب بمرض ما ينقله إلى غير المصابين . وليست الكوليرا والطاعون بمعروفين هناك ، ولكن أمراض الجدرى والسل والجذام منتشرة انتشارا واسعا . ويتفشى الالتهاب الرئوى فى موسم الأمطار .

وبالبلاد عشرون مستشفى صغيرا ، سبعة منها بالعاصمة ، أما مستشفيات الأقاليم فقد بناها الإيطاليون وقت الاحتلال ، ولم يكن بناؤها لصالح الإثيوبيين ، بل أنشئت للإيطاليين أنفسهم ، وتدير معظمها فى الوقت الحاضر الجمعيات التبشيرية . وبعضها تعاونه الحكومة معاونة مالية طفيفة ، ولكن البعض الآخر تتحمل الإرساليات جميع نفقاتها .

ويتقبل الإثيوبى المرض فى هدوء كأنه شىء لا محيص عنه ، شىء يمكن أن يصيبه بصرف النظر عن عدد التمائم والطلاسم التى يعلقها حول عنقه .

* * *

رفع الرجل الذى كان يصلح المحراث محراثه إلى كتفيه وحمله إلى حقله يتبعه صبى يسوق ثورين ، فما إن وصل إلى الحقل حتى ثبت المحراث فى النير ثم طرقع السوط فتحرك الثوران فى أناة .

وتستغرق عملية الحرث وقتا طويلا بمثل هذا المحراث الخشبى الذى هو مجرد

عمود خشبي للتوجيه ، مربوط إلى قطعة من الخشب ذات سن حديدية مدببة . والنير وقضيب الجر بدائيان على السواء ، فهما قطعتان من الخشب مشكلتان تشكيلا ساذجا ، مربوطتان معاً بسيور من جلد الحيوان . ويمسك المحراث بإحدى اليدين فى وضع خاص ، بينما تمسك الأخرى بالسوط ، وهو ذو مقبض قصير وسير مجدول يبلغ طوله عدة ياردات ، ويقاد الثوران بالسوط والنداءات المستمرة ، ونتيجة ذلك أن تخدش التربة مجرد خدش سطحى بسيط .

وإذا بدىء فى أرض جديدة فمن الضرورى استخدام « أوتاد الحفر » ، لأن المحراث الخشبى أضعف من أن ترجى منه فائدة . ووتد الحفر عود سميك من الخشب طوله ست أقدام ، أحد طرفيه ذو شعبتين بينهما مسافة تبلغ نحو أربع بوصات . ويعمل رجلان جنبا إلى جنب ، فيغرسان أوتادهما فى الأرض ويشققانها مربعات متسعة ، ويتغنيان طول الوقت الذى يحفران فيه بأغنية رتيبة يكررانها بلا نهاية . والإثيوبيون يغنون دائما عند ما يقومون بعمل أى شىء ، سواء أكان مملا أم مجهدا . وكلما ازداد عدد الذين يعملون كثر تنوع الغناء ، لأن الأغنية يلفقها فى الحال أى شخص تطرأ عليه فكرة ما ، ويرجع الجميع بعد كل بيت ترجيعاً طويلا . ولما كان الإثيوبيون شعباً خصب الخيال ، فإن الأغنية تقفز من شخص إلى شخص ، ويسخر كل منهم من الآخر . ويصفون الرحلات الشاقة التى قاموا بها ، أو يغنون أغنيات غزلية . ويناقش هؤلاء المستهينون بالجنس موضوعات الحب بصراحة فى الأغنية وفى الحياة نفسها .

ويمكنك هنا أن ترى طرق الزراعة المخلدة على قبور المصريين القدماء ، وفى خرائب بابل ، لاتزال مستعملة . فالمحراث الإثيوبى الخشبى ، ونير الثور ، وعمود الحفر ، كلها على نفس الشكل الذى تراه فى الآثار القديمة . ويمكنك مشاهدة القوم وهم يستخدمون طرق العزق التى ترجع إلى عهد أقدم مدنية ، عندما اكتسب الإنسان أول تجربة لزراعة القمح .

وهم يعيشون فى بساطة وكفاية ذاتية ، لا يميز حياتهم إلا تغير الفصول ، من المطر إلى الجفاف ثم هكذا دواليك ، وإلا أيام الكنيسة التقليدية المقدسة وصيامها الطويل وأعيادها الكبرى .

لقد انطمست كل فكرة عن الوقت ـ فقد خرجنا من عصر يستحث فيه الناس دافع ما إلى النهوض والعمل فى مجتمع ظل جامدا فى تكوينه الداخلى منذ ألفى عام ، إلى أناس يمكن أن يسمحوا لأنفسهم معظم السنة بالجلوس تحت شجرة ظليلة لا يفعلون شيئا إلا أن يدوروا حولها متتبعين ظلها . إن الطبيعة هنا تمنح القدر الضئيل المطلوب دون حاجة إلى جهد كبير من جانب الإنسان . فالتربة خصبة ، والمجاعة غير معروفة . حقيقة إن الغالبية العظمى تعانى من نقص التغذية ، ولكن الناس يفضلون أن يظلوا هكذا على أن يعملوا أكثر مما يعملون . ولم يقطع الشعب الوشائج التى تربطه بماضيه ، إنها حقبة كاملة فى تاريخ الجنس البشرى ؛ إنها شىء غير واضح المعالم بالنسبة إلينا نحن الذين قد نشعر بارتباطنا بالماضى حتى السنوات الخمسين الماضية على أكثر تقدير . ولو عشت هنالك لخبرت تجربة ركود الزمن ، فقد عاشت الأجيال المتعاقبة نفس الحياة دون تغير اللهم إلا بناء كوخ جديد عندما يتهاوى القديم .

إن إثيوبيا تحاول اليوم اللحاق بالقرون التى أضاعتها ، بمعاونة المستشارين والخطط المقتبسة من أكثر المجتمعات تقدماً ولقد اتخذت أولى خطواتها المدهشة على الطريق الذى لاينتهى ، « طريق التقدم » . وعندما يجىء التقدم فسيبعث الثورة فى القرى المغمورة بعوالمها الضيقة المليئة بضروب المشاحنات المحلية التى يظل يتحدث عنها الناس ويناقشونها أياماً ، ثم يجلسون فى النهاية تحت أشجار الأرز الظليلة .

الفصل الثامن

الماضي يتكلم

كان هدفنا الأول جوندار ، مدينة الأباطرة القديمة الواقعة على بحيرة تانا. وبعد بضعة أيام من السفر الشاق حططنا رحالنا بالقرب من البحيرة فى ساعة متأخرة من عصر أحد الأيام . وعندما رأينا كل هذه المساحة المائية ، لم نعد نفكر فى شيء غير أن نلقى بأنفسنا فيها ، فهنا فى مرتفعات إفريقية نتوق نحن سكان الجزر إلى الماء والبحر ، إذ تجعلك السهول المتربة والهواء الشديد الجفاف تتحرق شوقاً إلى نسمة بحرية عليلة ومن ثم فقربك من بحيرة ما سواء أكانت كبيرة أم صغيرة يعد شيئاً رائعاً .

وتانا بحيرة هائلة تقع فى منخفض وسط المرتفعات ، ويخرج من طرفها الجنوبى النيل الأزرق الذى يرسم قوساً واسعاً يمتد به إلى منتصف الطريق إلى أديس أبابا قبل أن ينعرج غرباً صوب السودان ، لينعرج مرة أخرى شمالا إلى الخرطوم حيث يتصل بالنيل الأبيض الذى يخرج من بحيرة ألبرت . وفى طريقه من بحيرة تانا يشق لنفسه مجرى شديد العمق ، ويجرى لمسافات طويلة فى وديان يزيد عمقها على ثلاثة آلاف قدم ، ذات جوانب منحدرة وقيعان تغطيها الغابات الكثيفة ، ويهدر عند الخوانق النهرية ، ويثب أحيانا من مدرج إلى مدرج . وهو ـ كغيره من أنهار إثيوبيا ـ غير صالح للملاحة ، وقد ارتيد لأول مرة سنة ١٩٢٠ .

* * *

كانت تطير فوق سطح الماء مباشرة ماسة صغيرة ، شيء شديد الزرقة ، برتقالى ضارب إلى الحمرة ـ إنه الرفراف أو العصفور صياد السمك . كان يغوص ثم لايلبث لحظة حتى يطير فى الهواء ثانية وقد حمل شيئا ما فى منقاره الأحمر الطويل

ويزدرد بضع مرات فى أثناء طيرانه عبر البحيرة، وقد أحال الغوص لون جسمه إلى زرقة معدنية لامعة .

وأقبل رجل يجدف بالقرب من الشاطىء ، فى قارب صغير مصنوع من نبات البردى ، فتوقف وتطلع إلينا باهتمام ثم مضى بقاربه مرة أخرى وهناك على مسافة بعيدة كانت الشمس تلمع على ظهور بعض أفراس النهر المقوسة الصافية وهى تتقلب متلاعبة مع بعضها البعض فتكسر سطح الماء الصقيل الشبيه بالمرآة .

كنا فى جوندار فى صباح أحد أيام الأحد ، وكان كهنة الكنائس الكثيرة العدد بالمدينة ، مشغولين بأداء خدماتهم ، وبلغنا فى أثناء سيرنا واحدة من هذه الكنائس كان يصدر منها صوت تراتيل ودقات طبول خافتة . كانت كنيسة ضخمة على نفس الطراز المألوف ، فهى مستديرة الشكل ، مشيدة من الطين ومسقوفة بالحشائش ، وكان بخارجها عدد كبير من الناس ، بعضهم فى جماعات يتحدثون ، والبعض الآخر يصلون بمفردهم . وكان هؤلاء هم الخطاة غير الأنقياء الذين لم يسمح لهم بالدخول حتى لايدنسوا الكنيسة ، ويشملون جميع الذين ارتبطوا بالزواج عن طريق غير طريق الكنيسة ، وأولئك الذين لمسوا فى اليوم السابق جيفة ، أو كانوا على صلات وثيقة بالجنس الآخر .

وكانت درجات مدخل الكنيسة وقوائم الباب سوداء تماماً نتيجة لكثرة لثم الناس للكنيسة قبل أن يدخلوها . وكان من عادة الناس كذلك الانحناء كلما مروا بكنيسة . وإذا تصادف أن كان بينهم من ينتعل حذاء ، فإنه يخلعه ويحمله فى يده قبل أن يركع ويزحف صاعداً الدرج وهو يقبله . وقد خلعنا نحن أيضا نعالنا وانسللنا بسرعة إلى الداخل فلم نلفت إلينا الأنظار .

كان اثنا عشر قسيسا متشحين بالبياض ، وعلى رءوسهم عمامات يغنون ، كل بنغمه الخاص ، وكان بيد أحدهم طبل يضربه بقبضة يده على فترات فيتردد صداه ، ثم يضربون مرة مجتمعين على نفس النغم ، ويظهر عليهم الابتهاج الفائق لمثل

هذا التوافق ، وينفجرون بالصياح حتى تردد صيحاتهم جنبات الكنيسة وكان واحد منهم يجلس على الأرض وظهره إلى الجدار وقد نام فى سلام تام ، ولعلك كنت تسمع غطيطه كلما هدأت أصوات الترانيم . وكان الإنجيل مفتوحا فى حجره .

ووقفنا فى الدائرة الخارجية إذ كانت أكثر اتساعا ، وفيها يجرى الرقص والغناء الذى يبدأ بعد منتصف الليل مباشرة ويستمر إلى ماقبل الظهر . ولم يكن هناك مقاعد ، ومن ثم فعلى الناس أن يقفوا أو يجلسوا على الأرض إذا ما نالهم التعب : الرجال فى جانب والنساء فى الجانب الآخر . وكان عدد الناس بالداخل قليلا جداً ، لأن جماعة الآثمين يجب أن تظل بالخارج فى « الفناء الأمامى الخاص بغير المؤمنين » .

وكان أمامنا مباشرة باب مفتوح يوصل إلى الدائرة التالية ، ودرجتان تؤديان إليه ، يرقد عليهما نفر يتمتمون بصلواتهم ، وأطل رأس كاهن فرفع الناس أقداحهم التى ملئت بالماء المقدس .

كان القسم الذى يقف فيه الكاهن ومعه صفيحة الماء أكثر قدسية من القسم الذى وقفنا نحن فيه ونستطيع كذلك أن نلمح فى داخله ، من خلال الباب ، جداراً عليه رسوم ، ولكن الظلام كان مطبقا بحيث لم نستطع أن نتبين ما تمثله تلك الرسوم . إنه جدار الهيكل - ومن ورائه - حيث لايسمح بالدخول لغير الكهنة - قدس الأقداس الذى يحتفظ فيه بتابوت العهد والماء المقدس .

وتزخرف جدران الهيكل فى جميع الكنائس تقريبا بالصور الملونة التى نفذت تنفيذاً بدائيا ، ومناظر مصورة من التوراة والعهد الجديد ، ومن بعض الأساطير التى تدور حول مريم العذراء ، وفق ماأقرته الكنيسة القبطية ، والتعبد لمريم العذراء له الصدارة إلى حد كبير ويحمل اسمها كثير من الكنائس .

ونستطيع أن نلمح كثيراً من تأثير الفن الإيطالى فى العصور الوسطى ، فى

الرسوم الموجودة فى الكنائس وفى الصور التوضيحية التى تشتمل عليها الأناجيل القديمة ، ويتجلى ذلك بخاصة فى رسم تفاصيل الملابس . وقد خلق هذا التأثير رسام إيطالى قدم إلى البلاد فى أواخر القرن السادس عشر ، ولم يسمح له بترك البلاد ، وقد حطم المسلمون فيما بعد جميع الزخارف التى رسمها ، ولكن من الواضح أنه ترك أثرا ما فى الفن الإثيوبى .

وفى إثيوبيا يسير الدين والفن جنبا إلى جنب ، وعلى الرغم مما يبدو من أن الثقافة فيها بدائية إلى حد كبير ، فإن لها قيمة عظيمة ، تعبر عن نفسها فى الاحتفالات الكنسية الفاخرة ، وفى آدابها وموسيقاها

ولو استمر الحكم الإيطالى لأصبحت جوندار من أهم مدن البلاد ، فالتربة والمناخ فى هذا الإقليم مثاليان لزراعة القطن ، وقد أنشئت بها مستعمرة للفلاحين الإيطاليين ، وأقيم فى جوندار نفسها عدد من المبانى الحديثة : مصانع للغزل ، ومبان للمصالح الحكومية ، وكل ما يحتاج إليه فى الواقع حين تنشأ جماعة جديدة تتألف من عدة ألوف بعيدين عن المدنية .

وهذه جميعا يخيم عليها الآن الخراب ، وكلما تقادم الزمن انطمس كل ما تبقى من الأثر الإيطالى ، حتى أعمدة الإضاءة التى لاتزال قائمة مزهوة بصحائفها الرصاصية المزخرفة ، سوف تنهار رأساً على عقب . لقد اشتهرت المهارة الفنية ، ولكنها لم تحرز هنا غير انتصار قصير الأمد ، حيث تسير الحياة وفق الطراز القديم .

ويجلس الكتبة كما كانوا يجلسون منذ قرون ينقلون الكتب المقدسة على الرقائق الجلدية ، فينشرون أولا جلد الغنم على إطار ، ثم يدلكونه بحجر الخفاف الموجود فى التلال هناك . فإذا ماجف الجلد يكشط بالسكين بعناية حتى يصبح رقيقا ، ثم يقطع هذا الرق المصقول ويطوى فى شكل أوراق .

ويغمس القلم المصنوع من أعواد الغاب الهندى فى قرن بقرة يحتوى على سائل مكون من السناج والمطاط ـ وبمثل هذه الطريقة تكتب أروع المخطوطات وهناك فى جوندار تجد حرفة نشأت فى ظل الكنيسة منذ أقدم عصور المسيحية ، وينسخ الإنجيل الآن ، أو مقتطفات منه بنفس الطريقة التى كانت متبعة منذ ألف عام . ولاتزال تجارة التعاويذ التى مركزها هى أيضا هناك ، على ازدهارها .

ولقد تأسست جوندار فى القرن السابع عشر ، وظلت مدينة الإمبراطور حتى بداية القرن التاسع عشر ، عندما امتدت البلاد جنوبا ، وانتقل الإمبراطور تبعا لهذا الامتداد . والأثر الوحيد الباقى لتلك الأيام القديمة هو تلك القلعة التى بناها « بايز » البرتغالى اليسوعى ، والتى جددها الإيطاليون بذوق فنى عظيم .

وفى العهد القديم لم يتمكن من دخول البلاد دون أن يلقى حتفه إلا قليل من الأجانب وأقل منهم من استطاع الخروج ثانية . والشخص الوحيد الذى وجد سبيلا للتسلل إلى الخارج ناجيا بجلده هو المستكشف الاسكتلندى « جيمس بروس » الذى جاء إلى جوندار سنة ١٧٦٩ لكشف منابع النيل.. وهى مهمة سلبية ـ ولكن الإمبراطور وجد فيه فائدة له كمستشار خاص ، وقضى خمسة أعوام كان فى أثنائها أسيراً أكثر منه حراً ، يدبر أمر فراره الذى استنفد كل حيلته .

وقد ترك سجلا دقيقا فى عدة مجلدات ضخمة عن كل ما رآه فى البلاد ، ومن المذهل مدى ذلك التشابه بين ما وصفه ، وما عليه الحياة اليوم . إن الحياة ليست بالغة الحد من سفك الدماء ، والقسوة ، ولكن يبدو أن شهوة الناس إلى رؤية الدماء تجرى ، شهوة لم يعتورها نقصان . ويروى بروس قصة مؤلمة بشعة عن المتبربرين والحروب والغدر والمذابح ، فقد استخدم الإمبراطور أفظع ألوان العقاب : التى كان أكثرها شيوعا تقطيع الجسم بالتدريج إلى إرب صغيرة ، وسلخ الجلد والإنسان على قيد الحياة ، أو شيه على نار ضئيلة بينما يكون ملفوفا فى شمة مبللة بعسل النحل.

وأخيراً بعد أن يضيق بالكتابة عن سفك الدماء المستمر ، يقول إن أمامه

هدفا واحدا هو أن يفر من هذه البلاد القطيعة .

كانت البلاد فى تلك الأيام جامدة تماما بكنائسها وأديرتها كما هو حالها الآن ، وكان يحاصر « أبونا » على الدوام جماعات من المرشحين للسلك الكهنوتى .

وكان من عادتهم الصياح قائلين : « نريد أن نصبح كهنة » .

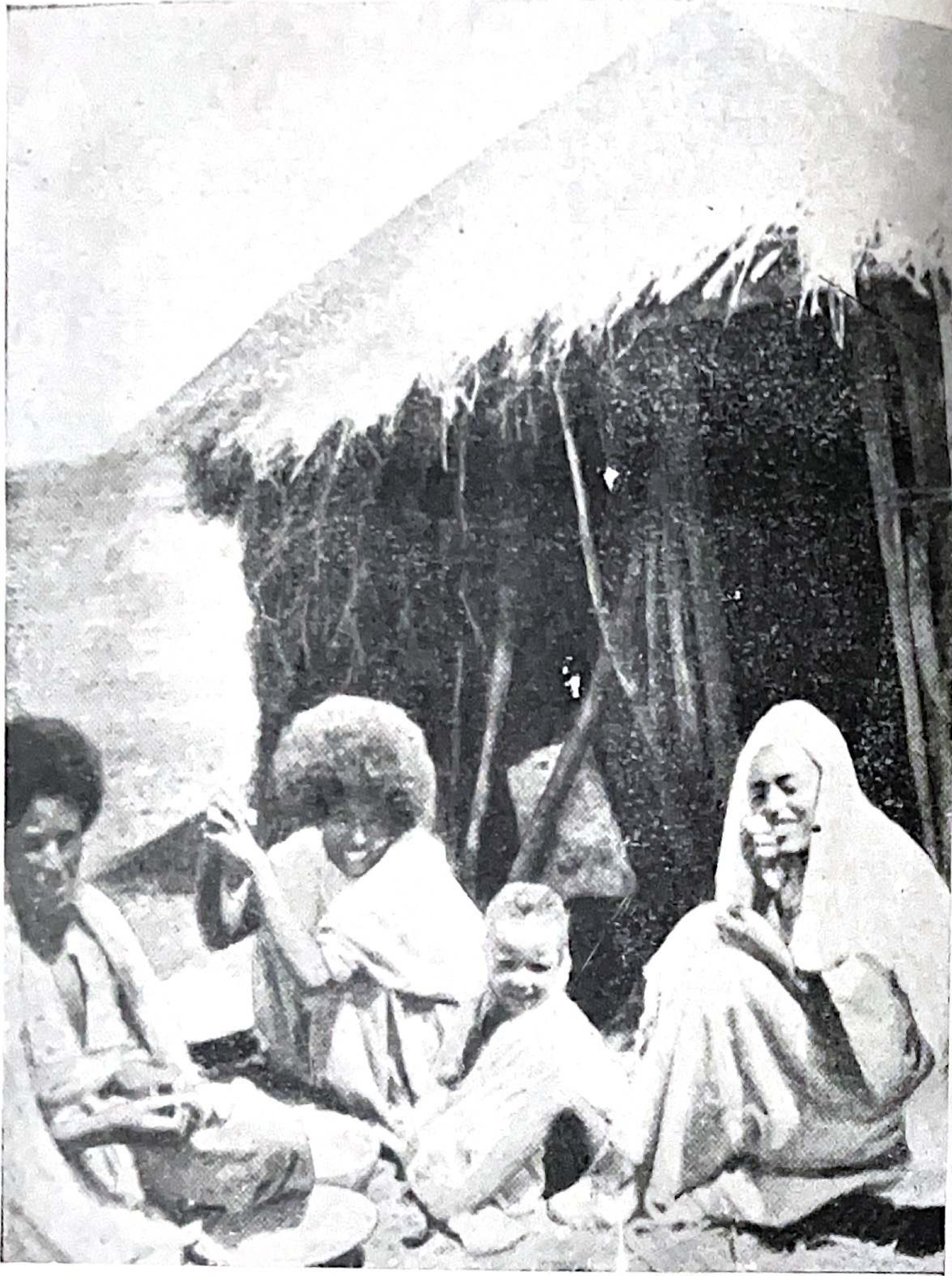
فيجيبهم : « ستكونون كهنة » ثم ينفخ « الروح المقدس » عليهم فيصبحون كهنة .

وكان الإمبراطور مضطرا دائما إلى خوض غمار الحرب فى مكان أو آخر من البلاد للمحافظة على جدارته بحمل لقب « ملك الملوك » . وعندما كان فى جوندار كان يعيش فى قلعة أصبحت فيما بعد أقرب ما تكون إلى الخرائب بعد أن احترقت عدة مرات فى الحروب الأهلية . وكانت الأرض خارج القلعة تغطى كل مساء بأجساد الذين عذبوا وقتلوا فى أثناء النهار ، ولم يكن يسمح بدفنهم ، بل كانوا يتركون هنالك نهبا للكلاب والضباع التى تغير على هذا الموضع فى أعداد هائلة حتى لم يكن أحد يجرؤ على الخروج بعد هبوط الظلام .

* * *

وسمعنا فى أثناء الليلة التى قضيناها هناك ، عواء الضباع الشيطانى فى المدينة كأن جميع ضباع إفريقيا قد اتفقت على موعد هناك . وكنا ضربنا خيمتنا بفناء فندق يملكه رجل يونانى ، وكان فندقه بسيطا مشيدا من أحجار ضخمة يرتكز أحدها فوق الآخر ويلصقها ملاط من الطين ، ولكن السقف كان مصنوعا من الحديد المقفع ، وهذا يضفى دائما لونا من الحضارة ، وكان يبيع مختلف ألوان العصير الطازج التى يقطرها يونانيون آخرون فى أديس أبابا .

وكان يقصده بالليل كثيرون من العملاء ، ويأتى إلى جوندار بعض سائقى سيارات النقل من الإيطاليين حيث يستمتعون بالحياة وبالروح اليونانية مع بعض الفتيات الإثيوبيات . وينبعث صوت الغناء ووقع أقدام الراقصين من



يلقاك الأهالى بالمودة والابتسامات

الباب المفتوح على حشد كبير من الإيطاليين والإمهريين المنهمكين .

وكان قطيع من القردة ذات الشعر الطويل يعقد اجتماعا فى وسط الطريق الممتد فى الشمال الشرقى من جوندار إلى أكسوم ، وقد انسحبت القردة فى بطء وغيظ إلى الصخور القائمة على الجانب الآخر من الطريق عندما اقتربنا بصوت النفير . وجرت القردة الصغار بعيداً ، ولكن اثنين من الذكور الكبار تضايقا كل الضيق وكشرا عن أنيابهما .

وأخذ الطريق يسير صعداً فى بطء طوال الأيام القلائل التالية ، وأصبح الجو أكثر برودة ثم اشتدت برودته تماما ونحن نعبر ممراً منحدراً مخيفا . وهكذا وصلنا إلى القمة المسننة بجبال « سمين » وطوتنا شبورة شديدة البرد ، وفى الأوقات القليلة التى كانت تنجاب فيها كنا نرى مناظر عجيبة عبر أغرب جبال إثيوبيا وأعلاها . جحيم من الرءوس المدببة والقمم المستوية ذات الجوانب المنحدرة التى تومض بالبياض وتهبط إلى الأعماق فى وهاد مظلمة .

وبعد أن عبرنا هذه الهضبة غير المأهولة هبط بنا الطريق إلى الأعماق حيث نهر تكازى الذى يجرى فى خانق هائل . وكانت الأرض خصيبة على الجانب الآخر البعيد . وكان الناس مشغولين فى حقولهم .

ومن ثم أصبحنا فى « تجرى » وهى المقاطعة الشمالية التى تشتعل فيها الكراهية للحكومة المركزية فى أديس أبابا ، ويستعر أوارها ثم يكشف عن ثورة سافرة بين الحين والحين وهذه المقاطعة من الأماكن التى لم يزرها هيل سلاسى مطلقا ، وإنما يرسل جيشه إلى هناك عندما تسوء الأحوال . ويحدث هذا عادة وقت جمع الضرائب وعندئذ تسيل الدماء إلى أن يخضع أهالى « تجرى » فى نهاية الأمر راغمين .

ولم تعد الأكواخ هنا من الخشب والطين كما هى فى الجنوب ، بل مشيدة من أحجار صغيرة وكبيرة على غير نظام . أما الأسقف القش فنادرة ، والطراز الغالب فيها هو الأسقف المستوية المكونة من كتل الخشب السميكة مغطاة بالطين والحجر ،

وبها منافذ للدخان تحت السقف مباشرة . وقد تم كل ذلك وفى الحساب قطاع الطرق فى هذه المناطق ممن يرغبون فى إشعال النار فى القرى ليقوموا بنهبها فى أثناء الاضطراب فقطع الطرق عمل محبب فى إثيوبيا منذ عهد سحيق ولا يزال حتى الآن عملا محترما . وقد نجح أحد قطاع الطرق فى القرن الماضى فى أن يصبح إمبراطورا وهكذا يطمع الفتى الذكى فى مثل هذا الأمر ولا يفرق سكان الريف بين قاطع الطريق والجندى، فكلاهما يملك الأسلحة الجيدة والقدرة على عمل ما يريد . وقد يصبح الجنود فى بعض الأحيان أسوأ كلاب للصيد فى الريف وخاصة إذا شاركهم فى النهب قائد أو حاكم . وفضلا عن ذلك يمكنهم أن يتحولوا بسرعة من حياة الجندية بقيودها الكثيرة إلى الحياة الحرة المرحة التى يحياها قاطع الطريق فى التلال ، أو يحدث العكس تبعاً لما هو أكثر كسبا فى كل حالة .

وتقوم الكنيسة بمفردها على حافة فى غيضة من الأشجار ، وهى مبنية من الأحجار كبقية مبانى القرية . ويقطع استواء سطحها من الوسط سقف المحراب الذى يرتفع فوقها كقلنسوة . ويقف أمام الكنيسة كاهن يضرب على بلاطة حجرية طويلة بحجر صغير معلق فى شجرة ، فينبعث منه صوت غريب عميق رنان . والبلاطة مقطوعة من حجر بركانى . ولم يكن هناك أى شخص يسير من القرية نحو الكنيسة ، ولذا فالمحتمل أن الكاهن لم يكن يستدعى جماعة المصلين إلى القداس . وذهب « جيمى » إلى أنه ربما لم يحصل على « الجرس » إلا أخيراً ، وأنه لم يتمكن من سماع صوته المحبب بالقدر الكافى .

وجلسنا فى السيارة « الجيب » وأكلنا شيئاً من الخبز ، وكان الصدى الخافت لضربات القسيس الموزونة ينحدر إلينا من التلال فوقنا ، وكانت فى الطريق على مسافة أبعد قليلا، سلحفاة ضخمة تحبو مصعدة على التل ، ولابد أنها أدركت أنها أخطأت الطريق فقد استدارت واتجهت نحونا مندفعة آنئذ إلى حرارة نهر تاكازى الشديدة .

كان بعض الأطفال يلعبون عند قاعدة المسلة العالية فى أكسوم ، وكان أحدهم يقف فوق حجر المذبح الذى كان كهنة عشتروت يوما ما يقدمون عليه الضحايا البشرية للآلهة ، ومن تحته قطيع من المعز ، وجد الظل والحماية من حر العصر اللافح .

ويعيش سكان أكسوم الحاليون فى أكواخ حقيرة ، ولكنها كانت منذ ألفى سنة مدينة مزدهرة ، والمركز المزدحم فى مملكة « أكسوم » . وصلنا إلى بعض آثار الحضارة القديمة ونحن نتجول حول الأكواخ .. عروش مبنية على منصات عالية ، وخزان ماء منحوت فى الصخر ، وأساسات قصر منيف كان يشتمل على عدة طوابق ، ولكن المسلة كانت أفخر ما رأينا . لقد كانت هناك عدة مسلات أخرى ، ولكن مضى أمد طويل منذ أن هوت وتحطمت ، واستخدم حطامها فى بناء جدران الأكواخ . أما المسلة الباقية فيبلغ ارتفاعها ٦٨ قدما . وهى منحوتة من قطعة واحدة من الجرانيت ، فريدة فى الشكل والزخرف ، وفى تقسيمها إلى تسعة طوابق ، وفى بابها البديع النقش ذى القفل عند القاعدة . وليس عليها نقوش تنبىء عن السبب فى إقامتها ، أو عمن أقامها ، ولكن المعروف أنها تمثل بيت الله بسمواته السبع . ويمكن رد تاريخها إلى السامريين فقد كان للبابليين برج للعبادة مثلها تماما ، وقد انتقلت عبادة عشتروت التى انتشرت على الجانب الآسيوى من البحر الأحمر انتشاراً واسعا من هناك إلى إفريقية .

يبدأ تاريخ إثيوبيا فى آسيا ، فقد حدث فى الألف الأولى قبل الميلاد أن شعبا ينتمى إلى الحضارة السبئية السامية التى ازدهرت فى الجنوب الغربى من بلاد العرب عبر البحر الأحمر ، واحتل المناطق المرتفعة من إفريقية ، حيث كان ينزل أبناء عمومتهم الحاميون وأصبحت المجموعتان ـ وهما فى الأصل فرعان من شجرة واحدة ـ أسلاف الإثيوبيين .

والمجموعتان كلاهما من أصل قوقازى ، وينتميان كالأوربيين إلى نفس القسم من الجنس البشرى . وكان الحاميون هم الذين عمروا مصر فى الأصل ، ويوجد اليوم

الممثلون الخاص لمجموعتهم بنوع خاص فى قبائل البجة ؛ وبنى عامر بالسودان وارتريا وبربر شمال إفريقيا من الحاميين ، وكذلك القبائل المختلفة بشرق وجنوبى إثيوبيا ـ الدناقل والصومال والجالا والكافا . وقد وصلت موجات من الحاميين إلى أبعد من ذلك مجتازة القارة وامتزجت بالشعوب الزنجية ، وظهرت منهم أنواع السلالات المتباينة فى شرق ووسط وجنوب إفريقيا .

بدأت حضارة سبأ فى النمو عندما أخذت فى الانحلال مملكة «معين» أولى ما نعرفه من الممالك العربية ، وتدل العملة والنقوش التى وصلت إلينا من القرن السادس قبل الميلاد ، على ثراء السبئيين وتجارتهم . وتتحدث السجلات اليونانية عن فنونهم المعمارية ومواردهم الاقتصادية ، وترفهم الارستقراطى ويمكن أن نتتبع اتصالهم بإثيوبيا من ساحل البحر الأحمر مباشرة إلى أكسوم أى لمسافة ١٧٠ ميلا على الخط المستقيم وعلى ارتفاع ٦٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر . ولا بد أن تكون هناك قبيلة سامية قد عاشت على ساحل الجزيرة العربية هى التى أعطت البلاد اسمها وهو « حبشات » الذى لا يزال يستعمله صوماليو الساحل ، فى حين أن الإثيوبيين أنفسهم يستعملون كلمة حبشة وأعطت قبيلة « جعز » اسمها لتلك اللغة السامية التى تطورت من السبئية وأصبحت لغة المملكة الجديدة . وتحتل لغة « الجعز » فى الكنيسة القبطية نفس المكانة التى تحتلها اللغة اللاتينية فى الكنيسة الكاثوليكية ، ومن ثمة أصبحت قادرة على مقاومة جميع التغيرات . ولا يزال الكتاب يستعملون لغة « الجعز » فى التعاويذ والكتابات المقدسة ، فى حين أن لغة الحديث فى مقاطعة « تجرى » قريبة الشبه كثيراً بالجعز القديمة . كما أن لغة البلاد الرسمية ، وهى الأمهرية تقوم كذلك على نفس الأساس .

ولا يعرف تاريخ تلك الهجرة المثمرة ولا ظروفها ، ولكن لو أدخلنا فى حسابنا الأعمال المدهشة التى تمت فى تلك البلاد الهمجية ، فلا بد أن تكون قد حدثت عندما كانت الحضارة السبئية فى أوجها ، أو قبل ذلك إذ أن هناك بقايا أثرية تبين أن تلك الحضارة قد وجدت هناك فى سنة ١٠٠٠ ق . م تقريبا .

وغزو منطقة واسعة كالمرتفعات وتجرى وإرتريا ، وإقامة سلطان له تلك الثروة والتجارة الواسعة التى يمكن أن تفخر بها مملكة أكسوم فى القرون الأولى من ذلك العهد ، كل ذلك يحتاج إلى وقت .

ومن العجيب أنك لا تجد لحضارة مصر العظيمة أى أثر خاص فى إثيوبيا ، ومرد ذلك إلى مناعة إثيوبيا وإلى تاريخ البلاد الواقعة بينهما بخاصة ، وهى ما نسميها اليوم السودان ، وكان يسميها المصريون القدماء « بلاد كوش » ، وعرفها الرومان فيما بعد باسم بلاد النوبة ، وكان يسكنها شعب حامى ولكن ضغط الزنوج نحو الشمال فى الألف الثالثة قبل الميلاد سبب للمصريين متاعب جمة ، فجردوا عليهم ثلاث حملات . وأقاموا عقب الحملة الثالثة سنة ١٨٧٩ ق . م نصباً جنوب وادى حلفا ، عليه نقوش تحرم على جميع النوبيين ألا يتخطوا تلك النقطة من النيل وازداد نفوذ المصريين إبان الأعوام الألفين التالية فى الجزء الشمالى من السودان . ولكنهم لم يستطيعوا التوغل فيما وراء الحاجز الزنجى جنوبا . وأسست أسرة نوبية حامية كانت قد اعتنقت الديانة المصرية ، دولة فى مروى وهزمت مصر فى القرن الثامن قبل الميلاد ، فأصبحت الأسرة الخامسة والعشرين وبعد أكثر من مائة عام طردوا ثانية فأقاموا مملكة فى « نباتا » ، مركز ملكهم القديم ، ثم فى مروى بعد ذلك ، وهى البلاد الواقعة فيما بين النيل الأزرق ونهر عطبرة على مسافة ٣٠٠ ميل تقريباً من مملكة أكسوم .

وأصبح هذا الإقليم ، إقليم كوش التابع للمصريين ، والواقع فيما وراء الحدود المصرية مباشرة ، والذى ظل أمداً طويلا حدا للحضارة ، أصبح معروفاً فى العالم القديم باسم إثيوبيا ، ومعناها « بلاد الوجوه السمراء » . ولم تكن هذه البلاد منطقة محددة المساحة ، ولكنها مجرد المكان الذى يعيش فيه ذوو البشرة السوداء بأقصى أطراف الأرض ، وكما يقول هوميروس فى الإلياذة : « لقد قام «بسيدون» برحله بعيدة جداً بقصد زيارة الإثيوبيين ، فهم يسكنون فى أطراف الأرض

ويقسمون إلى قبيلتين ، إحداها حيث تشرق الشمس مع الفجر والأخرى حيث تغيب .

ويروى هيرودوت فى جغرافيته : « تمتد إثيوبيا إلى حيث يتصل الجنوب بالغرب ، وهى أقصى الأراضى المسكونة ، ولهذه البلاد ثروة من الذهب ومن الفيلة الضخمة ، وكل ماتتوقعه من أضخم الأشجار البرية ، وأجمل الناس وأطولهم عمراً » .

ويبدو أن أحداً لم يعرف شيئاً عن مملكة أكسوم ، ولكن اسم إثيوبيا ونباتا ومروى يدل على بداية ظهور شخصية تاريخية فى أواخر العهد السابق للمسيحية . وفى القرن الثالث قبل الميلاد قامت علاقات ودية مع البطالسة فى مصر ، وجاء النفوذ اليونانى عقب النفوذ المصرى إلى أعالى النيل حيث توغل فى قلب البلاد . ولما انتحل الرومان لأنفسهم السيطرة على مصر بعد موت كليوباترة ، نشب النزاع وأرسل أوغسطس جيشاً دمر نباتا عن آخرها ، كما أرسل نيرون فيما بعد بعثة جغرافية لكشف منابع النيل ، فكانت هذه البعثة هى التى يسرت « لبلينى » وصف « كانداس » ملكة مروى . ولابد أنها كانت تلك المملكة التى قدم منها الخصى الوقور الذى قال عنه الإنجيل ، « الرجل القادم من إثيوبيا » الذى كان يقرأ ايزايو ، والذى حمل الحوارى فيلبس إلى غزة .

ودخلت المملكة الحامية فى دور التدهور فى القرون الأولى للميلاد ، وتدفق النوبيون السود إلى البلاد من الجنوب الغربى ، ونهبها « البجة » من الشرق ، والأكسوميون من الجنوب . ومع ذلك فقد عاشت الدولة فى محنتها ، وأصبحت مسيحية جزئيا فى القرن السابع . وظلت حياتها متخلفة حتى محاها من الوجود العرب القادمون من الشمال فى القرن الخامس عشر .

وأخذ اسم إثيوبيا يحل شيئا فشيئا مكان أكسيوم ، ويرجح أن يكون السبب فى ذلك هم الرهبان السوريون اللاجئون الذين ترجموا الإنجيل من اليونانية إلى « الجعز » . وكان أحفاد الأكسوميين بطبيعة الحال أسرع إلى كشف

جميع الأماكن التى وردت فى الإنجيل ، والتى تشير إلى إثيوبيا ، ولكنها لاتمت إلى أكسوم أو « حبشات » بصلة ما ؛ وقد نسج المؤرخون على هذا المنوال بعد القرن الرابع عشر مباشرة وماتلاه من العصور ؛ ثم استعمل الأجانب بعد ذلك لفظ الحبشة ؛ أو إثيوبيا سواء بسواء ؛ فاستخدم اللفظ الأول فى البلاد الأنجلوسكسونية ؛ والثانى بالبلاد اللاتينية . ولكن الإمبراطور بعد عودته إلى بلاده فى سنة ١٩٤١ عقب انتهاء الاحتلال الإيطالى ، أصدر مرسوما بأن يطلق على البلاد فى المستقبل اسم إثيوبيا دون غيره .

ومن الممكن أن نحصل على صورة لمملكة أكسوم لو جمعنا بعض أخبارها جنبا إلى جنب ، لأنها لم تكن معزولة كما كانت الحال بالنسبة لإثيوبيا فيما بعد . فقد نشأ هنا مركز تجارى غنى ، كان على صلات بداخل القارة الإفريقية واجتذب إليه تجارة الرقيق والذهب والعاج والمواد العطرية ، كما ازدهر على البحر الأحمر ميناء على مسافة قصيرة جنوبى ميناء مصوع الحالية حيث كان يأتى التجار اليونانيون والرومان فيأخذون منها السلع التى أذاعت اسم أكسوم فى جميع أنحاء شرقى أوربا ، وكانت جزء من العالم المتحضر ، وكانت ثقافتها خليطا من السبئية واليونانية والسورية ، وشيد الملوك المعنيون بالتجارة مدينة فريدة فى نوعها ، وضربوا عملة بديعة من الذهب والفضة . وقادوا جيوشهم إلى النصر ضد شعوب وادى النيل فى الغرب ، وشعوب بلاد العرب فى الشرق . موطن أجدادهم الأول .

وتتحدث نقوش الأحجار عن حملات وانتصارات ضخمة ، كتلك التى يزهو بها الملوك فى جميع العصور ، ولكن هناك أيضا نقشا يروى قصة الأعمال التى يفخر بها « إيزانا » ، وهو ملك يقال إنه ترك عبادة آريس إله الأول ، واعتمد على القوة المستمدة من « إله السموات » وقد رسمت قطع النقود التى

سكت فى السنوات الأخيرة من حكم « إيزانا » بشارة الصليب . وإيزانا هذا هو الملك الذى حل « فرومنتيوس » محله فى حكم البلاد إلى أن بلغ سن الرشد ـ ومعنى هذا أن المسيحية كانت قد وصلت إلى أكسوم .

ضعفت مملكة أكسوم فى القرن الثامن ، وغزا المسلمون الساحل ، وقطعوا الروابط التجارية مع المدينة الملكية الواقعة على مسافة بعيدة فى الجبال . وظل الإثيوبيون نياما نحو ألف عام ، فنسوا حضارتهم الأكسومية الشامخة ، ونسوا كذلك العالم من حولهم ، ذلك العالم الذى نسيهم .

الفصل التاسع

كشف إثيوبيا

لم تكن أوربا فى العصور الوسطى تعرف شيئاً عن بلاد اسمها إثيوبيا أو الحبشة، أو عن مجرد وجودها . أما القليل الذى كان يروى أو يكتب عنها ، فقد جاء كله عن طريق مؤرخى الآثار ، ولذلك أصبحت بلاداً تذخر بالأشياء الغريبة المخيفة. ونظراً لشدة الحرارة فيها فإن سكانها ليس لهم أنوف ، وإن عيونهم فى صدورهم . وهم يعبدون ثعباناً هائلا يطعم كل يوم ببحر من اللبن وعدد كبير من الفتيات الجميلات الصغيرات .

ولكن كان يجرى على الألسنة حينذاك حديث كثير يتركز حول حاكم مسيحى تقع دولته فى مكان ما بآسيا أو بالهند . وقد قيل إن البابا تلقى خطاباً كتبه الأمير نفسه بخط يده يخبره عن جميع عجائب بلاده ، وإن تحت حكمه اثنين وسبعين ملكا ، وتعيش هناك أغرب الحيوانات ، ومن بينها إحدى العظايا التى تعيش فى كهف نارى ، وتؤخذ بين الحين والحين قطعة من جلدها غير القابل للاحتراق فيصنع منها معطف للحاكم . وإذا ما أريد غسل هذا المعطف فلا يستخدم الماء فى غسله بل يغسل بالنار . وبقصر هذا الأمير مرآة سحرية من تصميم القديس توماس يستطيع أن يرى فيها الأمير كل ما يدور فى شتى أنحاء مملكته ، وإن الأرض تفيض بالذهب والأحجار الكريمة ، ومن بين عجائبها التى لا يحدها حصر ، ينابيع تتفجر بماء الحياة الذى يمنح كل من يستحم فيه الشباب الدائم .

وقيل أيضا إن هدف هذا الأمير القوى هو الذهاب إلى أورشليم ليطرد منها المسلمين ، وكان ذلك العهد ، عهد الحروب الصليبية أيام كان خيال أوربا يلتهب بفكرة هذا الأمير المسيحى المجهول الذى أراد مباغتة المسلمين من الخلف .

ومع ذلك فلم يسمع عنه شيء فيما بعد . وفى القرن الخامس عشر بدأ الرحالة

الأوربيون العائدون من مصر وفلسطين يذكرون ما يروى عن وجود مملكة مسيحية كبرى فيما وراء مصر بمسافة بعيدة . وفى القرن السادس عشر ، حين أبحر البرتغاليون بمحاذاة ساحل إفريقيا لكشف الطريق البحرى إلى الهند ، ذكر أولئك الذين عادوا إلى أوطانهم ذلك الملك المسيحى العظيم الذى قيل إنه يعيش فى قلب البلاد

وبذل هنرى الملاح أمير البرتغال آنذاك كل جهد للوصول إلى تلك البلاد التى فكر فى اتخاذها حليفاً طبيعياً مادام الطريق الجديد إلى الهند قد وجد . ووصلت فى الواقع إلى هناك بعثات كثيرة ولكن أحدا لم يعد ، إلا أن الإثيوبيين أرسلوا بعد عدة سنوات مبعوثا أرمنيا إلى البرتغال يحمل خطاباً ، أسلوبه مطابق تماماً لحالهم ، حتى لكأنه كتب اليوم ، وقالوا فيه : « إذا أردنا أن نعبىء جيشنا ، فإنه يملأ الأرض كلها ، ولكننا لا نملك قوة فى البحر كما تملكون ، ولذلك فنحن نعرض إرسال مؤن لألف سفينة ، وإمدادات هائلة فى ضخامة الجبال » .

ووصلت بعثة برتغالية فى القرن السابع عشر ودخلت البلاد ، وكان أحد أعضائها الكاهن « الفاريز » الذى كتب وصفاً للبلاد بعد أن قضى بها ست سنوات ، وقد تضمن وصفه هذا إدراكا واعياً للحياة السائدة هناك فى أواخر العصور الوسطى ، وكانت الحضارة الإثيوبية آنذاك فى ذروتها منذ أيام أكسوم ، وكان ذلك قبل الفتح الإسلامى .

دخل البرتغاليون «تجرى» بعد أن اجتازوا الجبال فرأوا فى كل مكان كنائس وأعداداً وافرة من الكهنة والرهبان ، ورأوا الحقول مزروعة بالقمح والحبوب ، ووصلوا أخيراً إلى مدينة الإمبراطور الكبيرة المكونة من الخيام ، والتى خصصت المنطقة الوسطى منها للإمبراطور والملكة ، ولدار القضاء والسجن والكنيسة والمطابخ . وكان بخيمة الإمبراطور أسدان مقيدان بسلسلتين من الذهب وكان جميع رجال البلاط يرتدون الملابس الحريرية والأقمشة الجميلة المجلوبة

من الشرق . حتى الخيل كان يوضع على رءوسها التيجان والريش . وضربت حولها خيام العظماء . حتى لكأن كلا منها مدينة صغيرة قائمة بذاتها ، وكان يحيط بكل منهم جيشه الخاص وفيما بين هذه المدن الصغيرة أماكن للسوق التى كان يتاجر فيها العرب .

ولم يكن الإثيوبيون دائماً فى عداء مع المسلمين الذين كان نجمهم آخذاً فى الصعود باستمرار على طول الشاطىء . فقد كان المسلمون تجاراً ، والطبقة الراقية تحتاج إلى منتجات الشرق . وكانت الحرب تندلع بين حين وآخر عندما يشعر الإثيوبيون بازدياد التدخل من جانب الآخرين ، أو حين يبدى عاهل إثيوبى ملاحظة جارحة على الأسنان الطويلة البارزة فى فم أميرة مسلمة .

بيد أن العالم الإسلامى أدرك آنذاك مدى الخطر الذى ينطوى عليه التحالف بين البرتغاليين ، وبين المركز الأمامى للمسيحية فى إفريقية ، وهى إثيوبيا . وكان الأتراك فى طريقهم إلى الحرب . فقد انتصروا سنة ١٥١٦ على مصر وبلاد العرب ، ثم استمروا فى طريقهم جنوبا على الساحل الإفريقى حتى بلغوا هرر التى كان يحكمها محمد « الأعسر » ، فأعطوه غدارات ومدفعاً ، وهى أسلحة جديدة مرعبة ، وطلبوا إليه مقاتلة الإثيوبيين . وأعلنت حرب مقدسة ، وانساقت البلاد إلى الدماء ، وأصبح الإمبراطور طريد القانون مشردا فى الجبال ، وتحولت الأغلبية الكبرى من السكان إلى الدين الإسلامى .

وليس من اليسير تقدير الكنوز الثقافية التى فقدت ، كالمخطوطات والآنية المحفوظة فى الكنائس والتى تحطمت عن آخرها ، ولكننا نستطيع أن نكون فكرة ما من تقرير كتبه مؤرخ بلاط محمد الأعسر عن الحرب ، وهو يتحدث عن الثروات التى وجدت ، وبخاصة فى الكنائس . فقد كانت الآنية والأطباق الذهبية من الأشياء الكثيرة الشيوع ، يقول : « وجد بإحدى الكنائس كتاب ضخم

كل صفحاته وغلافه من الذهب، وهو يضم إنجيلهم، ويحتاج حمله إلى الخارج إلى رجلين قويين.

وظل الإمبراطور الإثيوبى بطبيعة الحال فى محنته الحزينة يفكر فى البرتغاليين، ومع ذلك فقد مضت عشر سنوات قبل أن يستطيع تهريب رجل واحد من بلاده المفجوعة التى أسيئت معاملتها، وكان هذا الرجل برتغاليا، وهو واحد خدم البعثة، ولكن الإمبراطور كان قد احتفظ به كرهينة لسفيره الذى أرسله مع البعثة عند عودتها إلى البرتغال، ووصل الرجل إلى البرتغال، وفى سنة ١٥٤١ نزلت إلى مصوع قوة من أربعمائة من حملة البنادق بقيادة كرستوفر دى جاما، أحد أبناء فاسكو دى جاما الشهير.

ولكن محمد الأعسر فى نفس الوقت كان قد تلقى مزيداً من الفرق التركية فهزم البرتغاليين هزيمة حاسمة، وقتل أكثر من نصفهم ومن بينهم كرستوفر نفسه، الذى قطع رأسه وأرسله إلى مكة كتذكار.

ولم يهتم الأعسر ببقية البرتغاليين رغم أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن الاستسلام. لقد صنعوا البارود من مواد محلية، بل واستعاد الإثيوبيون شجاعتهم والتفوا حول الإمبراطور، وكانوا هم والبرتغاليون يتحرقون شوقا إلى الأخذ بالثأر، فساروا معاً لمحاربة محمد. وكان خالى الذهن تماماً من أن أعداءه قد استعادوا نشاطهم، فقتل محمد بالرصاص فى الحرب التالية وتفرق جيشه وذهبت ريحه.

وهنا تبدل الموقف، فعندما حرم المسلمون من قائدهم انسحبوا من المرتفعات، بينما حصل الإمبراطور على جيش به نواة من الأسلحة الحديثة، إذ أمر ملك البرتغال رجاله بالبقاء فى إثيوبيا فى خدمة الإمبراطور ففعلوا، وامتزجت ذريتهم شيئاً فشيئاً بالأهلين. وأسرع الإمبراطور فاستعاد سلطانه على المقاطعات المرتدة، وأعاد بناء الكنائس والأديرة التى دمرت، وقرر أن يقوم الرهبان بكتابة نسخ جديدة من الكتب التى أحرقت.

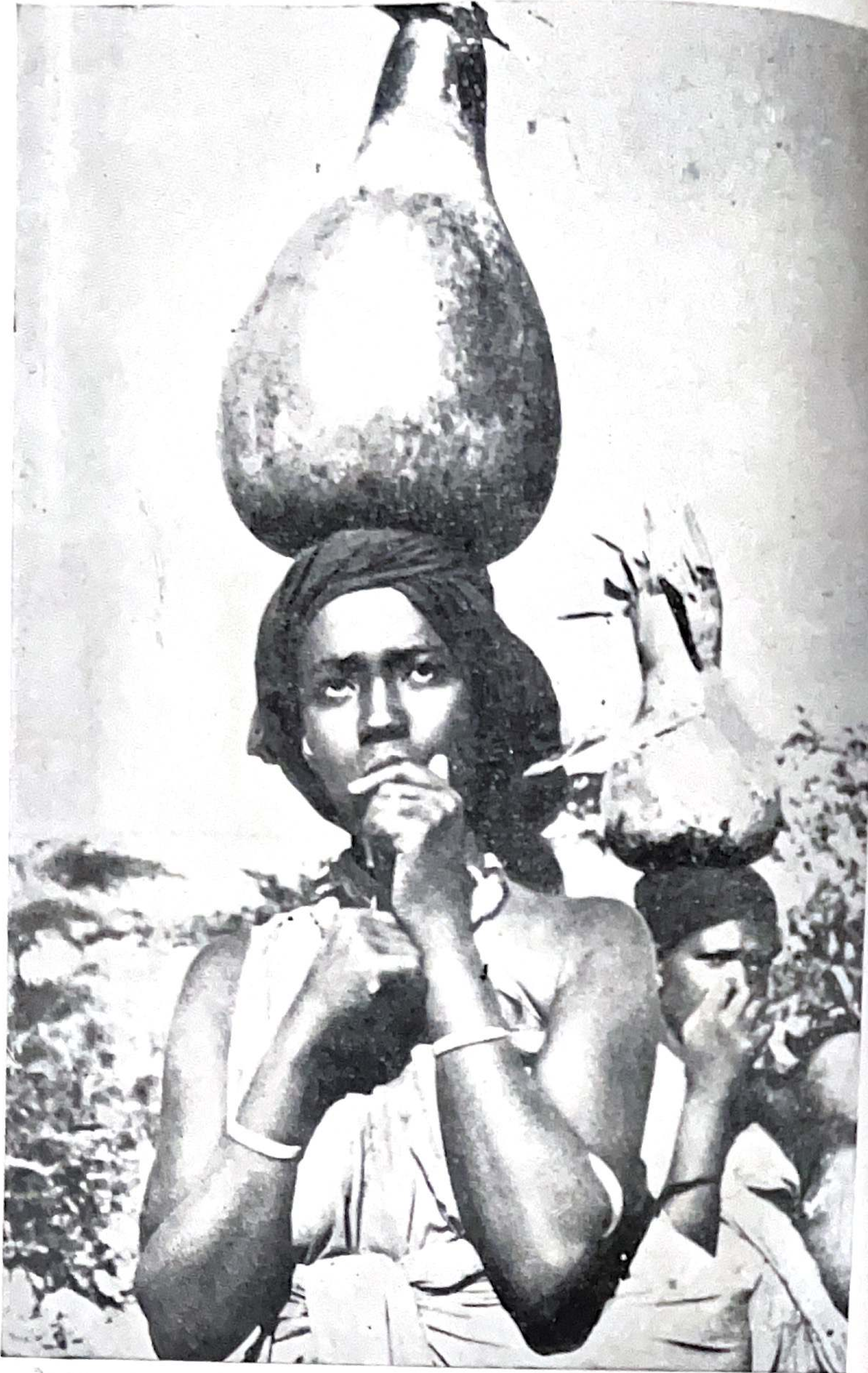
ولكن كانت هناك أخطار جديدة تنذر بالشر، فقد كانت قبائل «الجالا» تضغط من الجنوب، واستدعى ذلك محاربتهم بصورة دائمة لصدهم، بينما جاء من أوربا تهديد من نوع مختلف كل الاختلاف ـ ضربة مصوبة إلى وحدة البلاد وتجانسها.

وصلت أخبار إثيوبيا إلى أوربا عن طريق البرتغاليين، واهتمت الكنيسة الكاثوليكية أشد الاهتمام بكنيسة تلك البلاد المنشقة عليها، وقد حدث ذلك عقب عصر الإصلاح الدينى حين شغلت كنيسة روما بتقوية مركزها، والتطلع إلى ميادين جديدة لنشر معتقداتها، فلم يكن هناك محيص من أن يبحث اليسوعيون الذين كانوا قد بدءوا أعمال التبشير فى الهند عن ثغرة فى الحاجز الإسلامى الممتد على طول ساحل البحر الأحمر، ومن ثمة يتوغلون فى داخل البلاد.

لم يجد أول من وصلوا إلى هناك سنة ١٥٥٧ من يستمع إليهم، بل قتل بعضهم قبل أن تحصل البعثة على الإذن بالوعظ بين الجنود البرتغاليين. وتبع «بايز» هذه الإرساليات التبشيرية بعد ذلك بخمسين عاماً فأنجز الشىء الكثير. وكان «بايز» معلماً ممتازاً، بناء ونجاراً، كما كان صبوراً وسياسياً عظيما، فنجح فى تحويل الإمبراطور إلى مذهبه.

ومن سوء حظ اليسوعيين والكنيسة الكاثوليكية أنه حين مات «بايز» احتل مكانه رجل آخر لا يتسم بالسماحة، ولا يتحلى بشىء من الحكمة التى اتبعها سلفه، وهى تدبر الأمور قبل الإقدام عليها. فجعل كنيسته على طراز كنيسة روما تماماً واتهم الناس بمزاولة السحر، وأصر على تعميد كل شخص من جديد، فانتهى كل ذلك بحرب أهلية دامية، طورد فيها الإمبراطور فى الجبال وقتل اليسوعيون وبيع من أسعدهم الحظ منهم إلى المسلمين الذين باعوهم بدورهم إلى ملك إسبانيا بربح وافر.

لم تستطع كنيسة روما التسليم بالهزيمة، فأرسلت بعثات تبشيرية جديدة إلى هذا الشعب المتمرد ولكن المبشرين قتلوا حالما وضعوا أقدامهم على الشاطىء.



صومالية تحمل الماء من النهر إلى البيت

بل أكثر من هذا عقد الإثيوبيون صلحاً مع الباشا التركى فى مصوع يقضى بإعدام جميع الكهنة الذين يحاولون النزول إلى الشاطىء . وقام الباشا بكل يقظة ضمير بقطع رءوس جميع القساوسة ، وأرسل فراء رءوسهم إلى الإمبراطور لكى يعرف من لون الجلد ومن نوع الحلاقة أن الاتفاق بينهما ينفذ بكل أمانة . وظلت روما تكافح أكثر من مائة عام دون أن تصل إلى نتيجة أخرى أكثر من إضافة عدد آخر إلى قائمة الشهداء .

وعادت إثيوبيا مرة أخرى بلاداً مغلقة معزولة ، كما أصيبت بالضعف نتيجة للحروب الداخلية والأعداء . الأجانب الذين كانوا إبان القرون الثلاثة التالية كابوساً يجثم على أنفاسها وكان يظهر بين حين وآخر حاكم كفء ينجح فى المحافظة على تماسك هذه البلاد حتى لا تنهار انهياراً تاماً .

الفصل العاشر

حادث

١

كنا قد قطعنا مسافة مناسبة إلى الجانب الآخر من أكسوم حين وقع نظرنا على سيارة نقل معطلة فى الطريق أمامنا وعلى مقربة منا ، واستطعنا حين اقتربنا أن نرى خلفها شيئاً ضارباً إلى الصفرة . وأدهشنا معاً ذلك الشيء العجيب الذى استطعنا رؤيته وهو يجرى ، ثم تبين لنا أنها امرأة على رأسها أكثر ما يمكن أن تتخيله من الشعر وأشده حمرة ، فوقفنا جامدين وأخذنا نتفرس دون أن ننطق بكلمة ، فى هذا اللون الفاقع ، فى ذلك الصقع الرمادى الكئيب . كان وجه المرأة مغطى بطبقة كثيفة من التراب تشقها قنوات من العرق ، ويغطى بقية جسمها قميص قذر وسروال من التيل لا يقل عنه قذارة ، إحدى ساقيه ممزقة .

وقالت : « اسمى « بتى » ، وأعمل مراسلة فى صحيفة إنجليزية نسائية ، وأنا فى طريقى إلى أسمرة ، وقد انكسرت هذه السيارة اللعينة ، ولكن لديكم متسع كبير ، أليس كذلك ؟ » وما إن قالت هذا حتى تفرست طويلا فى مؤخر السيارة الجيب ، حيث نضع حقائبنا وأمتعتنا الأخرى التى تصل إلى السقف ، ثم راحت تنظر إلى متاعها الخاص المبعثر على جانب الطريق .

وقالت وهى تطوح برأسها حتى أصبحت خصلات شعرها الكبيرة أشبه بألسنة النار تضطرب من حوله : « لو تريثتما قليلا فلربما استطعتما معاونتى على إشعال النار وتحمير شيء من البيض » .

وخرجنا من السيارة نحجل ، فأشعلنا ناراً صغيرة ، وهيأنا رقعة ظليلة بواسطة بطانية علقناها فى السيارة الجيب ، أما سائق سيارة النقل الذى كان قد أغفى قليلا تحت سيارته ، فقد زحف إلى الخارج وتناول معنا قليلا من الطعام ، وكان فيما يبدو خلاسيا ، نصفه إيطالى ونصفه إثيوبى . وحدثت عند ظهوره مشاحنة صاخبة بينه

وبين بعض الإثيوبيين المسافرين ، فأخذوا ينعتونه بأنواع السباب اللطيفة ، ويطالبونه برد بعض النقود التى دفعوها مقدماً لهذه الرحلة .

وصاحوا قائلين : « لقد انتظرنا يومين هنا وأنت تردد طوال الوقت أننا سنتابع سيرنا حالا ، ولكنك لم تفعل ! »

وبعد أن تناولنا الطعام كدسنا أمتعة « بتى » فى سيارة الجيب وانحشرنا فى المقعد الأمامى . ولم نكد نبدأ السير حتى صاحت قائلة :

« قف ! لقد نسيت شيئا » ، وتسلق الرجل نصف الإيطالى إلى أعلى سيارة النقل وتحسس سلة التقطها من بين أكياس البن ، فتناولتها منه وألقت بها على حجر « جيمى » ، وطلبت منه أن يعنى بها بينما ذهبت هى إلى المقعد الخلفى ، واختلسنا النظر معا إلى محتوياتها — كان فيها شىء ميت مشعر ، كريه الرائحة ، يتراكم عليه الذباب ، وندت عن جيمى زمجرة وقذف بالسلة بعيداً بين الأشواك .

واشتعلت عينا بتى غضبا وهى تسأل جيمى عما دفعه إلى هذا التصرف ، فيطوح بفهدها الصغير على هذه الصورة ، ثم انفلتت بين الأحراش ، لتعود مرة أخرى وترتمى فى الجيب حيث كانت تجلس ووضعت السلة بمحتوياتها فى حجرها .

وتمتم جيمى قائلا : « إنا لانحمل جيفة يا سيدتى .... أبعديه »

« إننى أريد حمله معى إلى أسمرة . . . » « إنه سيعيش هناك »

وزمجرنا فى نغم واحد : « أخرجيه ! »

فقطبت وجهها ونادت سائق السيارة وناولته السلة وبعض النقود فوعدها بإحضاره إلى أسمرة بعد وقت قصير .

وسرنا صوب « عدوة » ، وقد أرهقتنا الحرارة وصاحبتنا ذات الشعر الأحمر.

الفصل الحادى عشر

الرجل الأبيض يبحث عن المستعمرات

ركعت الإمبراطورة تصلى ووجهها إلى الأرض ، وعلى مؤخر عنقها حجر كبير إشارة إلى خضوعها التام لتوجيه الله . وكانت تصل إلينا أصوات الأبواق من كنيسة صهيون الشهيرة فى أكسوم ، بينما كان الكهنة يسيرون بين الجنود يمنحونهم البركة ويحثونهم على التمسك بالشجاعة ويتوعدون جميع الجبناء بالطرد من حظيرة الكنيسة .

كانت سنة ١٨٩٦ هى السنة التى نظم فيها الإمبراطور منليك جيشه فى «عدوة» استعدادا للموقعة الحاسمة مع الإيطاليين ، التى حققت له النصر التام وكان جيش منليك يتكون من ٧٠,٠٠٠ مقاتل مزودين بالبنادق ، ومن عدد لا يحصى مزود بالرماح والسيوف والهراوات . وكان لدى الإيطاليين ١٧,٠٠٠ مقاتل بينهم ٦,٠٠٠ من الارتريين ، وقد منوا بهزيمة مريرة قتل فيها ٨,٠٠٠ إيطالى و٤٠٠٠ من فرقهم الوطنية ، ووقع عار هذه الهزيمة ثقيلا على إيطاليا ، ولكن كان لابد من الانتظار حتى عهد موسلينى للأخذ بالثأر .

وبلغ عدد الأسرى بضعة ألوف نقلوا إلى «عدوة» ، وقد عومل الإيطاليون منهم معاملة حسنة نسبيا — ولكن الانتقام الفظيع وقع على الجنود الإرتريين الذين حاربوا ضد الإمبراطور كما كانوا يفعلون من قبل فى كثير من الحروب الأهلية ، فهؤلاء قطعت أيديهم وأقدامهم .

كانت موقعة «عدوة» فاصلة فى تاريخ إثيوبيا ، ونصراً يبلغ فى أهميته مبلغ الانتصار على محمد الأعسر الذى حدث منذ ثلاثة قرون ونصف قرن ، ففى تلك المناسبة نجت البلاد من المسلمين ، وفى هذه نجت من خطر الإيطاليين — نجاة مؤقتة على أى حال ، وكانت الفترة التى مرت ، قبل أن يعيد الإيطاليون الكرة — وهى زهاء خمسين عاماً — ذات أهمية بالغة . فلو أن الإيطاليين احتلوا البلاد سنة

١٨٩٦ . لكان من المحتمل كل الاحتمال ـ كما كانت العادة الدولية ـ أن يدوم مثل هذا الاحتلال .

وكان معنى فترة الهدوء هذه أن ازداد التقدير العالمى للبلاد فنظر إليها العالم كدولة حرة استطاعت أن تدافع عن استقلالها وكانت حرب منليك الموفقة ضد إيطاليا هى التى وضعت إثيوبيا بضربة واحدة ، على خريطة العالم .

كان سبب الصراع ، هو التنازع على المستعمرات الذى كان يتزايد فى ذلك الوقت واهتمام أوربا المفاجىء بقارة إفريقية ؛ ذلك أن القارة المجهولة التى ظل الرجل الأبيض قروناً يقضم منها أجزاء من هنا ومن هناك ، ثم فتحت أبوابها على مصاريعها فجأة على يد عظماء المستكشفين وكانت الدول الكبرى حينذاك تتنافس أيها يحصل أولا على الإمكانيات والثروات التى حسبوها مخبوءة فى أرجائها الفسيحة، وكان الإيطاليون هم الأقارب الفقراء على مائدة الرجل الغنى ، التى هى إفريقية ؛ هذا بالإضافة إلى أنهم بدءوا الاستعمار متأخرين ، ومن ثم كان لا بد لهم أن يقنعوا بالفتات دون العصير أو الغذاء ـ جبال إرتريا وصحاريها او بلاد الصومال الجرداء .

وبافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، أصبح البحر الأحمر من أكثر الطرق المائية حركة فى العالم ، واكتسبت شواطئه العارية المحروقة فجأة أهمية استراتيجية واقتصادية ، ووصل المصريون إلى هناك أولا ، ونجحوا فى السيطرة على الساحل كله حتى الصومال الحالى تقريباً وحلوا محل الأتراك الذين تركوه قبل ذلك بسنوات .

ووجد الإيطاليون الذين أخفقوا فى السيطرة على تونس، ولم يكونوا قد تجاسروا بعد على وضع يدهم على طرابلس ، أن من اليسير أن يظفروا بمركز على ساحل البحر الأحمر حيث كانت مستعمرتهم إرتريا تتشكل منذ سنة ١٨٨٥ ، وحاول الإمبراطور الإثيوبى أن يبقيهم بعيدا عنه ، وكان من حسن حظه كذلك أن هزم إحدى حملاتهم ، ولكن لم يكن أمامه الشىء الكثير مما يستطيع القيام به إذ كان منهمكا فى الاحتفاظ بوحدة إمبراطوريته المكونة من مقاطعات مستقلة لكل منها

ملكها الخاص الذى لا يفكر إلا فى إخضاع جاره ، ولربما ينتهى به الأمر إلى العرش الإمبراطورى .

وكان هناك ملك واحد تسبب بنوع خاص فى متاعب لا حد لها للإمبراطور ، وهو منليك حاكم مقاطعة « شوا » التى تتوسط البلاد ، والتى كان يوسع حدودها قليلا نحو الجنوب فى موسم الجفاف من كل عام . وقد أصر منليك آنئذ على أنه الوحيد الذى يستحق لقب إمبراطور مادام هو وحده الذى يجرى فى عروقه الدم الشرعى ، واعتماداً على هذه النقطة آزرته الكنيسة .

عقد منليك اتفاقات خاصة مع الإيطاليين الذين أعطوه أسلحة حديثة ، إذ حسبوه سيكون عبداً لهم فى المستقبل . وعندما توفى الإمبراطور اعتلى منليك العرش دون مشقة ـ وكان الآخرون جميعاً يخافونه ـ وعقد معاهدة جديدة مع إيطاليا منحتهم السيطرة التامة على السياسة الخارجية ، على أن يتلقى منهم فى مقابل ذلك مزيداً من الأسلحة لكى يتمكن من توحيد بلاده وتوسيع رقعتها ، وهو أمر يفيد منه الإيطاليون عندما يلتهمونها نهائيا كما كانوا يدبرون . إنها طريقة بارعة رخيصة للحصول على مستعمرة ، ولكن منليك كان داهية أيضا ، فقد رفض فى سنة ١٨٩٣ أن يواصل الاعتراف بالمعاهدة ، وأصر على أن قد جاء فى المعاهدة التى وقعها أن له أن يطلب نصيحة إيطاليا فى الشئون الخارجية ، وليس « يجب عليه » طلب هذه النصيحة . وبعث فى نفس الوقت برسائل إلى الدول الأوربية العظمى يتحدث فيها عن الإمبراطورية الإثيوبية التى يضطلع ببنائها ، وأنها لا بد لها من أن تضم أجزاء من ساحل البحر الأحمر وتمتد إلى الخرطوم ، وتصل جنوبا إلى بحيرة فيكتوريا ؛ ولم تثر مشروعاته الكبرى فى أوربا غير ابتسامات السخرية .

وكان الرد الجلى للإيطاليين على خدعة منليك التافهة هو أن يحتلوا البلاد برمتها وأن يخلعوا أسنان الإمبراطور المتمرد . وتقدم الجيش الإيطالى ، ولم يفكر أحد فى أوربا بطبيعة الحال فى احتمال هزيمته ، فلما وقعت الهزيمة لم تعد الدول

الكبرى تسخر من الإمبراطور الإثيوبى .

بلغنا الحدود المشتركة مع إرتريا ، وكان يقف فى مواجهتنا صف من سيارات النقل ، هى الركب الذى سيسافر فى الصباح الباكر تحت الحراسة المسلحة إذ لم يكن مسموحاً لأحد بالسفر على انفراد إلى أسمرة بسبب إغارات قطع الطريق المزعجة التى كانت لاتزال فى عنفوانها . وكانت الإدارة البريطانية قد وعدت بالعفو عن جميع من يتقدمون باختيارهم ويسلمون أسلحتهم، غير أنه لم يتقدم إليها أحد قط، وجاء ذلك مباشرة بعد أن أعلنت هيئة الأمم المتحدة أن إرتريا يجب أن تكون وحدة لها حكومة ذاتية تحت التاج الإثيوبى ، وأن يوحد النقد والدفاع والسياسة الخارجية ، على أن يوضع هذا القرار موضع التنفيذ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ عندما تستعد إدارات البلدين للقيام بأعمالها . ورغم ذلك ظل النزاع متبادلا ، كل شخص ينازع الآخرين ، إذ ليس أحب إلى هؤلاء الناس من القتال وقطع رقاب الإيطاليين الذين تجاسروا على البقاء حتى الآن .

كان الطريق الذى نسلكه من الطرق الجيدة ، يتعرج فى شقوق شديدة الانحدار ، بين جبال شاهقة . ولكن لم تكن هناك مجارى أنهار مبهجة تنحدر على سفوح جبال مشجرة إلى الوديان الخصبة . وكان يتصادف وجود مساحات صغيرة من الأرض الضعيفة تنزل بها جماعات من الناس تحاول الحصول على ما يوفر لهم معاشهم، ولم يكن هناك شىء على مدى ما يبلغه الطرف تحت أشعة الشمس الوضاءة ، غير أحجار ، أحجار رمادية ، وأحجار فى لون الصدأ .

إن إرتريا مجدبة ، فقيرة فى المعادن، وهى وإن كان فيها الذهب إلا أنه من القلة بحيث لا يعنى شيئاً بالنسبة لاقتصاد البلاد . ومواردها الأساسية من مينائى عصب ومصوع ، وهما ثغران للمنطقة الشمالية من إثيوبيا ، التى تعتمد إرتريا اقتصادياً على غلاتها - من جلود الضأن والماشية والقمح وشمع العسل ، إما كسلع تجارية وإما كمواد للصناعة . وليس لميناء عصب غير رصيف صغير لا يصلح لرسو السفن من أى حجم

ولكن ميناء مصوع مجهز بأرصفة ، ذات مياه عميقة ، ورافعات ، وهى تسمح برسو سفن حمولتها ١٥٠٠٠ طن . كما أن بها خطا حديديا يصلها بأسمرة .

أما أسمرة فمدينة جديدة جميلة بنى معظمها حوالى سنة ١٩٣٥ وهى السنة المشئومة التى صاح فيها موسولينى قائلا : « إن بيننا وبين إثيوبيا حساب قديم وجديد يجب أن يسوى ، ولا بد لنا من تسويته » وقبل أن يدرك أحد ما كان يجرى هناك ، اتخذت إرتريا منطقة تجمع استعداداً للغزو ودارت عجلة الحرب الإيطالية لتجتاز الحدود ، وتحمل الحضارة إلى إفريقية !

ولم تتقدم البلاد تقدماً كبيرا إبان السنوات التى أعقبت ضم إرتريا إلى إيطاليا لقد جلب الفلاحون الإيطاليون لزرع الأرض، ولكن الإنتاج كان ضئيلا، فكان لابد من صرف النظر عن فكرة التوطين ، وظلت إرتريا شيئاً ميتا إلى أن فتح موسولينى الباب إلى ظهيرها الخصيب - إثيوبيا ، ثم نعمت إرتريا بفترة رخاء فى سنة ١٩٣٥ فقد وظف رأس المال الخاص ، ونمت فى ذلك الجدب الصناعة والتجارة ومشروعات النقل وقام كل هذا على أساس الغلات الإثيوبية .

وكان احتلال إنجلترا لإرتريا فى نفس الوقت الذى تحررت فيه إثيوبيا سنة ١٩٤١ ، هو نهاية العصر الذهبى القصير الأمد فى تلك البلاد . فقد حرمت طوال سنى الحرب من الرجوع إلى سكونها السابق ، إذ كانت قاعدة جوية هامة للحلفاء ، ولكنها فعلت هذا فيما بعد . وكانت السنوات التالية ، سنوات كثيرة النفقات بالنسبة لإنجلترا التى أسندت إليها إدارتها حتى يتقرر مصيرها .

وبدأ بعد ذلك دور شد الحبل فيما بين الدول العظمى لتقرير ما يجب فعله بالمستعمرات الإيطالية . ومضى عام، ثم عام آخر، وسرعان ما عيل صبر الإرتريين الذين أصابهم الفزع حين أعيد الصومال إلى إيطاليا . ووجدت إثيوبيا عدوها القديم يتربص ببابها مرة أخرى فحشدت جميع مواردها لتحول دون تكرار

الموقف نفسه مع إرتريا ، فهربت الأسلحة إلى داخل البلاد ، وتكونت فرق المقاومة ونشطت الدعاية لعودة إرتريا إلى الدولة الأم - إثيوبيا .

وعمل المسلمون بمؤازرة الرابطة الإسلامية على نيل الاستقلال ، ووعدت إيطاليا بدفع معاشات لجميع جنودها السابقين . وكانت الدعاية قد ألهبت الطباع الثائرة فتحولت هياجاً انتهى بحرب بين المسيحيين والمسلمين أريقت فيها الدماء . وكان السكان الإيطاليون آنئذ محرومين من حماية القانون

يعيش فى إرتريا نحو مليون نسمة ، تربط نصفهم بسكان الجانب الآخر من الحدود روابط قوية من اللغة والدين . وتتكون المجموعة الكبرى الثانية من العرب والسودانيين ، فى حين يعيش الصوماليون والدناقل فى الجنوب بالمنطقة شبه الصحراوية .

قال رئيس شرطة أسمرة ، وهو أحد رجال الشرطة السرية اللندنية السابقين :
« إن البلاد هنا جحيم منذ السنوات القليلة الماضية فعصابات الوطنيين المتحمسين تهبط من الجبال فلا يعوقهم عائق من دخول المدينة بأسلحتهم والقنابل اليدوية مخبأة بين ثيابهم . وهناك « حركة الشباب » الذين يقاتلون على أسس حربية سليمة ، ولدينا كتيبتان تعملان ضدهم . إننا ننقب فى القرية بعد الأخرى ، فإذا ما وجدنا أسلحة فيشنق صاحبها ، ولكن مركزنا لايطاق ، ورجالنا يقضون وقتاً عصيبا من جراء هذا الموقف فى بلاد وعرة كهذه ؛ إن الايطاليين يقتلون هنا ، وكثيرون منهم يهجرون متاجرهم أو مصانعهم الصغيرة ويعودون إلى بلادهم إيطاليا . وليس من شك فى أن قطع الرقاب أمر كريه ملعون ، وقد تم هذه العملية بمدية مثلومة - وليست هناك رحمة .. لامن جانب الثائرين ولامن جانب الإدارة . وتتركز العصابات المتبربرة فى الأماكن المرتفعة ، ونعطى مكافأة لأى شخص يستطيع أن يجيئنا برئيس عصابة من العصابات ميتاً كان أم حياً ، ولكننا لانظفر بواحد منهم حياً إلا فى النادر . ومن حسن الحظ أن

عملنا سوف ينتهى قــريباً ، وسيكون على الإثيوبيين والإرتريين معالجة المأزق بأنفسهم .

* * *

كان المستشارون الأجانب فى أديس أبابا متشائمين من مستقبل التحالف ، لقد وضعوا هـذا العبء إلى حد كبير على كاهل دولة متخلفة مثل إثيوبيا . وتشككوا فى أن عدوين قديمين مثل الإثيوبين والإرتريين يستطيعان الوصول إلى الهدوء الضرورى لقيام التعاون .

ومن سوء الحظ أنهم كانوا على حق فلم تؤد السنوات القلائل الأولى لهيمنة إثيوبيا على إرتريا إلا إلى موقف أكثر فوضى من ذى قبل . ولا تزال الحروب الصغيرة تشتعل على الدوام ، وقد ركدت التجارة والصناعة ، ولم تعد أسمرة بعد المدينة النابضة بالعمل التى كان يجد فيها المشترى كل مايريد .

إن هذا التحالف لم يكن عونا لإرتريا .

الفصل الثاني عشر

عيد الماسكال (الصليب) بأديس أبابا

فى الساعة السادسة من كل مساء ، قبل أن يشحب الضوء ويتلاشى بنصف ساعة ، تسمع أصوات الأبواق العالية فى جميع أنحاء أديس أبابا ، وتتوقف جميع المواصلات ، ويؤدى رجال الجيش والشرطة التحية ، وتظل المدينة برهة فى تكريم العلم الذى يرفع على قصر الإمبراطور .

وعندما يتحول الشفق القصير إلى ظلمة يصدر من القصر صوت مختلف ، صوت يشق طريقه إلى ضوضاء المدينة . . . إنه صوت أسود الإمبراطور حين تبدأ المبارزة الصوتية الليلية مع الكلاب والضباع . لقد أصبحت الأسود فى هذه الأيام مجرد رمز إلى قوة الإمبراطور ولا شىء غير ذلك ، إذ لم يعد الحال كما كان فى عهد منليك وأسلافه حين كان يرتب هذا ترتيباً عملياً سيكولوجيا لهز وقار صغار الملوك المتعجرفين والرؤساء المعارضين الذين لابد لهم حين يدخلون من المرور بهذه الوحوش نصف الجائعة التى تكشر عن أنيابها من وراء قضبان خشبية ، أو وهى فى أطراف سلاسلها ، فلا يشعرون بعد هذا كله بكامل الثقة فى أنفسهم حين يقفون فى حضرة أسد يهوذا ، ملك الملوك .

وتستمر الأسود فى زئيرها اثنتى عشرة ساعة ، ثم يطلع بعد ذلك ضوء الفجر البلورى الصافى فتسمع أصوات اليقظة ، وينفذ الدخان من أسقف الأكواخ . وتدب الحياة فى كل شىء .

وعلى الرغم من أن كلمتى أديس أبابا معناهما « الزهرة الجديدة » فإن العين لا تقع على شىء من هـذا إبان موسم الجفاف الطويل ، إلا فى حدائق السفارات التى يتوافر لها الرى والتى تعيش فى عزلة واضحة وراء أسوار تكللها الأسلاك الشائكة . ولكن المدينة تعيش هـذه التسمية فعلا قرب نهاية موسم الأمطار ،

فعندئذ يزدهر كل شيء ، وتهب نسائم الصباح محملة برائحة الأزهار المتفتحة الطيبة الشذى ، وتتلألأ أشجار السنط المزهرة بين أشجار الكافور الخضراء الضاربة إلى الزرقة . وعندما تسير راكباً في طرق « إنتوتو » المتعرجة الجبلية تجد الورود والزنبق وأزهار « الماسكال » الصفراء قد ظهرت على جميع المنحدرات ، وفي أعلى القمة بقايا قلاع قديمة ، ومن هذه القلاع ترى منظر المدينة الرائع ، والسهول الخضراء الرائعة الجمال من حولها . ولكن استمتاعك بها كثيراً ما يفسده الأطفال الذين يطلون من وراء الصخور كالغيلان الصغار ويرشقونك بالأحجار وهم يصيحون : « أجنبي ! . . . أجنبي ! » .

وكل يوم يتناوب سطوع الشمس وانهمار المطر الهتون ، ورخات البرد الثلجية التي تقرع الأسقف الحديدية المقفعة كأنها طلقات البنادق ، ويزمجر الرعد والبرق ويدوّيان . ولكن وطأة الأمطار تخف في سبتمبر ، ففي أواخر هذا الشهر تقام أعياد الماسكال احتفالا بنهاية موسم الأمطار .

ونصف هذا العيد كنسي ، ونصفه الآخر علماني ، ويرجع في أصوله إلى أسطورة من الأساطير الكثيرة التي تملك منها إثيوبيا ثروة طائلة . وكلمة « ماسكال » معناها صليب . وتقول الأسطورة إن ملكة عاشت في مستهل العهد المسيحي ، وكانت تحترق رغبة إلى العثور على الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح ، فأرسلت أناساً إلى أورشليم استطاعوا بعد بحث طويل وتنقيب كثير العثور عليه . ولكي يعرف الجميع هذا الحدث المذهل ، أمرت الملكة بإقامة أعمدة طويلة لتشعل فيها النار ، وأصبح هذا منذ ذلك الحين عيداً شعبياً تحتفل به الآن كل قرية صغيرة بإقامة هرم من الأعمدة الطويلة

ويكون الناس في صبيحة يوم العيد في شغل شاغل : النساء في إعداد العدة لحفلة المساء ، والرجال في قطع شجيرات الكافور الرقيقة ، يقشرونها ويشذبونها

ويربطونها ليصنعوا منها بحذق ومهارة صليباً من الأزهار ، أو مجرد باقة توضع على القمة .

وفي ساعة متأخرة من بعد الظهر يندفع الجميع إلى ميدان منليك ، حيث يقام الشطر الرسمي من الاحتفال فيتزين الناس بالأزهار ، ويمسك كل منهم عصا من الماسكال ، ويقوم بوسط الميدان في أيكة مسورة بالقضبان ، تمثال الملك منليك في هيئة فارس . وقد أقيم هذا التمثال للمرة الثانية لأن الإيطاليين كانوا قد دمروه عندما استولوا على المدينة بعد أن جرحت كبرياؤهم العسكرية . ويقام هذا الهرم الذي يبلغ ارتفاعه نحو خمسين أو ستين قدماً بين هذه الأيكة وكنيسة القديس جورج ، ويتأرجح في أعلاه عدد كبير من الصلبان والأزهار . وقد وضعت على مقربة من سور الكنيسة بعض المقاعد حيث يحتمي الناس بمظلة مبطنة ذات أهداب ، فعلى الرغم من انتهاء موسم الأمطار وفقاً للتقويم ، قد تحدث رخة متأخرة من الأمطار

ويجلس على المقاعد ، المطران وأعيان إثيوبيا ، ويقوم عرش الإمبراطور في الوسط بمكان مرتفع يشرف على المجتمعين كلهم . ويرتدي بعض الوجهاء الكبار عباءات من المخمل الأزرق مذهبة الأطراف ، أما من عداهم فيرتدون جميعاً حسبما يقضي النظام ، حلة النهار الرسمية ذات اللون السنجابي ، التي أصبحت في جميع البلاد المتخلفة رمزاً على ما يمتاز به لابسها من التعليم والتمدن : لتظهر ما يتميز به الشخص المتصل بثقافة العالم الفسيح ، وهو شيء يجعله بمعزل عن جمهرة الشعب الجاهل الذي لا يزال يتشبه بأسلافه في لباسه وأفكاره على السواء .

ترتفع أعمدة الماسكال عن الأرض ست أقدام أو نحوها ، وهي مكسوة بالقماش ، ويقف حول الهرم رهط من الكهنة في لباس الاحتفال الأحمر القاني والأصفر ، ويحمل الجميع على السواء مظلات ملونة ويقفون دون حراك متجهين إلى الأعمدة شاخصين إليها كأن هناك معجزة على وشك الحدوث ، حاملين في أيديهم صلباناً ضخمة تلمع في ضوء

وحينئذ تصدر الأوامر إلى الجند بإبعاده ، فيكونون دائرة من حوله ويضيقونها عليه شيئاً فشيئاً ، وبنادقهم مشهرة أمامهم لكى يتجنبوه ويحموا أنفسهم من طعناته . ويخرج الناس عن طورهم ويعجز الجند عن المحافظة على صفوفهم ، فيدفعونهم إلى الوراء هنا وهناك ، ولكنهم بعد ذلك يلجئون إلى المهاجمة بإطلاق النار فى الهواء ، والضرب بمؤخرة بنادقهم ، ويتعالى الصراخ والصياح حتى لتظن أنها بداية الثورة . ويهجم الفرسان بكل سرعتهم على الجمهور وتسيل الدماء من الأنوف المهشمة وأصابع الأقدام المحطمة .

ومع ذلك فلا يزال المحارب الباسل يقاوم ، وقد اضطر جنديان إلى ترك ميدان المعركة مثخنين بجراح بالغة ، وأخذ يلف ويدور كوميض البرق ، ويدوم كالنحلة ، فيندفع مرة إلى هذه الناحية وأخرى إلى تلك . وأخيراً يدبر أحد الجنود الأمر للاقتراب منه ويضربه من الخلف بمؤخرة بندقيته ضربة قوية فينهار ويصرخ صرخة عالية تتحول إلى زمجرة عميقة .

ولا يكاد يحمل بعيداً عن الميدان حتى يبدأ مقاتل آخر قصة مغامراته الدموية . وهكذا يستمر الحال برهة طويلة ، كل مقاتل يبدو أكثر وحشية من سابقه ، ولكنه التقليد المتبع فى هذا الاحتفال الذى يعلن فيه الرؤساء والمقاتلون عهودهم للإمبراطور ؛ ويذكرون الأعمال التى قاموا بها إكراماً له .

وبعدئذ يحل دور الشعب فى تحية الإمبراطور ، فيتدافع الناس إلى الأمام فى صفوف كثيفة وهم يغنون . وبيد كل منهم عموده الخشبى الذى يلقيه على الهرم ، فيتحول هذا الهرم شيئاً فشيئاً إلى كومة ضخمة . ثم ينحنون أمام الإمبراطور ، بل ينجح البعض فى الارتماء على الأرض وتقبيلها أمامه قبل أن يسوقهم الجنود

لإفساح مكان لغيرهم من الأبطال الجدد . ويعاود الموسيقيون العزف مرة أخرى بعزيمة مجددة ، فلا تحد جو الاحتفال حدود .

وفى المساء تشعل النار فى الهرم برمته ؛ وترتفع ألسنتها ارتفاعاً هائلاً ، ويلتف حولها الشبان يرقصون حاملين مشاعل موقدة وتنقضى الليلة فى أكل اللحم النيء ، ويشربون ويرقصون حول نيران صغيرة توقد أمام كل كوخ ، ويكون اليوم التالى يوم عطلة لكى يستطيع الناس التخلص من آثار خمر العسل .

الفصل الثالث عشر

فخامته

أحضر لى رسول خطاباً يطلب إلى الذهاب فوراً إلى وزارة الزراعة حيث يريد فخامة رأس « مسفن » حاكم « أوجادين » التحدث معى ، وحين وصلت كان قد خرج ، ولكنه ترك لى كلمة يقول فيها إنه سيبقى فى المدينة أسبوعاً ويمكننى لقاءه كل صباح بمنزله ، وسألت عن سبب الزيارة فأجابنى سكرتير الوزير بأن لدى الرأس مسفن مساحة كبيرة من الأرض بظاهر المدينة ، وأنا مهتم بالأرض ، ونخامته مهتم بإنشاء مزرعة نموذجية ... و ...

وسحب السكرتير القلم من شعره المشوش وحك به إحدى أذنيه ، ثم ابتسم ابتسامة فاترة ماكرة وهو يقول إن فخامته رجل لطيف جداً .

وشكرته على عطفه ، وتساءلت عما إذا كان لطف فخامته من طراز لطف حاكم « كافا » الذى سبق أن تعاملت معه ، فأراد أن يعاملنى بالمناصفة . فلما تحدثت فى هذا الشأن مع أحد المستشارين الأجانب بالوزارة بدا عليه الاهتمام وقال لى : « بالمناصفة ؟ ليس هذا الشخص .. إنه سيأخذ كل شىء ، لا تشترك معه فى شىء مطلقاً » .

كان منزل الرأس مسفن بناء فسيحاً للغاية يضم عددا من البيوت يتصل بعضها ببعض فى غيضة من أشجار الكافور ، ويحيط به سور وأسلاك شائكة فتجعله أشبه ما يكون بالقلعة . ويقف خارج السور عدد من الرجال يتحدثون فى صوت خفيض ، ويقف عند باب مصنوع من أخشاب الكافور والأسلاك الشائكة المتقاطعة بواب مسلح ببندقية . وكان الوقت فى الصباح الباكر والبرد قارس ، ولذلك التف كل واحد بدثاره حتى لم يظهر منه غير عينيه وأذنيه .

وقد سمح لشخص عليه مظاهر الوجاهة ويمتطى بغلا بالدخول ، ونادانى البواب فى نفس الوقت ، ولذلك سرت خلف البغل ، وترجل هذا الشخص بمساعدة خادم

قادنا معا إلى حجرة ملأى بخليط مضحك من الأثاث المنجد والمقاعد الصلب ونضدين للمائدة من الزجاج والصلب ، وكلها أشياء موروثة عن الإيطاليين

ومضت ساعتان دون أن يحدث شىء ما ، ثم ارتفعت أصوات كثيرة جعلتنى أتوهم أن شيئا غير سار قد حدث ، وكان الرجل المعروف وأنا قد أغفل أمرنا تماماً واندفعنا إلى الخارج متتبعين الجلبة التى قادتنا إلى حشد كبير أمام بيت صغير كان بابه مفتوحا . وقد وقف بداخله على سجادة صغيرة مفروشة أمام مقعد ذى متكأ مرتفع ، رجل قصير يرتدى حلة رمادية ، تبدو عليه أبرز مظاهر التعالى . « لقد كان فخامته هو بذاته » .

وتقدم الرجال كل بدوره إلى باب الدخول ، واكتفى الوجهاء بالانحناء بشدة عدة مرات ، ولكن الغالبية العظمى كانوا يركعون ويلمسون الأرض الصلبة بجباههم قبل أن يذكروا شيئا عن أعمالهم .

كان بعضهم قد قام برحلة طويلة من أوجادين لرفع قضية أمام المحكمة العليا بشأن الأرض ، وقد جاء الآن يخبر الحاكم بالنتيجة . وسلمت الأوراق إلى رجل بالباب قرأها بصوت مرتفع ، وآخرون جاءوا لأن أقاربهم يطلبون وظائف بالإدارة فخروا على الأرض ساجدين لإظهار غاية الخضوع .

وفى وسط كل هذا اندفع الرجل العظيم فجأة بين الحاضرين فى طريقه إلى الخارج ووقع نظره آنئذ على . فأرسل رجلا يسألنى عما أريد . فلما عرف من أكون عاد فأرسل إلى الرجل ثانية ليخبرنى أن فخامته يلائمه أن يتفقد الأرض معى فى عصر ذلك اليوم ، وأن سيارته ستأتى لتقلنى . وهز فخامته رأسه برشاقة فانحنيت له بالقدر الذى استطعته فى الزحام ، لأن الجميع كانوا يندفعون قدماً للاقتراب منه ، فهو سيد حياتهم والمسيطر على متاعهم ، ويرتمون على أقدامه آملين أن يسمع صوتهم .

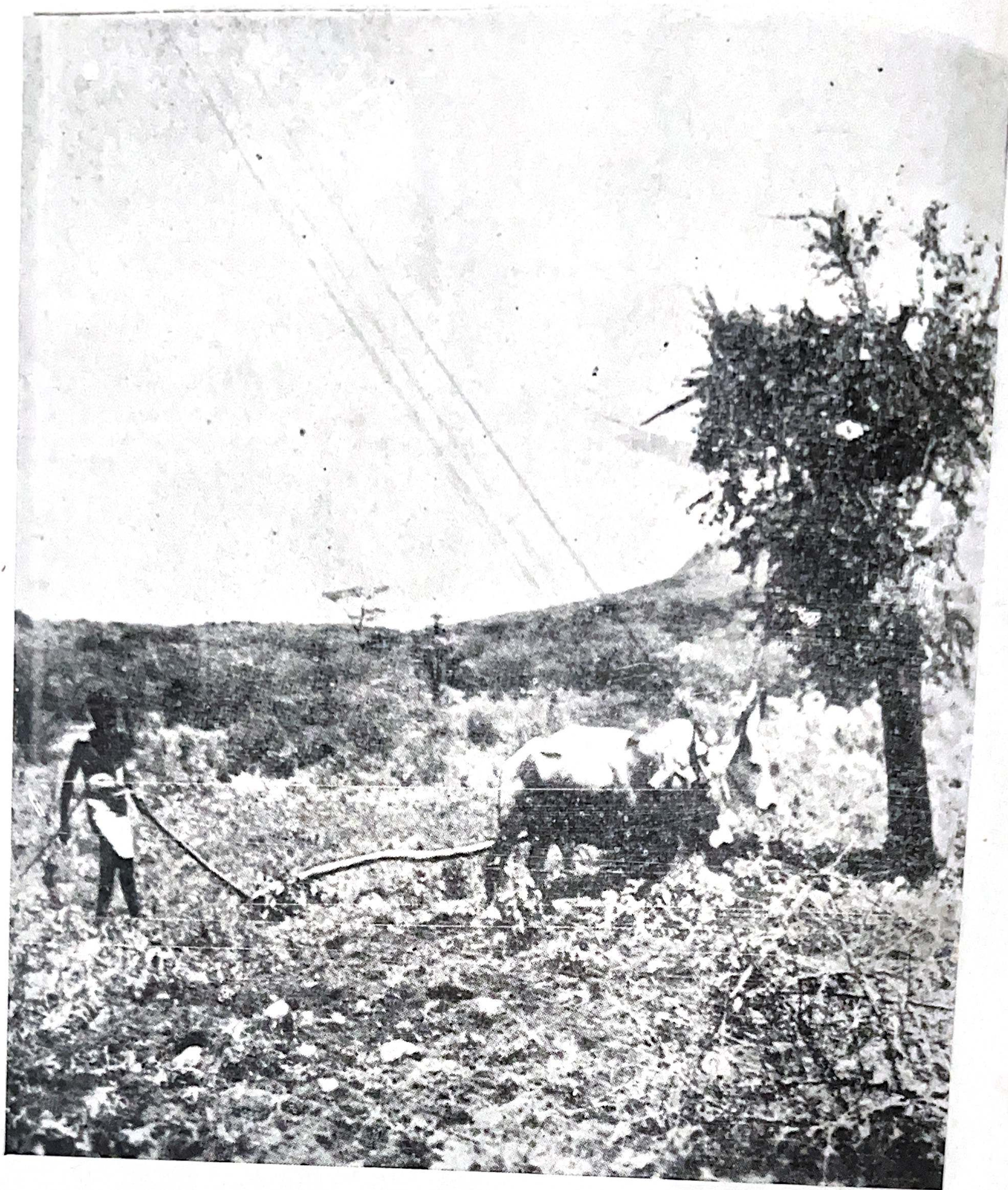
وظهرت فى العصر سيارة أمريكية يجلس فخامته على مقعدها الخلفى مبتسما . فلما وصلنا إلى أرضه حيث كانت ترعى بها بعض الماشية العجفاء . وتتناثر فيها أكواخ

قليلة ، ذكر لنا مشروعاته : فهنا تقام حظيرة كبيرة للأبقار ، وهنا بيت لى ، وهناك بيته فوق القمة ، بيد أن أهم الأمور جميعا هو ذلك الفندق الذى سيقام فى بقعة منخفضة بجانب البحيرة - وكانت هناك بحيرة صغيرة - والذى لابد أن يجتذب اهتمام الطبقة الراقية فى أديس أبابا . ويجب أن تذكر أن مدينة أديس أبابا تنمو بسرعة خيالية ، ولذا فلابد من وجود رقص (وعدد قليل من النسوة البيض الجميلات) وهنا صفق بيديه فى حماسة ... نعم يجب أن يكون هنا نساء كثيرات من البيض ، وأن يتم ذلك على مدى واسع حقيقة .

وقال : « ولسوء الطالع أننى لا أستطيع الحضور إلى هنا إلا بين الحين والحين ولكن شرط عملنا معا ، هو أن تحضر من وطنك بعض الجميلات » .

الفصل الرابع عشر

هرر - حديقة أوربا



حرث الأرض من أعمال الرجل

لا يهم أن تذهب إلى هناك عندما تكون غابات البن مزهرة والهواء يعبق بأريجها القوى الحاد ، أو تذهب حين تتألق فاكهة البرتقال تحت ضوء الشمس . إن الحياة محببة دائما فى هرر ، ففيها شيء متفتح دائما ، وشيء يحصد دائما .

و « دير داوه » هى الباب المفضى إلى هذه الحديقة ، التى يشكل الخط الحديدى حدها الشمالى . والطريق المؤدى إلى مدينة هرر — التى سميت المقاطعة كلها باسمها — جيد الرصف بصورة غير عادية ، وكل ذلك لأن هيل سيلاسى يذهب إلى هناك مرة أو مرتين فى العام ، فى رحلة تجمع بين العمل والفسحة لأنه يملك بها مساحات واسعة .

وعلى مسافة ثلاثين ميلا إلى الجنوب تقع المدينة القديمة ، وقد نشأت منذ قرون على المتاجرة فى ثروات إفريقية . وجرت على أن تكون أيضا سوقاً للرقيق . وتواتر سير السيل الذى لا ينتهى من الناس من داخل البلاد ، على طريق القوافل الخارج منها إلى الساحل العميق كأنه الأخدود ، وتقع على الطريق بحيرة جبلية اعتادوا أن يلقوا فيها بأجمل فتاة قربانا لأرواح المياه لكى تجعل الرحلة هينة ميسرة .

وكان المستكشف الإنجليزى « بورتن » أول رجل أبيض يصل إلى هرر وكان ذلك فى عام ١٨٥٥ ، ويقص فى كتابه عن رحلته كيف وصل إلى المدينة متنكراً فى زى أعرابى بعد رحلة من الشاطىء مليئة بالأخطار . وقد استراح تحت شجرة بينما نزل زميلاه الآخران من الأعراب يستحمان فى مجرى ماء ، إذ من يدرى ماذا يحدث عندما يبلغان أبواب المدينة ، إنه لمن الخير أن تغتسل ، فلربما يأتى المساء وأنت مع الله فى فردوسه وجها لوجه .. ثم يتابع روايته كما يلى :

« تقع المدينة على مسافة ميلين فوق قمة تل — وهى نهاية أسفارى الحالية — وهى خط معتم على القيض تماماً من مدن الشرق ذات الطلاء الأبيض ، فكان المنظر مخيبا للأمل إذا تحرينا الواقع المادى : لا يظهر شىء بجلاء غير مئذنتين رماديتى اللون خشنتى البناء . ولا بد أن كثيرين قد يحنقهم تعريض حياتهم للخطر فى سبيل الظفر بمثل هذه الجائزة ، ولكن بين جميع من حاولوا ، لم ينجح أحد قط فى اختراق تلك الكومة من الأحجار . إن الرحالة الأصيل يفهم سبب تقديرى لها ، وإن كان زميلاى قد تبادلا نظرات الدهشة .

« وسرعان ما نخسنا بغلينا وسرنا خبباً حتى أوقفنا « عناد سعيد » ليقرأ الفاتحة تكريما لـ « آو عمر سياد » ، و « آو رحمة » ، وهما وليان شهيران ويرقدان تحت أجمة قريبة من الطريق .

والتربة على جانبى الطريق حمراء : كتل من أشجار الموز والليمون والرمان ، تدل على الحدائق التى تحرسها جمجمة بقرة مبيضة مثبتة على عصا قصيرة ، وبين هذه الأشجار والجمجمة زراعات البن والزغفران الكاذب ، والقات الجميل المنظر .

« . . . وتابعنا طريقنا مصعدين على شريط ذى حافة حجرية يحف به نبات الصبير الطويل ، ويؤدى هذا الطريق إلى سهل مكشوف وإلى اليمين حقول الهوليوس التى تمتد حتى سور المدينة وإلى اليسار أكوام جبانة بدائية ، وإلى الأمام استحكامات هرر القائمة ، وجماعات من أهل المدينة يتسكعون عند المدخل الكبير » .

ولا تزال شجرة « بورتن » القديمة قائمة ، والجدول المتدفق على مقربة منها ، والحدائق عامرة بالأشجار كما كانت دائما ، والنباتات تنمو غزيرة فى التربة الخصبة الحمراء ، وتحرسها كما كانت تحرسها فى تلك الأيام القديمة جماجم ثيران محمولة على قوائم — « خيال المقاتى » السحرى الذى يحميها من الأرواح الخفية . وتحيط المقبرة الآن بالمدينة من كافة نواحيها ولكن الدرب لا يزال حجرياً ولا يزال عميقا ، ونبات الصبير لا يزال مرتفعاً .

ولا تزال المئذنتان المرتفعتان بقمتيهما المقدتين تشرفان على المدينة بلونهما الأحمر الداكن المرقط بالأبيض ، وعندما تقترب لا ترى غير المئذنتين وبناءين عاليين لم يكن لهما وجود على أيام « بورتن » وهما الكنيسة القبطية ، ويليها على ارتفاع قليل منها قصر الباشا الرافد كسراب من ورائه جبل « كندودو » البعيد ذو اللون الأزرق .

وتتعرج الطرقات الضيقة المنحدرة وتلتوى بطريقة عجيبة بين المساكن المبنية على الطراز الشرقى من الحجر الداكن المقطوع من التلال . وتنسل النساء المسلمات فى الزحام كالأشباح فى قلانسهن السوداء وخمرهن السميكة الحمراء أو الزرقاء . وعندما يندفعن مسرعات الى الداخل ، تلمح فناء بسيطا صغيرا به شجرة وبعض الخضرة على الجدار .

وتساق الأغنام الثقيلة الإليات والحمير والإبل المحملة بالأثقال إلى السوق أو منها حيث يفيض ضوء الشمس على السلال الملأى بالذرة الذهبية وتصنف النسوة الطروبات حبوب البن بأصابع سريعة فيخلصنها من القش والأقذار بغرابيل صغيرة

ويجلس الرجال يمضغون القات فى ظلال المنازل ، وفى ظلمة المتاجر الرطبة ، وهو مخدر يمضغون منه الأوراق الصغيرة الهشة .

وتبحث الأصابع الداكنة عن ورقة أخرى رقيقة فى الحزمة الملفوفة بورقة من أوراق الموز الموضوعة على الأرض الطينية المشققة ، وتهتز العمامات وتروى القصص وتعقد الصفقات التجارية .

ولمدينة هرر تاريخ ملطخ بالدماء ، وتفاصيل أحداثها القديمة تائهة فى ظلمات التاريخ ، ولكن إمبراطورية « زيلع » العربية امتدت فى القرن الثامن إلى المرتفعات وعلى طول الساحل إلى ما يعرف فى الوقت الحاضر بالصومال ، وزيلع هى المدينة

السـاحلية الواقعة جنوب جيبوتى ، ومنها كانت تقلع السفن العربية عبر الخليج إلى بلاد العرب حاملة ما تخصص فيه تجار هرر بما فى ذلك الخصيان الشبان لحريم الشرق .

أصبحت هرر أقوى المراكز الإسلامية الأمامية فى إفريقية قبل مجىء الجالا بحشودهم من الجنوب ، فكان لابد لرجال هرر من القتال دفاعا عن حياتهم . وأخيرا عقدوا محالفة مع العدو . وفى ذلك الوقت أيضا كانت الإمبراطورية التركية الفخمة على الجانب الآخر من البحر الأحمر آخذة فى التفتت . وأصبحت الروابط الكثيرة التى كانت تربطها ببلاد العرب قليلة ، وحولت هرر تقاليدها الخاصة إلى ثقافة سامية غريبة عنها .

وفى نهاية القرن الماضى كان العلم المصرى مرفوعا على هرر ، وظل هناك عشر سنوات قبل انتهاء حكم مصر ، ولكن تلك المدينة الصغيرة الغنية التى لا تزال نقطة البداية لطرق التجارة المؤدية الى إثيوبيا قد اجتذبت غزاة آخرين ، لقد أتيح لعلم أمير هرر الأخضر أن يخفق فوقها ولكن لمدة عامين فقط ، وقد أبيدت حملة إيطالية ، زعمت أنها بعثة علمية على الرغم من وضوح نواياها للعيان فى أثناء زحفها على المدينة ، وحينئذ جاء دور منليك ، ونهاية عهد استقلال هرر .

* * *

« سلام ! »

ظللنا عدة أيام يحيى كل منا الآخر صباحا فى السوق بهذه العبارة ، وكان هو مشغولا بحساب حزم جلد الماعز التى يجرها صف من الأجراء ينشدون الأناشيد وهم يجتازون الفناء الفسيح ويكومونها تحت سقف مائل فلا تملك إلا أن تلتفت إليه الملامح السامية النقية الحادة تحت عمامة فى بياض الثلج ، وقوامه المهيب ، والطريقة التى تنسدل بها « الشمة » على قميصه الطويل الأبيض ، ووزرته البنفسجية الضاربة الى الحمرة ، والتى تصل إلى قدميه العاريتين المنتعلتين خفين تبرز منهما أصابعه .

كانت تحيته ودية ، ولكنها رسمية . انحناءة خفيفة من رأسه ، ولكن دون

ابتسام ، أما اليوم فهى مختلفة ، إذ تقدم نحوى خطوتين ، ومر بيده اليمنى على جبينه وشفتيه ، ثم وضعها لحظة على قلبه ، ثم مدها ملفوفة فى شمته .

السلام عليكم »

لم أعد بعد غريبا ، ولربما كان الرجل اليونانى فى المتجر الذى يبعد عنا قليلا هو الذى تحدث معه بشأنى حديثا طيبا .

كان سليم تاجراً ، وكان يتنقل بقوافله المحملة بالبضائع مسافات بعيدة فى جميع الأنحاء ، وكان يشترى كل شىء ذا قيمة يعثر عليه فى طريقه ويبادله بالملح والأقطان الهندية الرخيصة . وكان ميسور الحال ، يملك بيتا فى المدينة ، وأرضاً وماشية بقرية آبائه .

وكان كلفاً بالحديث ، وعندما كنا نجلس فى بيته المعتم الرطب ، كنا نتحدث فى السياسة والحرب واللغات ، والأدب والدين والنساء ، والحياة فى المدن الأوربية وفى سهول إفريقية . وكان على قدر من المعرفة باللغات ، وينطق أصوات اللغة العربية من حلقه فتخرج خليطاً مستهجنا من الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والهررية ، بينما كانت الساعات تمضى ونحن نشرب سيلا من القهوة الكثيفة .

وحدث مرة واحدة فقط أن لمحت زوجته : كانت جميلة ذات عينين لوزيتين محببتين ، وقد زينت شعرها باللؤلؤ ومعصميها بأساور من العاج ، إنها مريم العذراء فى ثوب حريرى أحمر . ولقد كان لجمال نساء هرر شهرة على الدوام ، فهن فى جمال « فينوس كاليبجوس » ، واكتمال جسمها . وفى سلوكهن كبرياء وثقة بالنفس ، وفى حركاتهن رشاقة ورقة ، فهن كالغزلان تتخطر عبر السفانا . وحديثهن وضحكاتهن فى عذوبة الموسيقى . وثيابهن كثيرة الألوان وخاصة من يغلب عليهن الدم الصومالى ويرتدين وزرات عدة من ألوان متباينة ، ينظمنها

بحيث يظهر طرف كل منها للعيان ، وتحت هذه الوزرات سراويل شديدة الإحكام على الجسم تنتهى بحاشية مقصبة مطرزة عند الرسغين .

كان رمضان — وهو شهر الصوم عند المسلمين — قد أوشك على نهايته ، فأراد سليم أن يحتفل بهذه المناسبة العظيمة فى بلد أجداده ، ودعانا كلينا أن نكون معه . ومعنى هذا أن نصحبه معنا فى السيارة وبذلك يكون السرور مشتركا.

تهبط الأرض بانحدار شديد نحو الشرق ، ثم تصبح أرضا مكشوفة بعد ذلك ، حيث السهول العظيمة التى يتناثر فيها الصوماليون عشاق الحرية ، رعاة المعز والإبل بين أشجار الطلح ذات الأزهار الخيمية .

إن الكبرياء هى الوصف الملائم الذى ينطبق على هؤلاء الناس الذين اكتسبوا صفاتهم من اختلاطهم بالدم العربى ، فعقليتهم عقلية بدو ، وهم يحبون اقتناء الأشياء الجميلة كالخناجر ذات الحدين والأيدى العاجية ، والأوانى الخشبية المتقنة الحفر ، والبسط والملابس المجلوبة من الشرق . وهم متجهمون كبقية أهل البوادى ، ورعيهم مقصور على بعض الأماكن البعيدة فى السهل الفسيح ، ويجلس مثل هذا الراعى الصومالى فى الليل يتطلع إلى القمر ويترنم بأغنيات حزينة أو يرقص أو يصفق بيديه كالطفل ليبدد وحشته .

وعلى الرغم من أن اللغة الصومالية ، ليس لها أبجدية مكتوبة ، فهى لغة ذات ثروة من الشعر والخطب ، وفيها ألوف من الأغانى ... أغنيات عن قنص الفهد والفيل المثير ، وأغنيات أدلاء القوافل عن العذارى الفاتنات ذوات البشرة الحريرية ، وعن الواحات العليلة النسائم ، والينابيع ذات الخرير التى يأمل العثور عليها فى طريقه المتربة . إن النساء والإبل غاية ما يسعدهم .

والحب أعظم الموضوعات خطراً — تدعى المحبوبة لمرافقة المغنى إلى البئر فى « لا - ليلو » ، وهو يقارن فى الأنشودة الرعوية بين ساقيها والشجرة الطويلة الرشيقة ، يشربان معاً من لبن ناقته المحبوبة .

لم يمض على مسيرنا غير ساعات قلائل حتى وصلنا إلى قرية سليم ، حيث أعد لنا كوخ على عجل ، وأحضرت جرار الماء ، فأخذنا نزيل الغبار الأحمر الذى ترك على أجسادنا طبقة كثيفة .

وقادنا سليم إلى كوخ « الشيخ » فاستقبلنا بابتسامة عند فتحة الباب ، وأرشدنا إلى مقاعد فوق بسط صغيرة مفروشة على الأرض المتربة . وكان الكوخ الفسيح غاصاً بأناس ، نهضوا جميعا لتحيتنا عندما دخلنا ، فرددنا عليهم التحية بانحناءات شديدة وأيدينا على صدورنا . فلما سكن الهرج الذى أحدثناه استؤنف الحديث الهادىء وسط كثير من النفخ فى « الشيشة » .

هناك فارق هائل بين داخل الكوخ الصومالى وخارجه ، فالبدو لا يهتمون كثيرا بمساكنهم التى يبدو كأن هبة واحدة من الرياح كفيلة بأن تطيح بها فى الهواء . ومع ذلك فيمكن أن تكون لطيفة جداً من الداخل . ويعلق الشيخ على جدران كوخه المشققة قماشاً ملونا ومصابيح زيتية تشتعل ذبالتها بلهب ضئيل .

وكانت النسوة مشغولات فى مكان ملحق بالكوخ ، بإعداد وليمة لنا ، وهن يقتعدن الأرض حول نار صغيرة ، ويحركن طعاما فى أوان خزفية . وكانت روائح التوابل ، وخفقات الضوء المنبعث من اللهب تنفذ من الفتحة إلى الغرفة الكبيرة المعتمة حيث كنا نجلس مستمتعين بجو ألف ليلة وليلة .

ونهض الشيخ ، فتوقف الجميع عن الحديث والتدخين ، وأحضر أحد الغلمان القرآن الكريم فتلا منه الشيخ آية بعد آية ، وأخذ الجميع يرددونها معه هامسين ، وهم سجود .

كان الشيخ آنئذ راكعا على ركبتيه يصلى وحده صلاة طويلة . وعندما نهض تبعه الجميع فى وقت واحد ، وقامت صلاة الجماعة ، وبعد الصلاة صلى القوم على النبي وآله .

وانتهى عندئذ الشطر الجاد ، وجاء وقت الاستمتاع ، فكان حديث طويل وغناء ، وقدم لنا فى أثناء ذلك شواء جمل على صحاف خشبية كبيرة ، ثم القهوة والكعك الممزوجين بالبهار ، كعك حلو وآخر ممزوج بكثير من الفلفل ، وثالث معجون بدم الإبل .

وعندما فرغنا من تناول هذا الطعام اللذيذ ، أخذ الضيوف فى مضغ « القات » فنشطت أشداقهم بشدة ، وغنى الشاعر المحلى ، وران نعاس سار على الكوخ الذى امتلأ برائحة البخور العطرة .

وقضت القرية بقية الليل فى الاحتفال المصحوب بالغناء والرقص وصوت مزامير الغاب الهندى ، وكانت دبدبة أقدام الراقصين تسمع على مسافة بعيدة فى هدأة الظلام .

الفصل الخامس عشر

تقاليد وعادات

وقف هناك متكئا على رمحه ، بنيته جميلة التكوين ، خالية من أية تكورات غليظة فى العضلات ، وكان فى مرونة القط . وشعره المجزوز القصير منتصب كالوبر حول رأسه ، هذا إلى عينين براقتين كعينى جوارح الطير ، مما يجعل هيأته فى جملتها تبعث على الفزع . وكان يثبت فى شعره ريشة نعام ، وبكل من أذنيه ثقب صغير أولج فيه مسمارا خشبيا . ودلنا كل ذلك على أنه كان يشغل فى وقت فراغه المبجل بقتل الرجال ، وكان يتمنطق بحزام من الجلد تتدلى منه مدية مقوسة . واستدار فجأة إلى الخلف والتفت إلينا ثم سار فى طريقه متكاسلا ، وكان يحمل فى إحدى يديه قربة ماء من جلد المعز ، واضعاً رمحه فوق كتفه . وظل يتلفت وراءه متشككا

كانت الشمس على وشك المغيب ، وبدأ الضوء الذهبى ينتشر فى الغرب فوق منطقة من الأرض شديدة الجفاف ، واستطعنا أن نتنفس قليلا بحرية ، وأصبح الهواء رائقا خاليا من الغبار الذى كانت تذروه الرياح طوال النهار ، فترتفع منه أعمدة عالية لاتتوقف عن التدويم فوق هذا البلقع الموحش . وشعرت أعيننا الملتهبة ، وبشرة وجوهنا الممزقة كأنه إنقاذ رائع جاءنا بعد قضاء يوم بأكمله لافح الرياح بلغت حرارته فى الظل ٤٠° .

أما الرجل الدناقلى المتوحد الذى وقف يتأملنا طويلا على مبعدة منا ، فكان قد نأى عنا كثيراً ، وتراءى منظره القاتم من بعيد كأنه شيطان أمام لهاب من الحجر الطباشيرى الأبيض .

كانت قافلة التجار التى سمح لى بالذهاب معها قد وصلت إلى السوق حيث ضربنا خيامنا ، وكان المكان محايداً بين مناطق عدة قبائل ، ولم يبدأ أن هناك عملا يمكن

أن ينجز فى ذلك الصباح ، إذ كان المكان مهجورا تماما ، وليس به شىء قط يميزه عن بقية المنبسط الفسيح من حولنا .

* * *

ولقد انتهت الحادثة الطارئة التى جرت بينى وبين سليم الهررى عن الدناقل إلى اتصالى بزميله حسين ، وهو تاجر عربى بعيد عن السكة الحديدية . وكان سليم يعرف أن حسينا على وشك السفر فى رحلته الشهرية إلى سوق الملح بأرض الدناقل . فأعطانى رسالة له . وبعد أيام قلائل كنت أتأرجح على ظهر بعيرى فى أثناء سيره المكدود وهو يتهادى عبر السفانا .

كنت الوحيد الذى لا يحمل سلاحا ، وقد ركب الدليل فى المقدمة ، وهو خلاسى من الدناقل والجالا ، ويأتى بعده حسين ، ثم أنا . وكنا نستطيع أحيانا أن نسير راكبين جنبا إلى جنب ، ولكن كثيراً ما كان يضيق الطريق وتزداد وعورته بحيث تترك الدواب تسير فى صف واحد . ويأتى من ورائنا مساعدونا ثم جمال الحمل ، ويحمى المؤخرة حارسان . وشقت القافلة طريقها كالحية المفككة المعقدة بين أحراش السنط والأشواك وأكوام النمل الأبيض الطويلة . والصخور المشققة .

ووقفت غزلان الدكدك (*) الصغيرة بين الأحراش فى الظل ترمقنا دون حراك أو خوف ، وهى لطيفة ضئيلة الجسم فى حجم الأرانب . سيقانها دقيقة أرفع من خنصر فتاة صغيرة .

لم يكن فى هذا الدغل من السفانا . كثير من مظاهر الحياة ، وكنا نرى على مسافة بعيدة قطيعا من حمر الوحش ، وعلى الجانب الآخر قليلا من النعام ، وكان الصوت الوحيد الذى يطرق أسماعنا هو صريف أربطة الحمل ودبدبة أخفاف الجمال المستمرة المتثاقلة فوق تراب الطريق العميق

وصلنا إلى نهر أواش فى ساعة مبكرة قبيل الظهر ، ولم تكن بنا حاجة إلى عبوره . ولكننا تتبعناه فحسب ، مسافة قصيرة نحو الشرق إلى حيث ينثنى نحو الشمال ، ثم يجرى متكاسلا شيئا فشيئا فى السفانا

(*) نوع من الغزال يعيش فى الصومال .

وتستطيع أن تتابع وادى النهر الرمادى الضارب إلى الخضرة مترامياً على مدى البصر ، وأن تميزه بوضوح كبير عن السفانا الرمادية الصفراء . وتنمو الأحراج متقاربة على جروفه المنحدرة وفى القاع أشجار الجميز الضخمة وقد مالت نواصيها فوق الماء ، وفى أعالى الأشجار تتعارك القردة ذات الوجنات البيضاء . وعلى الشاطىء البعيد وقف طائران من اللقلق الهندى ينظران فى حكمة وجلال وحطت فراشات فى حجم يدك ، ذات ألوان زاهية فوق الأرض الموصلة الصفراء الضاربة إلى الحمرة ، وقد انطبعت عليها بوضوح تام حوافر الحيوانات التى شربت فى ذلك الصباح أو فى الليلة السابقة — غزال ، وخنزير برى ، وفهد واحد .

ثم أصبحت النباتات بعد ذلك أكثر تباعداً . وأصبحت الأشجار السنطية قصيرة قميئة ، ولم تبق غير أشجار الصبير ذات الأوراق السميكة على ازدهارها ، وكان هناك قطيع صغير من الغزلان يلتقط شيئا يأكله من بين الأحراش والحشائش الصفراء . وأشار إلينا الدليل أن نتوقف ، ثم ترجل وزحف من أيكة إلى أيكة حتى أصبح على مدى المرمى ، وعندما دوى أخيراً صوت الطلق النارى ، ألصقت نعامة رأسها الحائر فوق بعض الأحراج القريبة أمامنا ، ثم تلبث أن أخذت تعدو مبتعدة وقد استولت عليها الدهشة ، كما لو كانت منجذبة إلى الأفق بقوة خفية ، وأصبحت نقطة صغيرة طافرة ، ثم لم تلبث أن اختفت تماماً .

وحتى الأشجار ، أصبحت قليلة متباعدة ، ثم اختفت معالم حياة الحيوان ، فلم يبق غير نسر مرتفع فى الجو يتبع القافلة وهو يحوم فى دوائر واسعة ، وظلت السفانا المشجرة الفسيحة المتوهجة منبسطة كئيبة من حولنا ، بقعة تنقطها القمم المهشمة والحمم البركانية الرمادية القاتمة .

ومررنا بإحدى قرى الدناقل على حافة الصحراء ، ورفع قطيع من الجمال

رءوسه ، ونظرت إلينا بأعين مثقلة ، ولكن دون أن تتوقف عن مضغ حشيشها الجاف البارز من بين فكيها وفزع لرؤيتنا صبيان كانا يتسليان بتصويب الرماح كل إلى الآخر ، فقفزا وراء دغل من الأدغال .

كان بعض الحراس واقفين فى ظل صخرة ، فتوقفنا عن السير رتبادلنا وإياهم تحيات ودية عن بعد ، فلما انتهينا من هذا على خير وجه ، تقدمنا نحوهم فلما بلغنا مكانهم كررت الطقوس برمتها . وكانوا مدججين بالسلاح ، من مدى ورماح ومدفع قديم واحد ماسورته مشققه

وقادنا أحد الرجال إلى القرية ، وسرعان ما أقبل الناس علينا يجرون حين عرفوا أن بين الجماعة رجلا أبيض . وكان حسين وقومه معروفين جد المعرفة فى القرية فاستقبلوه استقبال الأصدقاء القدامى . وسرعان ما هبط اهتمام الناس بالرجل الأبيض ، وعاد الناس إلى مشاغلهم ، من تهذيب قناة رمح أو شحذ سكين أو بمجرد الاستلقاء فى العراء بين الأكواخ يثرثرون فى خمول . ولم تكن الأكواخ إلا أعواداً قليلة مثنية مكسوة بجلود الحيوان ، وهى من الانخفاض بحيث تضطر المرء إلى الحبو على أربع للدخول من فتحاتها

وبعثوا إلينا بقرعة من لبن الإبل ، كان من شدة المرارة بحيث ذكرتنا كل جرعة منه بكآبة القفار . وقد أحضرته فتاة صغيرة اقتربت منا فى تردد ، ثم وضعت القرعة فجأة عند قدمى ، وأسرعت بالابتعاد بين الأكواخ بجفلة كأية غزالة .

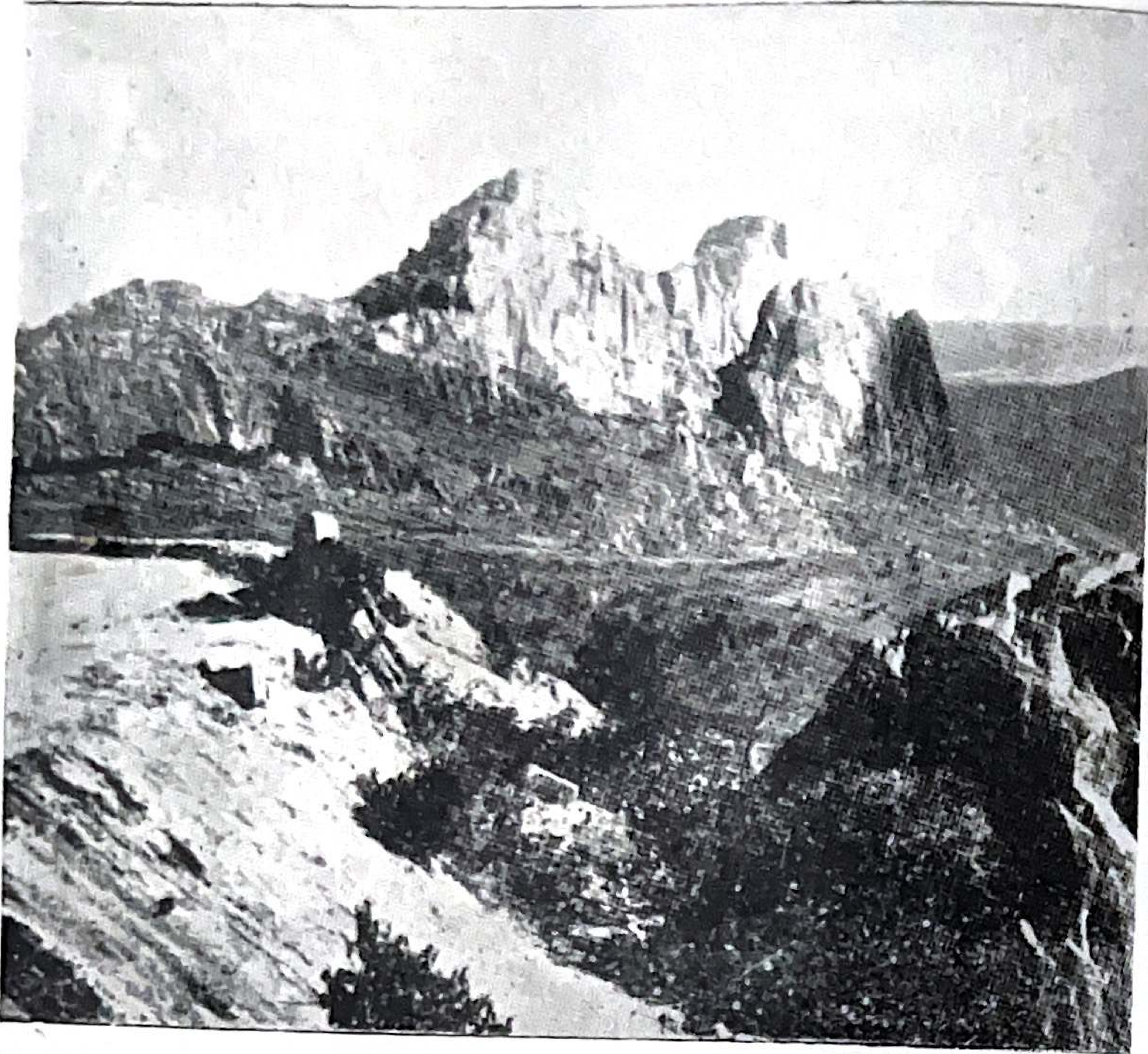
ولا يكاد الرجال يفعلون شيئا سوى إعداد أنفسهم للحرب ، فهم لا يشعرون مطلقا بالأمن ، إذ قد تهاجمهم قبيلة مجاورة بالنهار أو بالليل ، أو يفكرون هم أنفسهم فى غارة نهب قصيرة . ولكل قبيلة بطبيعة الحال منطقتها منذ كانت ، غير أن حدودها مائعة دائمة التغير تبعا لقوة القبائل نفسها ، فإن تهيأ للقبيلة بضع سنوات من السلم تستطيع إبانها أن تتكاثر أصبح لديها دافع يستحثها إلى التوسع ،

ولابد لها من مهاجمة جارتها إن عاجلا أو آجلا وأفضل ما يرغبون فيه هو أن يستطيعوا حمل النساء بعيداً . وأكثر ساعات اليوم ملاءمة للإغارة الناجحة ، هى قبيل الفجر مباشرة وخلال الليل يمكن قطع مسافة كبيرة والوصول إلى الهدف قبل أن ينقشع الظلام ، فيثبون خلسه على الحراس ويحصدونهم . ويستبيحون القرية عند مطلع النهار ، وهم يصيحون صيحات مفزعة ولا يكف أى من الفريقين أو يرحم الآخر ، بل تظل الحرب قائمة إلى أن يفنى أحد الطرفين ، أو يستولى الفزع على واحد منهما فيتوقف عن القتال . فإن كان الهجوم ناجحا ، أخذت النساء الشابات والماشية والإبل غنيمة ، ويقتل ما عـــداها من المخلوقات الحية .

* * *

كان الدخان يتصاعد عمودياً من نارنا الصغيرة ، وبدأ الشفق القصير الأمد ، وأخذت النجوم تظهر الواحد بعد الآخر ، وكان الطباخ يقلى البيض — كنا قد جمعنا كمية طيبة من بيض النعام — ولكن رائحة الطهو لم تغرنى بالأكل ، فظللت ممدداً أكاد أموت نصباً بعد ركوب يوم بأكمله وحاولت أن أجعل مخى الذى أصيب بضربة الشمس يؤدى عمله . وكان السائل الكثيب فى وعاء الماء قد اقترب من درجة الغليان وظل مذاقه كريها كأنه الكلورين وكم حاولت أكثر من مرة أن أتناوله فى أثناء النهار ، وفى خيالى صورة ينبوع حول الأشجار الظليلة والحشائش الطرية ! إن خيالك يضفيك عندما تعرض لك فى هذا الوهج والضوء الباهر الذى يؤذى العين واحة ذات نخيل ، وحورية تقدم لك الأناناس الريان والبطيخ ، وتصب على جسمك المهدود ماء ملطفا ، وتمسحه بالدهون الغالية .

وتأهب حسين لصلاة العشاء ، ولم يكن هناك ماء يكفى للوضوء . ولذا اضطر أن يقنع بتنظيف ما بين أصابع قدميه من أقذار وبلل بفمه قطعة من القماش فدعك



بعض الطريق الشمالى عبر الجبال

بها قدميه ، ثم بسط حصيرة الصلاة واتجه فوقها إلى القبلة ، ومد ذراعيه قبل أن يسجد لله .

كان الصمت يخيم على الليالى السابقة ، حتى ابن آوى لم يصرخ بعواء الجوع فى الصحراء ، ولكنك كنت تسمع عرضا زفرة رغاء أحد الجمال ، وهمسة خافتة من الحراس . ولكن تلك الليلة فى السوق لم تكن هادئة ، إذ لم ينقطع وصوص المعز ، والأغنام ذات الإليات السمينة ، وصفوف الإبل المربوط الواحد منها إثر الآخر ، من كل حدب وصوب ، فكان لابد أن يظل المكان فى حركة لمدة أيام . وقد هبط سكان المرتفعات من الجبال فى الغرب حاملين القمح وعسل النحل ، ليقايضوا عليهما بالملح . وكانت حميرهم تطأ الأرض نشيطة وعليها أكياس القمح ـ كل كيس جلد شاة بأرجلها البارزة ـ وجرار ضخمة من الفخار ملأى بالعسل ، ويركب الدناقل جمالهم أو يسيرون بجوارها وهى محملة بقضبان رمادية قاتمة من الملح المستخرج من الصحراء حيث لايوجد شىء سوى الرمال والحمم والملح .

وكان سكان كل من الصحراء والمرتفعات مسلحين بالمدى والسيوف العربية المقوسة ، والرماح والأسلحة النارية العتيقة ، ولكن المتاجرة كانت سلمية إلى أبعد حد . وكان الإقبال شديداً على عسل النحل ، يصب من الجرار الكبيرة ، فى قرعات الدناقل الصغيرة ـ ولكن هذا لايتم قبل أن يعاين المشترى الصنف ، وذلك بغمس أصبع فى الكتلة الداكنة ، ثم يلعقه فى كثير من التلمظ بشفتيه والتذوق بفمه . والبعض يرغب فى أكثر من عينة ، وقد يغمس أحدهم يده كلها وهنا تومض عينا البائع ويصبح صوته خطيرا وينشأ عراك لطيف .

والدناقل قبيلة شديدة الكبرياء ، وهم يشبهون أهل هرر فى خلوهم من الخصائص الزنجية أياً كان نوعها (لا يمكن إنكار وجود الآثار العربية على طول الساحل الشرقى) وهم مسلمون ولكن الدين عندهم لايعدو أن يكون قشرة رقيقة تخفى اعتقادا بدائيا فى الأرواح ، ويعدون أكثر شعوب إثيوبيا العديدة شغفا

بالحرب . وقد استطاعوا المحافظة على استقلالهم دائما ولقسوتهم أصبح يخافهم من يعيشون فى البلاد المحيطة بهم ، فيحرصون دائماً على الابتعاد عنهم بما يكفل أمنهم والواقع أنك يجب أن تكون حذرا فى معاملتك معهم .

وحتى سنة ١٩٣٠ كان يعيش أحد سلاطينهم فى قلب الصحراء ، وهو رجل قوى اختط لنفسه طريقه الخاص ، وكان شوكة مؤلمة فى جسم الإمبراطور . وفى كثير من الأحيان كانت ترسل إليه فرق من الجيش لتأديبه ، ولكنها لم تبلغ قط أكثر من حافة الصحراء ثم تعود أدراجها . وعلى الرغم من شجاعة سكان المرتفعات ، فإنهم يخافون الصحراء . وقد كان للسلطان مدينة ثابتة من الخيام المصنوعة من الجلد وفى دائرة واسعة من حولها حزام من مراكز الحراسة ، ومن ثم كان من المحال الاقتراب من السلطان . وعندما مات السلطان ، تمكن هيل سيلاسى بالدهاء الدبلوماسى من منع تولى حاكم جديد عرش الصحراء ولذا ، فمن المرجح ألا تحدث بعد ذلك متاعب فى تلك الجهات .

إن اللبن والدماء واللحم النيء هى غذاء الدناقلى ، ولعلها السبب فى خفة حركته الشبيهة بحركة القط ، وفى خداعه الذكى . إن القاعدة التى تحكم سلوكى قصيرة واضحة وهى : يجب على الرجل أن يفكر فى الدم ، وخير له أن يموت من أن يعيش دون أن يقتل ، ويحيا الدناقلى حياة الصياد والبدوى ، حياة مقصورة على أدنى المطالب الضرورية للغاية ؛ وهى كل ما تمنحه إياه الطبيعه فى شح وتقتير . إنه غير مقيد بأية بقعة محدودة من بقاع الأرض ، فهو يستطيع أن يحزم كوخه ومتاعه القليل بسرعة ، ويسوق إبله فى تطوافهـا الذى لا ينتهى بحثا عن مرعى جديد .

الفصل السادس عشر

كيف يعيش المستوطنون

خف شيئاً فشيئاً تزاحم أولئك الذين يعولون بيهو وزارة الزراعة ، ولم يكن ذلك لأنهم أنجزوا شيئاً من مصالحهم ، ولكن لأن الوزير لم يكن موجوداً كما هي الحال في غالب الأحيان ، وكان نائب الوزير مشغولاً ، وذهب المدير العام إلى بيته مخموراً ، وكان ينفث رائحة الأنسيت (خمر اليانسون) وهو يمر بنا مترنحاً ويلكز أضلاعنا مازحاً .

لقد خيب الضجر والظمأ والحرارة المنبعثة من السقف الحديدي المقفع الذي أوشك على الاحمرار ، كل رجاء . إذ قضيت أسبوعاً في الانتظار ولكنني كنت لا أزال متفائلاً لأن وزير التجارة الذي أصبحت صديقه الحميم بسبب مساعدتي إياه في وضع نوع من النظام لتربية الماشية في مزرعته ، قد عرض حالتي على الإمبراطور الذي قال بضرورة إعطائي المبلغ الذي أستحقه في مقابل عملي بمدرسة الزراعة ، وأن أشغل وظيفة بالمزرعة التجريبية . ولم يكن علي إلا أن أقدم طلباً لوزير الزراعة ليرتب لي كل شيء .

وكان يقف حارسان عند باب مكتب الوزير ، أحدهما يحافظ على إبقاء الباب مغلقاً بواسطة قطعة من الخيط ، فقد كان مقبض الباب مكسوراً كما كان في العام الماضي أو قبل ذلك ، ويجلس الآخر على الأرض يتصيد الدود من تحت أصابع قدميه بدبوس .

لم يبق جالساً أمامي آنئذ غير شخص واحد عنيد ، وهو رجل نحيل يرتدي الملابس الأوروبية الشتوية الثقيلة ، وكان وجهه ينضح بالعرق . إنه « كوفاك » أحد رجال الشرطة السابقين في براغ . وهو لاجئ سياسي كان قد أمضى خمس سنوات بأحد المعسكرات في ألمانيا ، وأصبح من مستوطني إثيوبيا . والواقع أنه

كان الشخص الوحيد الذى سمح له بالبقاء دون كثيرين ممن وصلوا إلى هناك قبل ذلك ببضعة شهور .

كانت قد ذهبت بعثة إثيوبية إلى ألمانيا فاختارت من شاءت من أولئك القوم ووعدوا بالحصول على أرض وقرض يبدءون به العمل ، وعندما وصلوا إلى أديس أبابا مثلوا بين يدى الإمبراطور الذى مناهم بأطيب الوعود ، ونشرت جريدة أسبوعية صورتهم مجتمعين فى ساحة القصر ، وكانوا مائتين من الرجال والنساء والأطفال يبتسمون جميعا ، سعداء بفكرة أن كل شىء فى حياتهم يجرى فى هدوء . وقيل لهم إن مستعمرتهم ستكون على بعد أقل من مائتى ميل إلى الجنوب بين « الجالا » . وسافر الرجال إلى هناك لبناء مساكنهم .

ولم يمض وقت طويل قبل أن يقرر الجالا أنهم لا يرغبون فى إقامة المستوطنين وشعر كثيرون منهم بمرارة الألم الذى تحدثه طعنة الرمح ، ورجع البعض إلى أديس أبابا وقد أصيبوا بجراح بالغة ، ولكن أحداً منهم لم يمت ، فأرسلت فرق عسكرية مع النساء والأطفال واستؤنف العمل .

ونفدت أموال المستوطنين ، وبدءوا يتضورون جوعا ، وذهب بعض الرجال إلى العاصمة لعرض حالتهم فى وزارة الزراعة ، ولكن شكواهم صادفت آذانا صماء ، واتجهت جميع العائلات شيئا فشيئا إلى العاصمة حيث عنى بهم الأوربيون هناك .

وأرسلت برقية إلى ألمانيا ، إلى شخص ما بمؤسسة توطين اللاجئين ، فحضر وأجرى محادثات حامية مع الإثيوبيين ، وبعد وقت قصير كان المهاجرون فى طريقهم إلى استراليا . وما إن خرجوا من البلاد حتى ذكرت نشرة الأخبار الرسمية أنهم طردوا من البلاد لسوء سلوكهم ، ولأنهم شتموا الإمبراطور وإثيوبيا أمام الناس فى الخارج بصورة مخجلة إلى أبعد حد ، وكان هذا هو كل حمدهم للأعمال الإنسانية التى شرع الإمبراطور أن يقوم بها .

ولكن « كوفاك » بقى . فقد قدر أنه سيحصل على شىء من المال مادام الآخرون قد رحلوا ، وكان على حق فى ذلك ، إذ كان يحصل كل شهر على مبلغ صغير على أن يرده مقسطاً بعد عامين ، وكان لابد له من الكفاح الشديد فى سبيل هذا المال لأنهم كانوا ينسون وجوده نفسه من شهر إلى شهر ، ولكنه ظل مقيما هناك .

وخرج نائب الوزير ، فقفز واقفا الرجل الذى كان يلتقط الدود ، وأخذ ينحنى هو وزميله فى وقت واحد ، وانحنيت أنا أيضا ، ولكن الوزير لم يومىء برأسه كثيرا واندفع إلى داخل سيارته . وأدار السائق محرك السيارة وابتعدوا جميعاً وسط سحابة من الغبار .

* * *

قال كوفاك بعد بضعة أيام فى نفس البهو وهو يحشو أوراق النقد فى حافظة نقوده : « حسنا ، فليكن ، وسأذهب الآن إلى المخازن التجارية وسأرحل غداً فى طريقى إلى بيتى ، وسوف لا أسافر بسيارة نقل فى هذه المرة بل فى سيارة « ستيشن واجون » ، ولذا فينبغى أن أصل إلى هناك فى المساء . لقد كنت محظوظا كما ترى إذ قابلت اثنين من المدرسين يرغبان فى السفر لرؤية الجالا ، ولكن أصغ إلى ، لماذا لاتذهب معنا أنت أيضا ؟ إن لدينا مكاناً متسعا ، ونستطيع أن نذهب الآن ونقابلهما فى هذا الشأن ، وسيكون فى ذهابك معى عون لى إذا ماتركتنى أقتبس أفكارك وأستخدامها .

وقبلت العرض لضيقى بالانتظار الذى لاينتهى بالبهو ، وكنت فى الحقيقة قد قطعت الأمل إذ وجدت أن كلمة الإمبراطور سوف لاتساوى شيئا ، لأننى اكتشفت أن وزيرى التجارة والزراعة عدوان لدودان ، وأن وزير التجارة يعطل عملى بوضع العوائق فى طريقى ، ومات موضوعى كما كان ميتا من قبل .

فرح المدرسان - وهما كنديان جديدان على البلاد - فرحا عظيما بمرافقة أناس سبق أن كانوا فى الجنوب ، وهكذا رحلنا فى صباح اليوم التالى معا فى سيارتهم .

وعندما بلغنا أرباض المدينة وجـدنا رجال الشرطة يعترضون طريقنا ، إذ كانت المشنقة على وشك أن تستعمل وهناك مشنقة مقامة فى المنافذ الرئيسية لكل مدينة - وكان المحكوم عليه بالإعدام يهبط متثاقلا فى تلك اللحظة من عربة كبيرة سوداء كتلك التى رأيتها تستخدم فى نقل اللحم من المجزر إلى ثكنات الجيش والمستشفى الحكومى .

ولم تمض دقائق كثيرة قبل أن يتنحى رجال الشرطة جانبا ، ويندفع الجمهور إلى الأمام ليشهد آخر انتقاضات الرجل ومن ثم استطعنا مواصله سيرنا . كان الطريق موازيا لخط السكة الحديد حتى « بيشفتو » حيث يدرب القوة الجوية مدربون سويديون فيما وراء البحيرة الخضراء ، وهى المكان المفضل لرحلات يوم الأحد . ثم إلى « مادجو » ، وهى محطة صغيرة بها قليل من الأكواخ ، ومنازل مصدعة يسكنها تجار من الأرمن . وهناك انحرفنا بعيداً عن خط السكة الحديدية واتجهنا إلى الجنوب مباشرة .

لم يكن الريف بنوع خاص مسلياً ، ففيه قليل من أشجار السنط هنا وهناك ، وعلى مسافات بعيدة كنا نلمح مجموعات من الأكواخ مقامة من الحشائش يصعب تمييزها عما يحيط بها .

ورأينا أسراباً من الدجاج الحبشى وأكواما ضخمة من النمل الأبيض ، أما فيما عدا ذلك فتراب فحسب ، تراب فى تراب جعلنا نسعل ، وغطى وجوهنا بطبقة سميكة حتى لكأننا نضع قناعاً من المخمل . وكنا نتعرض أحيانا لشىء من التردد فى هل تستطيع سيارتنا أن تشق طريقها فى التراب الناعم الغزير أم لا تستطيع ، وكنا نضطر أحيانا ونحن نسعل والعرق يتصبب منا إلى الاستعانة بالمجارف ،

وتقنع السيارة فى النهاية بالخروج من حفرتها وتتابع سيرنا وفى هذه المسافة كان الأمريكيون قد عبدوا الطريق بمراساتهم الضخمة وكانت النتيجة مدهشة . كان من الممكن قبل ذلك أن تزحف حول الحفر ، فوق ما كان يعتبر نسبيا سطحا من القدر صلبا ، أما الآن فقد تحولت هذه الحفر الثابتة إلى حفر خداعة لاتستطيع رؤيتها .

وعندما أعلن أن الأميال الثلاثين الأولى من الطريق قد عبدت ، خرج الإمبراطور لاختبار طريقه الجديد ، ولم يمض وقت طويل حتى انغرست سيارته . ولما لم تكن معه مجرفه ، فقد اضطر رجال الحاشية إلى الحفر بأيديهم .

وألقينا نظرة على بحيرة « تسفاى » ، وعلى التلال النائية التى ترتفع فى شكل مدرجات يخفيها الضباب الأزرق

وتحولنا عن الطريق الملعون وسرنا بين أشجار السنط ، واتخذنا طريقاً وجدناه لطيفا مستويا ، واستطعنا أن نغذ السير ، وكان يصادفنا بين الحين والحين حفرة تسكنها بنات آوى وكان لابد لنا من إمعان النظر والانحراف جانبا بخفة أو التوقف لتجنب انكسار أحد « يايات » السيارة .

حان وقت العصر قبل أن نصل إلى مدينة « شيساما نا » التجارية حيث أوقفت سيارتنا شرطة المرور الذين رغبوا فى الاطلاع على أوراقنا ، ومن الغريب أنهم وجدوها قانونية . فأنت لا يسمح لك بالسفر إلى الريف دون إذن خاص ومن دواعى اللهو المحببة لدى رجل الشرطة العثور على خطأ ما فى هذه الناحية ليحصل بذلك على دخل إضافى صغير ، فأنت تفضل بطبيعة الحال تقديم « هدية » يسير على أن يقبض عليك لعدة أيام .

أصبحت مناظر الريف أكثر تنوعا ، فبين أشجار « لبن السودان » phorbia تجد ما تبقى من الغابات القديمة التى كانت تغطى سطح الإقليم فيما مضى . ثم ناحية الشرق وسرنا مسافة كبيرة فى غابة عذراء ، وكانت الشمس على وشك

وتوهجت الغابة بلهب أحمر ، ورأينا أمامنا شبحى شخصين قصيرين وحيدين فى الممر الضيق بين الأشجار المارده يمسك أحدهما بيد الآخر .

وقال «كوفاك» : «إنهما توأماى . ولا بد أنهما سمعا صوت السيارة فانسلا من البيت ، لأنه ليس من اليسير أن نفهم أية أخطار ستواجهون عندما تكونون ثلاثة فحسب» .

وأغرقوه بعناقهم وقبلاتهم وصيحاتهم المرحة المتقطعة ، ووصلنا بعد دقيقة إلى حدود الأشجار ، ووقفنا بجوار بيت خشبى منخفض كان يقف عنده حارسان من رجال الشرطة يحمل كل منهما على كتفه بندقية ، حيث تقيم بقية عائلة «كوفاك» - زوجته وصبى وفتاة فى الحلقة الثانية من عمرهما - وكانوا فى انتظاره بالكثير من العناق ، فأنزل مؤنه ، ثم سرنا إلى النهر لكى نغتسل .

* * *

قالت زوجة «كوفاك» فى ذلك المساء : «كنا نعيش قبل الحرب فى طابق على الطراز الحديث ، ولكن منذ ذلك الحين ونحن نقاسى الكثير من الأحزان — كأننا كنا فى رحلة إلى جهنم — ولذا فنحن سعداء بهذه السقيفة التى نطلق عليها بيتنا — إن لدينا مائدة ومقاعد ، ولكل منا فراشه الخاص ، وقد قام زوجى بصنعها جميعاً من ألواح خشبية خشنة ، وقد لا تكون جميلة جداً ، ولكنها تؤدى الغرض منها ولا أشك فى أن باستطاعتنا تهيئة أمر معيشتنا هنا . ولدينا كذلك بقرة وعدد كبير من الدجاج ، وسوف نزرع حديقتنا وشيكا بالبطاطس والخضر» .

وأضاف كوفاك قائلا : «حقا ، ولدينا من المال ما يكفى لشراء زوجين من الثيران ، وسنبدأ بحرث الأرض حالما يهطل أول مطر ، وسننظر فى أن يكون لنا قدر كبير من القمح ، ولربما نزرع بعض البن فى العام التالى .

وتابعت هى حديثها : «نحن سعداء هنا بقدر ما تتصور . وسنعقد أواصر الصداقة كذلك مع الجالا ... إننا لم نعد بعد فى سن الشباب ، ولذا فقد لا نرى ثمرات كدحنا كلها ، ولكن أولادنا سيرونها ، فمن أجلهم نحاول أن نجعل هذه البقعة خصبة» .

وأضاء وجهها المجهد الواهن بتلك الرؤى التى كانت تتخيلها . وكانت بعض فراشات شبيهة بالخفافيش ترفرف حول المصباح الزيتى ، ويصل إلى آذاننا نقيق الضفادع كأنها آلاف من الجلاجل تتأرجح فى الهواء .

الفصل التاسع عشر

آلهة وشياطين

كان القمر هلالا ، والليلة من ليالى الإلهة «أنيتى» وصوت الطبول البعيدة تتسلل إلى الهواء الراكد ، رتابة غريبة مشئومة تقطعها بين حين وآخر صيحة قرد . وكان كل شىء ساكنا حول شجرة الجميز المقدسة العتيقة . وجلس الرجال جماعة صامتين ، وتحت الأغصان الملتوية وقفت عجوز شمطاء تهمهم بالسحر ، وحينئذ بدأت دقات الطبول هناك كذلك رقيقة متقطعة وهى توقع براحة اليد ، صوت يقف له شعر الرأس - طبل - طبل - طبل .

رفعت الساحرة يديها المرتعشتين نحو الشجرة ، وهزت جسمها يمينا ويساراً ، وتقدم سرب من النساء يرقصن ناحية الشجرة ، وقد وضعن حول أردافهن جلوداً يابسة ثقيلة تقرقع فى كل خطوة ينقلنها ، ووضعن فى شعرهن أمشاطا خشبية وأزهاراً حمراء . رقصن بالقرب من الشجرة ، وبعضهن وضع أكواز ذرة عند قاعدتها ، ووضع البعض الآخر دماً متجمداً وعسلا على الساق . وكن وهن يفعلن ذلك تند عن حناجرهن صيحات غريبة طغى عليها الغناء شيئا فشيئا حتى صمتن ، ثم وقفن يتمايلن تمايلا هادئا رتيباً ، وقد رفعن وجوههن إلى أعلى . . . وكانت لحظة مهيبة .

ودقت الطبول دقات أسرع ، واهتزت معها فى نفس الوقت قرعات مليئة بالذرة . وتلوت أطراف النساء المدهونة بالزيت ، اللامعة الداكنة ورحن فى نشوة ، وتزايدت وحشية الرقص شيئاً فشيئا ، وتحولت أصوات الرقص إلى ما يشبه هدير الإعصار المندفع فى الفضاء . وظل الحشد المجنون وقتاً طويلا يندفع حول الشجرة بعيون شاخصة وأفواه يطفو عليها الزبد .

وتوقفت الطبول فجأة ، وسكن كل صوت وكل حركة ، وسقطت النسوة الراقصات على الأرض كالطيور أصيبت بطلقات قاتلة ، ثم استرخت بيبوسة أجسادهن ببطء ، واستعدن حواسهن . أما المرأة العجوز ، وهى ساحرة وكاهنة فى وقت معاً والتى شغلت كل الوقت بأعمالها الغريبة الشيطانية ، فقد غنت منفردة بصوت أجش خافت ، ثم سارت مبتعدة وهى لا تزال تغنى يتبعها النسوة الأخريات اللاتى كن قد استأنفن رقصهن . وسار الرجال خلفهن يتلكئون .

وألقى القمر بصيصا ضئيلا كالطيف على المكان المهجور ، وكانت أوراق الشجرة المقدسة تلمع بلون أبيض فيه زرقة ، وتتحرك برفق فى نسيم الليل . وسيطر علينا شعور غريب عندما تركنا مخبأنا وراء بعض النباتات الشائكة حيث استطعنا أن نشهد رقص القرابين دون أن نسبب ارتباكا لأحد ، وعدنا فى هدوء إلى المعسكر .

* * *

وأمعنا فى السير جنوباً فأصبحنا بذلك وسط بلاد الجالا — أرض البحيرات الكبرى والسهول الواسعة . وكانت السفانا متموجة تموجاً خفيفا ، ومرقطة بمجموعات من السنط ذى الأزهار الخيمية . وهناك تلال كذلك ، ولكنها منخفضة مستديرة ، لا تقطع انبساط ذلك الريف المنعزل الشبيه بالمتنزه . وتجرى خلالها أنهار صغيرة تنحدر إلى الأرض المنخفضة .

ويعيش فى ذلك الإقليم شعب له تقاليد قاسية عباد أعضاء التناسل ، وصيادوا أعضاء التناسل — وعند بعض القبائل يسير الناس جماعة عندما يخرجون لصيد أعضاء التناسل ، وجرت العادة عند البعض الآخر أن يقوم الفرد بالصيد وحده — وهى طريقة أكثر رفقا — لأنها تقتضى قتل الطريدة ، قبل أن تشوه ، ولا يفعل بها هذا من أجل ذلك الرفق ، ولكن لمجرد إعطاء الصائد فرصة لإثبات شجاعته . وهكذا تعيش كل قبيلة وفقاً للتقاليد التى ورثتها .

ثم تصادفك غابات القرابين وبها أنصاب أعضاء التناسل التى ترتفع عدة ياردات ، رمزاً للحياة والإخصاب ، نحتت وأقيمت فى عهد غابر ، وستجد أيضا قبضات من الحشائش الخضراء موضوعة عند أصل شجرة جميز ، وهى كنيسة الجالا ، حتى على الرغم من عدم وجود زرع حول المكان لمسافة عدة أميال ، فلا بد وأن مجرى مائيا قد اقتلعها من مسافة بعيدة ثم أحضرت لتمنح للآلهة هناك ، ربما التماساً لجودة المرعى .

ويدعى كبير آلهة الجالا « واك » ، وهو رب السموات الذى يعيش فى السحاب ، وهو الذى خلق جميع الأشياء المنظورة وغير المنظورة فى فجر التاريخ . وهناك إله ذكر آخر هـو « أوجليو » ، فى حين أن « أنيتى » تمثل الجوانب الأنثوية .

وهم لا يستطيعون التضحية للآلهة أو الصلاة لها مباشرة ، لأن الآلهة بعيدة وسامية جداً بحيث لا يصل إليها الإنسان ، ولكن سلطانها كبير ، وهذا السلطان ينفذ إلى كل شىء فى الطبيعة ، وهى تتمثل بنوع خاص فى عبادة الجادات ، وأول هذه المعبودات وأهمها شجرة الجميز . ولكن الأنهار والقمر والشمس والتلال والثعابين معبودات كذلك . ويختلف الشىء الذى يعبد من قبيلة إلى أخرى ، ولكنه ليس النهر أو الثعبان فى ذاته هو الذى يبجل ، ولكنها القوة التى تحل فيه — والمعبود الجماد أو الصنم هو وسيلة الاتصال بالإله الذى تتكشف قوته عن هذا الطريق نفسه .

والشخص المختص — الكاهن أو الساحر — الذى يصح أن يكون ذكراً أو أنثى ، يمنح كذلك قسطاً من هذه القوة الإلهية ، وهذه القوة تمدهم بسلطان هائل على القبيلة التى تخاف من حيلهم الخفية . ويقصدهم الناس ليعاونوهم فى التغلب على المرض والعقم أو عدم التوفيق فى الصيد .. وكثيراً ما يكون هذا العمل الأسود

ميداننا التخصص ، ومن ثم يقتصر البعض على علاج المرضى ، فى حين أن البعض الآخر يدفع عن القبيلة الأرواح الخبيثة .

إن الآلهة تقيم بالطبيعة ، وتساعد الناس فى كفاحهم ضد الشر ، ولكن سلطان الروح الشريرة عظيم للغاية . وهناك ثمانية وثمانون روحا شيطانية معينة تصيب الناس بالمرض والشقاء . ولا يملك مساعدتهم ضدها سوى الإله « واك » .

وهناك موسم قصير من السنة يكون فيه « واك » بعيداً فى الشرق يستمع إلى رغبات أعداء « الجالا » أى الصوماليين مادام عدد كبير منهم يتعبد له كذلك . ويقضى الجالا فى أثناء غيبته وقتا فظيعاً مع الثمانية والثمانين شيطانا الذين يقسون عليهم أشد القسوة .

وفضلا عن هذه الشياطين ، فإن الوجود كله مأهول بأرواح لايحدها حصر ، وبمصاصى الدماء الذين يتسببون فى مصائب الناس ويأكلون أرواحهم فى الليل عندما يكونون نياما . والمسألة هى أنك حين تكون نائما تترك روحك جسدك ، فإذا وقعت روحك فى أيدى الأرواح الشريرة فيمكن أن تحدث أشد الأشياء غرابة . يمكن أن تدخل الروح فى أثناء جولتها الليلية جسم ضبع ، ومن ثم فعندما تعود إلى الجسد يصبح ذلك الشخص وفيه شىء من الضباع ولذا فيجب أن يقتل فى الحال قبل أن يتسع له الوقت لارتكاب أى عمل مؤذ .

إن كل شىء يمكن أن يناله السحر ، وكل شخص يمكن أن تسيطر عليه القوة السحرية وتسبب له الشقاء . وباستخدام التعاويذ يستطيع الساحر أن يكشف عن الشخص المذنب الذى يجب أن يترك القبيلة إذا أراد أن ينقذ حياته .

وإذا تصادف أن سقط شخص فى النهر وغرق ، أو افترسه تمساح ، فإننا نقول إنها مصادفة ، مصادفة تعسة بنوع خاص ، ولكن هذه ليست طريقة تفكير « الجالا » ، فالأمر عندهم هو إما أن يكون النهر مسحورا ، وإما أن روحا شريرة قد دخلت الماء ، أو ماهو أخطر من ذلك كله ، وهو أن الآلهة غضبى . وغضب

الآلهة بطبيعة الحال يمكن أن ينزل بأى شخص لاينفذ مايقوله الساحر أو إذا لم يشارك أبناء قبيلته فى أداء الطقوس المقدسة — التى يعتمد عليها كل من الفرد ، والقبيلة كوحدة .

وهم يصلون ، ويقدمون القرابين ، ويرقصون رقصات سحرية لشياطين المطر والخصب ، وللجن والأرواح والآلهة — ويقومون بأعمال يقصدون بها أن تحميهم من الشر وأعمال السحر ، أى يجندون قـوة سحرية ضد قوة سحرية أخرى .

وبعض القبائل يدين بالإسلام . وفى الشمال وحيث يكون للأمهريين إدارة مستقرة دائمة توجد الكنائس القبطية . وتعتبر هذه الكنائس الجالا فى عداد أتباعها كذلك ، ولكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أنهم هجروا آلهة آبائهم ، فهم لا يرون أى ضرر فى معرفة أكبر عدد ممكن من الآلهة ، لأنك إن فعلت ذلك تستطيع الحصول على عون أكبر .

وليس الجالا من الشعوب التى يسهل الاقتراب منها ، لأنهم أبعد ما يكونون عن التودد إلى الأغراب . وبعض القبائل تعادى معاداة مباشرة ، ولكن الموقف يختلف باختلاف الأحوال . فهؤلاء مثلا ابتعدوا عنا خجلين واختفوا بين الأدغال بينما كنا نسير صعداً نقرقع بسيارتنا ، ولكن البعض الآخر لم يخجلوا كثيراً من رمينا بسهم من مخابئهم . وقد تعذر عليهم لحسن الحظ الحكم على مدى سرعتنا فطاشت معظم سهامهم وسقطت على الأرض خلفنا ، ولم يصبنا غير سهم واحد انطلق بعيداً عن دريئة السيارة .

ما أعجب الأشياء التى يمكن أن تحدث لك فى مثل ذلك الوقت الذى توقفنا فيه عند نهر صغير لنتبرد بالاستحمام ، فحين خرجنا من الماء بعد أن تم لنا ماأردنا ، حطمت مزاجنا المعتدل صرخات مفزعة ، وإذا بجماعة من المخلوقات

واندفعت نحونا الهمجية تهبط علينا من المنحدر المرتفع ، مشرعة رماحها ، ولكن على بعد مسافة عشر خطوات منا مباشرة ، فحسبنا أن ساعتنا قد دنت ، وظلوا هناك راقدين على بطونهم ، فارتبكنا خر الجميع ساجدين على وجوههم ، وارتعدت أطرافنا ، ثم انسحبنا فى هدوء ، ولم تستجب شهيتنا بعد الحمام لأكلة من الطعام كنا نتطلع إليها جميعا قبيل ذلك ببضع دقائق . وسرنا بسرعة مبتعدين عن النهر . وسواء حسبونا آلهة أو شياطين فإن ذلك موضع بحث ، ولكن لابد أنهم اعتبرونا أحد هذين .

الفصل الثامن عشر

استشارة بعد غروب الشمس

لم يقع نظرنا على شخص أو كوخ طوال المساء عندما توقفنا وضربنا خيامنا بجانب شجرة « لبن السودان » الماردة . وظاهر أنه لم يكن فى السفانا الصامتة أناس غيرنا . وكنا جالسين بعد أن أكلنا بالقرب من النار وسفانين . وكان ولد Wolde — وهو شاب جالى من أديس أبابا — كان مترجما وخادما لنا — قد فرغ من تنظيم المسكن ثم لف نفسه فى سجادة ورقد لينام .

وران الصمت بعد أن بحثنا حوادث النهار وقررنا خطتنا لليوم التالى ، وجلسنا آنئذ وكل منا سابح فى عالم أفكاره الخاص . وكان هنالك شىء ما يخشخش بين الأدغال فى الظلام ، وعلى مسافة بعيدة مر قطيع من الثعالب العاوية نحو هنالك فى الجنوب ، ناحية حدود كينيا . كانت السماء تضىء بنيران هائلة فى الأستبس ، وكان الوهج يقفز قفزات مفاجئة ، ثم دوت دقات الطبول . [illegible] قبل كل شىء .

وظل قرع الطبول رتيبا بطيئا طوال الليل دون انقطاع حتى مطلع النهار ومن ثم بقينا فى يقظة متصلة . ولم تكن طبول رقص كما توقعنا أولا [illegible] فى الصباح أن طبيبا كان يطبل لاستدعاء أرواحه ، ولذا قررنا أن نحاول البحث عنه ، وقد نستطيع [illegible] أعنى الاتجاه ولكن المحافظة على اتجاهنا فى دغل كثيف كهذا تضطرنا دائما إلى السير فى دوائر [illegible] آخر مختلف كليا [illegible] وكان [illegible] من المحال أن نسير فى الطريق الذى سلكناه ، ولذلك تركنا سيارتنا عند النهر وتابعنا السير على الأقدام [illegible] القرية كلها . وجعلنا ولدى يحمل

جرتها ، وهو عمل احتج عليه فى بادئ الأمر بوصفه لايليق برجل ، أما نحن الآخرين فقد أخذنا بعض علب الطعام الفارغة ، وهى سلعة فاخرة فى منازل هؤلاء البدائيين

كانت الأكواخ مختفية وراء التواء فى الأرض ، ولم نلاحظ أية علامة على وجود حياة فى أثناء سيرنا بينها سوى بعض دجاجات تنبش الأرض الصلبة . لقد كانت القرية مهجورة . ثم سمعنا همسا داخل الكوخ الذى وقفنا بجواره ، وأزيح جلد الثور المعلق فوق الفتحة فانحسر قليلا عن أحد جانبيها ، وراقبتناعين من الداخل مراقبة فاحصة ، وإذن فقد كان هناك أناس ، إلا أنهم صمموا فقط على ألا يكونوا « فى البيت » لاستقبال زائريهم غير المرغوب فيهم . ولم نستطع الاعتراض على ذلك ، فنحن قبل كل شىء رجال بيض فضوليون نتسلل باحثين عن المناظر البهية ، والأمور الخيالية والغامضة والأصيلة ـ وجميع الأشياء التى تفتقر إليها حياتنا اليومية فى الواقع افتقاراً كبيرا . وكان ينبغى علينا أن نحترم شدة إحساسهم بعدم الثقة فينا . فليس من شك أنهم لم يعرفوا قط خيراً جاءهم على أيدى الأجانب ، ويغلب ألا يأتيهم أى خير من هذا الطريق .

وصحنا بعبارات التحية ونحن وقوف هناك بين الأكواخ ، وأكد لهم « ولد » أننا أصدقاء لانريد إلا التحدث معهم وشراء بعض البيض .

وبدأت الحياة بعد هذا الصياح تدب فى الأكواخ ، وانتقل الحديث من كوخ إلى كوخ ، وبدا أنهم لم يتفقوا . وصاح واحد منهم قائلا إننا يجب أن نرحل وإننا لاشأن لنا بأرضهم ، وليس عندهم بيض يبيعوننا إياه ، ولكن المعارضة تزايدت شيئا فشيئا . فدفعت الأستار الجلدية جانبا ، وأخرج الرجال رءوسهم واسترق النساء النظر من فوق أكتافهم . وجعلنا من العلب أكوما فى وسط « الشارع الرئيسى » ويظهر أن ذلك كان أقوى من أن يقاوموه ، فخرجوا مترددين من أكواخهم واقتربوا من العلب . وعندما أخذنا مباشرة فى إعطائها لهم لم

يستطع واحد منهم أن يتراجع . وتسلم « ولد » هداياهم فى شكل بيض ، وبذلك قضى فى أول اتصال على روح الجفاء .

وحتى الطبيب أقبل يترنح تتبعه زوجاته ، وكان يلف حول جسمه قطعة كبيرة من القماش القطنى الخشن ، اليدوى الصنع ويمسك بإحدى يديه ذيل حمار يدفع به الذباب من على وجهه . أما زوجاته فكن ثلاثا يرتدين وزرات من جلد البقر ، أطرافها مزخرفة بحشائش ملونة مضفورة عليها . وتقدمت الكبرى أولا . وكان يبدو عليها الهرم ، وكانت تجاعيد وجهها بالغة العمق ، حتى إن الذباب الكبير الزاحف على جميع أجزاء جسمها ،كان يختفى بينها اختفاء تاما . أما الثانية فكان منظرها كذلك يثير التقزز ، بيد أنها كانت أصغر منها إلى حد كبير . وأخيراً جاءت أصغرهن . وهذه لابد أن كانت فى نحو الثالثة عشرة ، ومع ذلك فهى مكتملة النمو ، وجميلة على الرغم من كل قذارتها . والطفولة ليست طويلة الأمد فى المناطق الاستوائية . وكذلك دور الشباب ولهذا الأمر أهميته إلى حد ما ، فأنت تصبح راشداً بسرعة ، وكذلك تسرع إليك الشيخوخة . ثم تنتهى إلى العجز .

جلس الطبيب تحت شجرة ضخمة قائمة بوسط القرية ، وكان أمامه جذع شجرة دعينا نحن الأجانب إلى الجلوس عليها ، وجلست زوجات الطبيب خلفه مباشرة على الأرض ، ووقف بقية القرويين صامتين على مسافة مناسبة .

وأخبرنا « ولد » فى عبارات رصينة : « أن السيد العظيم الحكيم ، يدعى « كومبى » ، وأنه بلغ المائة والثلاثين من عمره » وسمحنا لأنفسنا أن نشك فى هذا التقدير . لقد كان الرجل مسنا حقاً ، ولكن بلوغه هذه السن كان أمراً غير معقول فهل كان ما سمعه « ولد » صحيحا؟ لم يجب ولد ، ولكن بدا عليه الغيظ . ولذلك لم نبحث الأمر إلى أبعد من ذلك . وعلى الرغم من أن « ولد » قد تلقى تعليمه بإحدى مدارس الإرساليات لعدة سنوات ، وكان المبشرون يعدونه شخصاً غير عادى ، إلا أنه كان واضحا أن خوفه من أطباء قومه لايزال متأصل الجذور فى نفسه .

وقدمت الطائرة من أديس أبابا قاصدة إلى نيروبى وهى تهدر من الشمال ،

ومرت من فوق رءوسنا مباشرة ، وتطلع « كومي » بغضب إلى أعلى ولوح نحوها بذيل الحمار ، فلما اختفت حول نظرته الحانقة إلينا ، وكان الموقف مؤلما لنا إلى حد ما ، فأسرعنا بإعطائه بعض التبغ الذى حشا به فمه وأخذ يمضغه . وأصبح بعد ذلك أكثر توددا لنا وألفة بنا ، وأجاب باختصار عن أسئلتنا التى وجهناها إليه عن طريق « ولد » ، وكان يبصق بين حين وآخر بصقة من اللعاب القاتم من فمه العاطل من الأسنان .

وظل كومي طوال الليل عاكفا على ضرب الطبل لطرد الأرواح الشريرة ، فهو يستطيع شفاء كل مرض وكل شخص ، يقصده جميع الناس من مشارق الأرض إلى مغاربها ليحصلوا منه على الدواء . وكانت الاستشارات الطبية تعطى بعد مغيب الشمس . ولكنه لم يرغب فى زيارتنا له

لم يكن أحدنا مريضا ، ولو كنا مرضى لما شعرنا بحاجة إلى خدمات كومى ، ولذلك لم نستطع الإفادة من ذلك الزعم وإلقاء نظرة على وسائله فى العلاج ، ولكننا بقينا على مداهنته ، وجعلنا منه الطبيب البارع الذى نغبط عليه « الجالا » ، وقلنا فى حسرة ياحبذا لوكان لدينا شخص واحد فى بلادنا يستطيع شفاء جميع الأمراض . ولو جاء كومي إلى بلادنا لاشتهر أمره

وكسبناه بهذا الملق ، وحين خلعت سترتى الجلدية القديمة وألبستها إياه ، أصبحنا صديقين مدى الحياة . وحاولت عبثا أن أشبك أزرارها فوق بطنه السمين ، فأدت محاولاتى هذه إلى أن تضج كل القرية بالضحك حتى ضربوا على أفخاذهم . وكانت كبرى زوجاته تضحك ضحكات هستيرية . وقهقه كومي نفسه كما لو كان يدغدغه أحد دغدغة قاتلة ، وسال لعابه فوق ذقنه .

وأردنا أن نلتقط له صورة ، فكان ذلك سببا فى عدة متاعب . وحملق كومى فى آلة التصوير ، ولكنه لم يمسها حين حاول « ولد » وضعها بين يديه ، وشرح له بعناية ماذا يحدث حين ينظر إليها .

وقال كومي : « لن أفعل إلا مافعله أسلافى ، ولن أنظر إلى هذا الشىء . إنك ستسرق روحى وتبتعد بها ، ولابد أن أموت » .

وأطلعه « ولد » على الصور المنشورة على صحيفة كنا نغلف بها علب الطعام .

وقال ولد : « إن جميع الناس الذين تراهم هنا من العظماء ذوى المكانة الكبرى ، فهل تظنهم يسمحون لكائن من كان بالتقاط صورهم إذا عرفوا أنهم سيموتون بسببها ؟ » .

وتحسس كومي الصحيفة بعناية ، واستغرق وقتاً طويلا .

وتابع « ولد » حديثه قائلا : « ألا تحب أن ننشر لك صورة على صحيفة مع غيرك من العظماء الآخرين . . إنك رجل عظيم جدا فى هذه البلاد . ويجب أن يرى صورتك عدد كبير من الناس ليتحدثوا عن كومي العظيم الذى يملك السلطان على القوى الخفية المستورة .

أخذ كومي يفكر ويفكر ، فقد كان جميع الحديث الذى دار حول شخصه العظيم ، وعن الشرف الذى سيناله ، أقوى من أن يقاوم ، ولذلك منحنا أذنا صاغية .

وبدا عليه بعد قليل ، شىء من الشك . وتجمع حوله بعض الرجال وبحثوا الأمر . أما زوجاته اللائى فررن مبتعدات فى أثناء التصوير فقد رجعن وأخذن ينقنقن لهذا الشىء المخيف الذى حدث . وتصافحنا فى أثناء ذلك ، وقلنا إننا سنزوره فى ذلك المساء ، وتركناه يقلق ويقرر لنفسه إذا كانت روحه قد تركت جسده أم لا .

* * *

كان الغسق على وشك أن يفسح الطريق لليل ، واختفى الذباب المثير دائما بطريقة كالسحر ، واستطعنا أن نترك أيدينا فى راحة ، ونكف عن كفاح النهار اليائس .

وجلس القرفصاء خارج كوخ كومبي خمسة رجال ، كانوا صامتين على غير عادة هؤلاء الناس الثرثارين . وجلس بالقرب من جانب الكوخ عدة نساء يحتمل أن يكن زوجات الرجال . وكانت إحداهن تمسك بشاة ساقها مربوطة إلى أعلى حتى لاتستطيع الجرى ، بل تعرج ببطء على ثلاث أرجل .

وكانت تصدر من داخل الكوخ أصوات بقبقة غريبة ؛ ثم بعض الصياح ، فانتقل الرجال المنتظرون متثاقلين ، وحدقوا بعيون وجلة فى فتحة باب الكوخ التى كان يسقط منها الضوء على وجوههم المرتاعة كلما توهجت النار فى الداخل .

وأخيراً ظهر كومبي يجر طبلة خلفه ؛ ويرجف على عقبيه كما يفعل كلب الصيد الذى أحسن تدريبه . ووضعت زوجته الكبرى بعض جرارها فى الخارج ، وقد اختفى بينها ثعبان . وأشعلت الزوجتان الأخريان ناراً وأحضرتا فحماً من داخل الكوخ ، ثم ركعتا وراحتا تنفخانها حتى تأجج الفحم .

وتقاطر الناس شيئاً فشيئاً ؛ وجلسوا القرفصاء حول النار فى شكل نصف دائرة فى مواجهة كومبي . وبقيت النساء مجتمعات خارج الدائرة على حافة الضوء تماماً .

وأخذ كومبي يدق الطبل بإحدى يديه ، ويهز بالأخرى عصا ويتمتم ، ثم رفع وجهه إلى النجوم . لقد كان يدفـــع الأرواح الشريرة التى تجلب المصائب والمرض .

وألقى بالعصا فى الحال إلى النار ، وأخذ يدق الطبل بكلتا يديه ، ثم ترك جسمه يتثنى يميناً ويساراً وهى حركة كان لها أثر إيحائى مباشر تقريباً على الحاضرين . ولم تكن حالة الذهول بعيدة ، فقد وثب واحد فاستوى على قدميه ، وتبعه آخرون جماعة . وحالما استثيروا بدءوا الرقص وهم يهتزون ويترنحون كأن يد مارد أمسكت بهم من أعناقهم وراحت تحركهم .

وسقط البعض على الأرض ، ورقدوا فاقدى الشعور بعيون شاخصة لاتنبض بالحياة ، وقد تراكم الزبد على زوايا أفواههم . وتوقف دق الطبول ،

ونهض كومبي واقفاً بمشقة تسنده زوجاته ، وسار مجتازاً الجرار ، وقال شيئاً للأشخاص القريبين من النار ، فأجيب بهمس ، وزحف نحو رجلان مريضان حضرا يطلبان الشفاء ، أحدهما كان يشكو ألماً فى بطنه ، والآخر عيناه معتلتان

ورشقت المرأة العجوز ـ ويبدو أنها ممرضة العيادة ـ قطعة صغيرة من الحديد مربوطة إلى عصا ، فى النار ، وبعد هنيهة اهتم كومبي بعين المريض الذى كان راقداً على ظهره فصب فيها سوائل مختلفة أخذها من الجرار ووضعها فى قرن بقرة ثم هزها جيداً وأدخل طرف القرن المدبب بأحد منخرى الرجل ، ثم حشر فمه فى الطرف المتسع ونفخ فيه . ولا بد أن يكون هناك ثقب فى الطرف لأنه بعد أن نفخ فيه قليلا أخذ سائل أسود يتدفق ويسقط على وجنة الرجل ، ثم فعل مثل هذا بالمنخر الآخر ، وبذلك انتهى العلاج . وجلا الرجل حلقه ثم بصق .

كان مريض المعدة مستلقياً هو الآخر على ظهره ، فدعك كومبي جبينه أولا بشىء ما ثم أخذ يلوح بقطعة الحديد الحمراء المتوهجة فوق وجه الرجل ، بينما كان المريض راقداً يرتعد خوفاً ـ ووخز كومبي فجأة بطن الرجل بقطعة الحديد بكل قوته . فرفس الرجل التعس مرة ، وندت منه صرخة ، ولكن كومبي استمر فى عمله ، وعاود وخزه بقطعة الحديد مرات فى مواضع مختلفة ، وامتلأ الهواء برائحة الشواء .

كنا قد رأينا مافيه الكفاية ، فانسللنا فى هدوء مبتعدين ، ولكن صرخات الألم تبعتنا حتى الحافة ، ثم إلى النهر حيث أقمنا معسكرنا حول السيارة .

وبدأ طبل كومبي يدق مرة أخرى بعد ذلك فى القفر مختلطاً بنباح بنات آوى وعواء الضبع الوحيد .

الفصل التاسع عشر

أبناء أوروما



كان الصبي الصغير يلازمني طوال إقامتي بالقرية

لم نقابل شيئا غير التودد بقرية « كومبي » حيث مكثنا هناك ضيوفا بعض الوقت نأكل من طعامهم و نشاركهم حياتهم اليومية .

لقد اجتاز « الجالا » آسيا فى عصور ماقبل التاريخ ، وجاءوا إلى إفريقية بعد أن عبروا بوغاز باب المندب ، واستمروا فى سيرهم صوب الجنوب على طول الساحل إلى تنجانيقا ، ولكن أعداءهم اضطروهم فيما بعد إلى التراجع شمالا ، فطوفوا فى كينيا ثم تجمعوا فى إثيوبيا كالجراد فى وقت من الأوقات إبان القرن العاشر . ولم يعرفوا الخيل قبل مجيئهم إلى هناك ، ولكنهم سرعان ماعرفوا كيف يستخدمونها وأصبح فرسانهم وطرقهم الوحشية فى القتال مصدر رعب دائم لسكان الشمال . ثم وصل إليهم مرض الجدرى فأنقص عددهم إلى درجة خطيرة أفقدتهم فيما بعد شهوتهم للغزو زمنا طويلا ؛ ولكنهم ظلوا تواقين إلى التوغل شمالا ، وكانوا سببا فى نشوب حروب مستمرة ، إلى أن قهرهم الإمبراطور منليك فى آخر القرن الماضى وجعلهم جزءا من مملكته العظيمة الاتساع . ويكون الجالا الآن نحو نصف سكان إثيوبيا وقد أصبح الذين يعيشون منهم فى المرتفعات الشمالية فلاحين مثل الأمهريين الذين يشبهونهم فى الوقت الحاضر ، عقلية وتقاليد . ولما كانت القبائل الخمسون أو نحوها التى تنزل فى الجنوب ، لاتجمعها رابطة سياسية ، فلن تكون مصدر متاعب حقيقية ، اللهم إلا بعض المنازعات القبلية والثورات الصغيرة التى تنشأ دائما هنا وهناك .

ويشتغل الجالا الجنوبيون بالرعى والصيد ولا يستقرون فى الأرض كالخال فى الجسم . وكل فخرهم أن يمتلكوا قطيعا كبيرا من الماشية . والحلم الذى يتحمس له معظم الرجال أشد التحمس هو أن يمتلك الواحد منهم ألف رأس ، لأن ذلك يسلكه فى عداد الطبقة الراقية التى يطلق عليها « الرجال المحترمون » . ويستطيع

الرجل الذى يملك عدداً أقل من هذا ، من الماشية أن ينتسب إلى الطبقة الراقية أيضا ، ولكن يجب أن يكون صيادا ماهراً أو متميزاً بخصائص أخرى .

وعندما يبلغ مايملكه الرجل ألف رأس من الماشية ، فإنه يدعو جميع القرى المجاورة إلى وليمة كبرى ، وتحفر قبل يوم الوليمة حفرة كبيرة فى الأرض ، ويصنع قاعها من طبقة طينية سميكة لاتنضح ، وتملأ هذه الحفرة عشية يوم الاحتفال باللبن المحلوب من قطيعه كله . وبعد أن يتخم المشتركون فى الاحتفال بالأكل ويشربون قدرا من جعة الذرة ويعتدل مزاجهم ، يقفز الرجل إلى الحفرة ويبقى فيها يرش اللبن بينما يرقص الآخرون جميعا حوله ، ويتصايحون ويهتفون .

ويكون ذلك نهاية الاحتفال. وعندما يتعب الزائرون من القفز يناولون القرعات لصاحب القطيع المتعالى ، فيظل يملؤها ، ويتكلم القوم بإسهاب عن مذاق اللبن ودسمه ولكنك لاتستطيع أن تنتقد لبنا لرجل غنى مهما كانت الحفرة التى حفرت كبيرة والماء الذى صب فيها وافراً لتبدو قوية الأثر .

ولا يطلق الجالا فيما بينهم على أنفسهم هذا الاسم العربى الأصل ، الذى يعنى البرابرة ، ولكنهم يستخدمون لفظ « أوروما » وهو اسم بطل أسطورى عاش بالقرب من بحيرة كبرى أنشئوها هم ، فيما يروى الرجال المسنون من قصص . أما الأمهريون المتشامخون الذين يعتبرون أنفسهم أرقى الجميع ، ويحتقرون كل من تجرى فى عروقهم دماء زنجية أكثر مما تجرى فى عروقهم ، فإنهم يطلقون على الجالا « أكلة الرمم » ويشيرون بذلك إلى أن الجالا يحجمون عن نحر ثور ، ولكنهم يأكلون تلك الثيران التى تموت من نفسها

وهم يملئون أيامهم بأعمال هادئة ؛ فبينما يرعى الرجال الماشية ويسوقونها فى مواسم الجفاف بعيداً عن القرية ، يرعى النساء بيوتهن وأطفالهن . ولا يحتاج الأطفال إلى كبير رعاية ، فهم يجرون عرايا بين الأكواخ ، أحراراً يستمتعون بالحياة ، ولكن رغم ذلك فهناك العمل بالقدر الكافى ، فالبعض يسحقون التوابل

التى جمعوها من الغابات والسهول أو يطحنون الحبوب والذرة أو التف التى جلبوها من الأسواق مبادلة بزبدهم الذى يمخضونه فى كيس من الجلد ؛ أو مقابل جلود الحيوان والمسك والعسل . ولديهم نحل لايحده حصر ، ولذا فإن الحصول على العسل يسير إذا علقت له الخلايا فى الأشجار . وشمع العسل سلعة تجارية أخرى صالحة للمبادلة لأنها تصدر إلى الخارج . والمسك إفراز يستخرج من قط الزباد ، ويستعمل فى صناعة العطور ـ ومع أنه فى طوره المبكر لا يمت للعطور بأية صلة ، بل يكون عكس ذلك ، فإن نساء الجالا رغم ذلك يحببن دعك أجسامهن به فتصبح رائحتهن شبيهة برائحة قط المنزل فى حديقة الحيوان .

ويعمل البعض فى صنع وزرات من جلد الثور ، ويعرف البعض الدباغة ويقومون بدباغة الأشياء التى يصنعونها ، ويستعملون فى ذلك عصارات النباتات المختلفة ، يعالجون بها الجلود فى جفنات خزفية كبيرة ثم يثقبون فتحات على طول حوافها بحيث يمكن حياكة بعضها ببعض ويطرزونها بالحشائش الملونة . وبذلك يلبسون وزرة جميلة قوية الاحتمال إلى حد كبير ، ولكنها يجب أن تظل سبع سنوات ، حتى ولو تمزقت فى غضون هذه المدة وأصبحت لاتزيد على مئزر ، وذلك لأن المدة المعينة لبقاء مثل هذه الوزرة هو سبع سنوات .

ونساء الجالا ، هن غجر إثيوبيا ، فهن يضعن الحلى فى آذانهن ـ وعلى رءوسهن ضفيرة من الحشائش والأصداف الصغيرة التى تجمع من على شاطىء النهر ، وتسلك فى عود من الحشيش ، أما شعرهن الذى يجمد بالزبد فلا يجدل منه شىء اللهم إلا ضفائر صغيرة تتدلى غزيرة حــول رءوسهن . وكثيراً مايستخدمن بعض الحشائش المضفورة التى لابد من وضعها كذلك فى الشعر ، ويضعن أساور معدنية حول أذرعهن ومعاصمهن صناعتها فى الغالب جميلة ، ويحتمل أن تكون من أصل شرقى ، نقلت إلى هناك بواسطة التجار العرب .

* * *

كنا فى الصباح الباكر ، وكانت أستار الليل قد انجلت تماما ، وذهب الصيادون فى صف على طريقة الهنود ، وأخذوا يتنقلون فى السفانا حيث يبلل الندى الحشائش الذابلة ، وكان فى المقدمة صاحب البندقية ، يليه عدد كبير من حملة الحراب ، ثم نحن فى آخر الصف .

كنا نرتعد جميعا من البرد ، وكان الهواء الجليدى يصدمنا كلما تنفسنا ، ولكنه كان مفعما بأريج التوابل الذكى ، وكان هدفنا غابة على مسيرة نصف ساعة ، وهى من أشجار الأرز العتيقة ذات الأغصان الهائلة المتهدلة والنباتات المتسلقة ، فهى تحيرك حين تتأملها ، وهى فردوس لجميع ضروب الحيوان .

وتوقف جميع الصف بسبب ثعبان لا يزال أصغر من أن يؤذى ، وتجمعوا حوله ، ووقفوا يتمتمون بأصوات خفيضة ، وظننت أن ليس هناك مكان للتردد ، لجميع الثعابين قذرة ، ورفعت عصاى لأقتلها ، ولكن واحداً منهم قبض على ذراعى ورمانى بنظرة مخيفة وقال لى : « أنقتل صديقنا ؟ » ونظر الجميع إلى نظرة استنكار ، وغطوا الثعبان الصغير بالحشائش ، وسخطت على غبائى ، ثم طلبت من « ولد » أن يسألهم المغفرة . إن عباد الثعابين لا يقتلون الثعابين بطبيعة الحال .

وزحفنا فى حذر على طول حافة الغابة التى يسودها الصمت ، ولم تكن القردة بعد قد بدأت ثرثرتها الصباحية ، ولم يكن هناك طائر يمكن رؤيته أو سماع صوته .

وتردد الرجل صاحب البندقية ، ثم وقف جامداً فجأة دون حركة يقتفى الأثر على الحشائش ، ثم نشق الهواء وتشممه كما يفعل الكلب ، وحينئذ حذا حذوه جميع الصف .

وهمسوا قائلين : « غزلان »

وسار ثلاثة من الرجال على طول حافة الغابة ، بينما تتبع الباقون وعلى رأسهم صاحب البندقية ، آثار حوافر حيوان متقاربة لاتكاد تظهر ، حتى دخلوا الغابة ، وتوقفوا بمكان ما بالداخل ، ثم توزعوا فى خط يعترض الممر ، ووقفوا دون

حراك مختفين وراء الأدغال ينتظرون الثلاثة الآخرين حتى يدفعوا الغزلان نحوهم .

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد ، ولكن سحابة كانت تسير مسرعة اقتنصت أشعتها وعكست على ظلمتنا وميضا ورديا .

وسرعان ماظهرت الغزلان كالأطياف فى ممر الغابة ، قطيع صغير تقدم ببطء نحو الصيادين ووقف بعضها يقضم عنقوداً ، بينما رفعت البقية رءوسها الجميلة مصغية ولو حكمنا بما أظهرته من الهدوء والرصانة وهى تتقدم . فلا يمكن أن تكون قد شمت رائحة الثلاثة الذين كلفوا بمطاردتها ، ولا بد أنها سارت مسافة طويلة قبل أن تتحول وتدخل الغابة .

وتوترت عضلات الصيادين ، واختار كل منهم فريسته ، ورميت السهام فى وقت واحد ، ثم جاء صوت البندقية المدوى ، الذى أهاج الغابة ، فصاحت القردة ، وامتلأ المكان فجأة بحفيف أجنحة المخلوقات الهاربة .

وسقطت غزالتان طريحتين ، ولكن ثلاثاً بينها ظبى وثبت مبتعدة ، ولكنها لم تستمر فى وثبها طويلا ، حتى استقرت وفى جنوبها رماح الصيادين الخفيفة ، وهى مشحوذة النصال كالأمواس ، وسقطت هى الأخرى .

كان القنص موفقاً بصورة مذهلة ، إذ قلما يكون على هذه الصورة من اليسر الحصول على وجبة من الشواء ، وكان ابتهاج الصيادين عظيما ، وقد عزيت هذه النتيجة السارة إلى وجود الغرباء ، وسوف يكون هناك قدر وافر من اللحم لمأدبة الزواج فى ذلك المساء ، وبعثوا برسول إلى القرية لاستدعاء رجال آخرين يعودون بالصيد .

* * *

أوقدت نيران كثيرة فى الفضاء المكشوف أمام الأكواخ ، وشويت عليها قطع اللحم فكانت رائحتها لطيفة داعبت خياشيمنا . وكان هناك ارتباك فى كل

مكان . وكان النسوة يجرين هنا وهناك كالدجاجات المضطربة ، إذ كان عليهن الكثير مما يجب أن ينجز ، وكانت هناك أشياء أخرى كثيرة لم ترد على الذاكرة إلا فى آخر لحظة . ووضعت جرار الجعة وجفنات الملح والتوابل بالقرب من كل نار . وكان لابد من أن تقلب باستمرار قطع اللحم الكبيرة التى وضعت فى الأسياخ .

كان صديقنا الطيب « تاديسا » من كبار ملاك الماشية ، يقيم عرسه . حقيقة أن له زوجة بالفعل ولكنها لم تلد له غير خمسة أطفال .

وقال لنا بابتسامة ماكرة : « لقد توسلت إلىّ زوجتى أن أتخذ لى فتاة من أسرة مخصبة حتى نصبح بسرعة عائلة كبيرة ، وليس بوسع المرء إلا أن يجيب ملتمساً كهذا » .

إن الجالا يحبون الأطفال ، وعندما يلاحظ أن رجلا مايستطيع إعالة أكثر من زوجة واحدة بصورة معقولة ، ويكون معروفاً ومحترما ، فإن زواجه الثانى يمكن تبريره بسهولة ، إذ تذهب الزوجه إلى عائلة الفتاة موضع التفكير ، وتبدأ المفاوضات ، ثم يبنى لها كوخ جديد ـ فكل زوجة يجب أن تكون سيدة مسكنها الخاص ـ ولكن الزوجة الأولى تحتل عادة منزلة خاصة ، وهى تعامل الزوجة رقم ٢ كما تعامل فتاة راشدة .

وعندما يعتزم الجالى الزواج يجب أن يثبت أولا أنه صياد شجاع ماهر ، ولا يكفى لهذا أن يصيد غزالا ، بل يجب أن يكون صيده كبيرا ، وحتى الأسد أو الجاموسة لاتكفى عند كثير من القبائل ، بل على من يريد الزواج أن يقتل رجلا على الأقل من قبيلة مجاورة ، وكلما كثر عدد التذكارات التى يعرضها ارتفع قدره . وقديما ، عندما كان الجالا متحدين ولهم ملوك ، يحكم كل ملك أكثر من خمس قبائل ، لم يكن لأحد أن يختار ملكا قبل أن يبلغ الأربعين ، إلا إذا كان قد قتل عدداً من الرجال إذا ما أضيف إلى سنه ، يصل إلى الأربعين ،

فعندئذ يكون لائقاً . لقد كانوا شعبا فى عدة الحرب على الدوام . ولا تزال هناك قبائل تنشر الرعب فيمن حولها .

وعندما تثبت قيمة الرجل فى هذه الناحية يجب أن يمسك خصلة من الحشيش بإحدى يديه ، وقطعة من لحم البقر بالأخرى ، ويقسم فى حضرة الفتاة وعائلتها أنه سيوفر لها دائما اللحم واللبن وعسل النحل والزبد ، وأن يدفنها عندما تموت .

فإذا ما تم كل ذلك وقبل الرجل ، فإن الخطوة التالية هى دفع التعويض الذى يتقرر وفقا للحالة الاجتماعية للطرفين . وتساوى الفتاة من الطبقة الراقية عدداً من الماشية أكبر مما تساوى فتاة الطبقة الوسطى أو الدنيا . فإذا ما دبر هذا ، أمكن عقد الزواج آخر الأمر .

وقد ذبح ثوران بمناسبة زواج « تاديسا » بالإضافة إلى حصيلة صيد النهار ، فما إن تمّ ذبحهما حتى أخذ الرجال فى سرعة محمومة يسلخونهما . وفى اللحظة التى انتهوا فيها من ذلك وأصبحت الجثتان عاريتين يتصاعد منهما البخار ، ارتمى عليهما الرجال بسكاكينهم الطويلة الفتاكة ، فقطعوا وأربوا كأنهم سرب من الطيور الجارحة ، ثم انسحبوا ملطخين بالدماء وأيديهم ملأى بقطع مستطيلة من اللحم ، وجلسوا فى دائرة حول هيكل الثورين يزدردون القطع ، الواحدة بعد الأخرى ، ولم يمض وقت طويل حتى كانوا قد أتوا على كل شىء . وحملت العظام بعيداً فى الظلام حيث عركتها الضباع عن آخرها .

ثم استؤنفت الوليمة بغزال مشوى ، أسيغ بسيل من جعة الذرة ، وبعد ذلك أخذت طبول الرقص تدوى ، وحتى أولئك الذين التهموا الطعام بنهم كافحوا فى سبيل الرقص . وكان بعضهم يرقص مترنحاً إلى حدما ، فلجعة الذرة تأثير خطير . وهكذا رقصوا حول تاديسا وهم يدورون بسرعة وحرابهم المتوعدة مرفوعة فوق رءوسهم .

وحضر النساء اللائى بقين على هامش الحفلة إلى حد ما ، ومعهن الزوجة . وهنا توقف الرقص وحياها الجميع بصيحات عالية ، وأزيحت عنها وزرتها الجلدية ، وتهيأت لاجتياز طقوس الخصوبة . ووقفت هناك عارية حسنة المنظر ، بينما راح كومبى وزوجته العجوز يلطخان مفارق جسمها بالدم وبسوائل أخرى سحرية من جرانه . وقامت فرقة مختلطة من الأصوات العميقة والأصوات الصادحة بإنشاد أغنية عظيمة ، ثم لفت وزرتها حول خصرها مرة أخرى ، وقادتها النسوة إلى كوخها الجديد ، وسار الرجال مع الزوج فى أثرهن .

وما انتهت هذه الطقوس حتى استؤنفت الأفراح بالرقص ، وبمقادير وافرة من الجعة ، وهى ليست مرهقة بحال ، بدليل أن النساء اشتركن فيها . ولم تعد الطبول بعدئذ مجرد طبول ، بل أصبحت نبضات مشاعر الراقصين أنفسهم ، وتواثب الشيب والشبان تائقين غادين وظلوا يصرخون طول الليل .

* * *

استيقظنا فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى ، وكانت الشمس قد ارتفعت فى السماء ، والخيمة أشبه ما تكون بالحمام التركى . وحطت علينا جحافل الذباب لحظة خروجنا ، فلم تمنح فترة طويلة من السلم لتناول إفطارنا ، فحزمنا متاعنا واجتزنا بالسيارة قاع النهر من حول التل ، ثم صعدنا إلى القرية مرة أخرى حيث وجدنا جميع أصدقائنا قد اجتمعوا لوداعنا . وفى هذه الحرارة القاسية ، سال الزبد الذى وضعوه فى شعورهم فى ذلك الصباح كالجداول وتحدر على صدورهم وظهورهم ، وفاحت منهم رائحة آذت أنوفنا الرقيقة البيضاء .

أما تاديسا الذى قدمنا له ثوراً هدية لزواجه فقد أحضر لنا درعاً من جلد فرس البحر كهدية بمناسبة رحيلنا ، وقدم لنا آخرون صحافاً خشبية ، وخرجا جلديا للمؤن يستخدمونه فى السفر الطويل ، كان مملوءاً بكراتهم المصنوعة من

خليط الزبد والبن المطحون . فى شكل عجينة كثيفة القوام ، وهى دون شك طعام جيد يبعث النشاط فى أثناء المشى الشاق . وينمو البن برياً فى تلك الجهات ، فتجده حيث توجد الأشجار التى تظله ، وفى الغابات . ويقول الناس إن إثيوبيا هى الموطن الأصلى للبن ، وهو أحسن صادراتها . وعندما يحل وقت حصاده ينشغل النساء بقطفه وحمله إلى السوق حيث يشتريه التجار العرب .

وأعطانا كومبى العجوز شريطا رفيعا من الجلد نربطه حول أذرعتنا لكى يمنع الحوادث .

وصاحوا خلفنا عندما سرنا مبتعدين بالسيارة ، قاصدين إلى أديس أبابا : « ناجيجا ! ناجيجا ! » ومعناها « حظ سعيد ! »

الفصل العشرون

طريق

انقلبت سيارة النقل الكبيرة الثقيلة على جنبها فأحدث سقوطها قرقعة ، وأصابتنا كدمات مؤلمة من صخرة طويلة مدببة نفذت من تحت نافذة السيارة ، فتسللنا من النافذة الأخرى وخرجنا وقد أصبنا بدوار ، وجلسنا بجانب مقصورة السائق .

وصاح ماريو فى يأس وهو يتـــأمل ما حدث من دمار : « آه ، يا مريم العذراء ! » . وكان أحد جانبى الجبل شامخاً ساخراً ، وينحدر الجانب الآخر بميل إلى الوادى ، وانتثرت صفائح البنزين هنا وهناك ، واكتسى المنحدر بلون أبيض عقب تمزق أكياس السكر وتهشم قضبان الملح .

كنا على مسافة مائة وخمسين ميلا غربى أديس أبابا ، وكان من المقدر أن ترسل حمولة السيارة إلى المدن الصغيرة هناك حيث يزاول العرب ونفر من اليونانيين والأرمن شتى ضروب التجارة ، فلم يكن الإثيوبيون فى وقت من الأوقات من أصحاب الأعمال ، بل إنهم ليحتقرون التجارة والحرف اليدوية . ويبدو أن كل التجارة كانت فى أول الأمر بأيدى العرب الذين ظلوا حيناً مايحتلون نفس المكانة التى يحتلها اليهود فى أوربا . ومع أنهم كانوا مكروهين من الناحيتين الدينية والسياسية ، إلا أن الحكام والطبقة الراقية ما كانت لتستغنى عنهم لاعتماد كثيرين من هؤلاء عليهم اقتصادياً . وأخيراً انتزع اليونانيون والأرمن هذه المكانة ذات النفوذ وأصبحوا كبار التجار فى البلاد . وصار العرب تجاراً صغاراً يقيمون مظلاتهم فى كل سوق ، أو يطوفون البلاد بقوافلهم مترسمين دائماً وصية النبى فى نشر الدين القويم ، وهو دين يلائم الإفريقيين أكثر مما تلائمهم الديانة المسيحية .

ولكى نصل إلى غايتنا ، دلفنا فى دروب جبلية حول الوديان العميقة ،

واجتزنا قناطر مشيدة من أحجار ضخمة ، كان بأحد جدرانها كوة خاوية محفور عليها عبارة : « السلام لك يا مريم » ولكن لم يكن بها تمثال للعذراء . فإما أن يكون الوقت لم ينفسح للإيطاليين لوضعه ، وإما أن يكون الإثيوبيون قد انتزعوه ، فهم وإن كانوا يصلون للعذراء المقدسة ، إلا أن الكنيسة القبطية تعتبر إقامة تماثيل لها امتهانا لحرمتها .

وكلما ابتعدنا عن أديس أبابا ازداد الطريق سوءاً ، ففى الوديان طغت الأدغال فلم تترك غير ممر ضيق شبيه بالأثر الذى يتركه سير الحيوان على طريق موحل ، وهناك قناطر قليلة ، وعلى الرغم من بناء أساسات لإحدى القناطر فى بعض الأماكن ، فقد عرتها الآن تقلبات الجو وطغت عليها الحشائش والزواحف واتخذت منها الثعابين مأوى مفضلا . وقضينا عدة أيام جالسين مع مؤخر السيارة الغائص فى الوحل ، والطين فى هذه البلاد كثير الملاسة شديد اللزوجة بحيث يصبح الحفر فيه محنة لأى شخص مهما كانت قوة ذراعيه .

ودلفنا إلى ممرات جبلية موحشة ، وكان وجه ماريو آنئذ مجهداً من أثر التفكير العميق ، وكانت عيناه شاخصتين فى خدر إلى جانب الجبل كأنما يحاول أن يلتصق به مع سيارته المزمجرة . وكان الجزء المرصوف من الطريق فى ذلك المكان قد تقطع منذ وقت طويل ، وشققت جميع أجزائه مسارب المياه التى يبلغ عمقها عدة أقدام ، وبرزت الصخور العارية ، وكنا نعلو ونهبط كالقارب فى بحر ثائر مع توفر كل احتمال لسقوطنا فى الهوة ، بل إن عدم سقوطنا كان هو المعجزة — وحين استدرنا لم يكن هناك إلا مكان لا يكاد يكفى إلا لجنب السيارة .

وانبسط وجه ماريو الجامد الملطخ بالدماء والأوساخ ، ذو الشعر الغزير الأسود ، عن ابتسامة باهتة ، وأخرج من جيبه علبة سجائر متغضنة وقدم لى واحدة منها . كان فى الخمسين من عمره كما قال ، وكانت له زوجة وأطفال فى إيطاليا ، لم يرهم منذ ستة عشر عاماً . فلم يكن لديه مال قط يكفى لسفره إلى وطنه ، وهو

واحد من أولئك الذين بقوا بعد التحرير ، إذ كيف كانت تستطيع إثيوبيا الاستغناء عن السائقين والمشتغلين بصناعة الآلات الذين يعملون فى سيارات الركوب والنقل التى تركها الإيطاليون ؟ كان لا بد للبلاد أن تتقدم ، ومهما كان الأمر فماذا كان يستطيع ماريو أن يعمل فى بلاد مزدحمة بالسكان مثل إيطاليا ؟ كانت هذه هى الأسباب التى جعلت ماريو لا يزال يعمل سائقا لسيارات النقل على طرق إثيوبيا الرديئة ، وقد أودع الإمبراطور وجميع الشعب الإثيوبى أعمق حفرة ، طالبا من مريم العذراء الراحة ، وزجاجة من النبيذ الأحمر .

وكان هذا الجزء من البلاد تسكنه الجالا ، ولكنهم من طراز يختلف كل الاختلاف عن سكان السهول الجنوبية المتوحشين ، فقد تعلم هؤلاء الزراعة من الأمهريين الذين يفوقونهم كثيراً فى الكفاية والنشاط ، وإن كان ذلك لا يعنى شيئاً كثيراً . وكان فى الوديان وعلى المنحدرات رقع صغيرة من الأرض الخصبة مزروعة بالذرة والتف والحبوب الزيتية ، وقد حفرت حولها القنوات العميقة لمنع ماء المطر من أن يكتسح كل شىء أمامه .

وكنا قد مررنا بقرية فى أسفل الوادى ، ولذا لم يمض وقت طويل على وقوع السيارة حتى أقبل الناس يجرون ، وجىء بكثير غيرهم واستطعنا بمعاونتهم ، وبواسطة الرافعات أن نعيد السيارة إلى عجلاتها مرة أخرى . ولملم الملح والسكر ، وهبط مامو مساعد ماريو الإثيوبى وجميع القرويين إلى سفح الجبل لدحرجة الصفائح الثقيلة . ومن حسن الحظ أن مامو لم يكن جالساً فوق حمولة السيارة عندما انقلبت ، وهو شىء لا يفعله إلا فى المنطقة الملائمة من الطريق ، وفيما عدا ذلك فهو يطير مباشرة ليزيح الأحجار ، أو ليدلنا على أحسن طريق ، أو يجرى وراءنا إذا كنا مصعدين على الجبل ليضع إسفينا من الخشب تحت عجلة السيارة .

وظل الوادى يومين يدوى بغناء الرجال الموزون فى أثناء كفاحهم فى رفع البراميل الحديدية ، وكان الأطفال يجرون مبتهجين ، صاعدين هابطين ،



أثاث المنزل على أهبة النقل

والنساء يصحن حائات أزواجهن الذين يتصببون عرقاً على العمل إذ كانت أجورهم قدراً معيناً من السكر والملح يدفع عن البرميل لكل مجموعة من خمسة رجال حالما يرفع البرميل ويستقر فى مكانه فوق السيارة ، ولذا لم يتركوا لأنفسهم فسحة من الوقت يتنفسون فيها ، بل كانوا يجرون بأقصى سرعة بين الأحجار والأحراش ويعودون إلى مامو الذى يضع البراميل مكومة فى قلب السيارة .

* * *

كان الوقت متأخراً فى المساء حين توقفنا لقضاء الليلة فى واد جميل ، يجرى فيه نهر صغير ينبع من مساقط مياه تنحدر بقوة على جانب الجبل المشجر ، وتتدفق بسرعة مارة بمزروعات غضة خضراء لتختفى تحت غطاء أخضر . وجمع مامو حطباً للوقود من تحت الأشجار وأحضر ماء لسلق المكرونة ، بينما كان ماريو يفتح ثقبا فى علبة صلصة الطماطم ويفرى بعض البصل .

كنت تستطيع أن تسمع غناء الحشرات المرتفع الحاد ، وقد امتلأ الهواء بصوت نغم الناى الهادئ . وكان هناك طائر عكف على تغريد ثلاثة أنغام جميلة شبيهة بصوت القيثار ، ورحت أحاول الاقتراب منه . فقادنى تسللى إلى منحدر . ثم إلى بعض الأدغال والحشائش ، وتبعت الصوت فى حذر على أمل أن ألقى على الطائر نظرة .

ووجدتنى فجأة ، واقفاً بجوار جرار ضخم ، كان مخبأ تماماً بالنباتات الغضة ، وقد نبتت فيه شجرة نخيل ، وحين درت حوله كشفت عن جمجمة كانت فوق الحشائش ، مكشرة عن أسنانها ، ولمعت أشعة الشمس على سن ذهبية ، ورجعت إلى ماريو العجوز فأخبرته عما وجدت ، فكان على يقين من أنها لواحد من بنى قومه . ورفعنا المكرونة التى كانت تغلى من على النار ، وعدنا معا وبحثنا فى الحشائش بالقرب من الجرار ، فوجدنا عظمة بعد عظمة ، كلها مبعثرة هنا وهناك ،

وصورة مريم العذراء وبعض أزرار من لباس رسمى

وحفرنا له قبراً بالقرب من الطريق ، وقطعنا شجرة تين صغيرة صنعنا منها صليباً .

* * *

أكلنا المكرونة ، وشربنا النبيذ الأحمر ، وجرت الحياة على وتيرتها فى تلك الليلة المعطرة . وكان غناء الحشرات قوياً كما كان دائماً ، وأخذنا نراقب آنئذ ومضات اليراعات الصفراء الضاربة إلى الخضرة ، وكانت تبدو كأنها تلتهب ثم تمضى مبتعدة ، وسرعان ما انتهى كل شىء فلم تبق غير أضواء الحب المتراقصة ، والجم الغفير من المشاعل الحية تتوهج برجفة الحب العنيفة .

وقال مامو إن هناك سباعاً بالقرب منا ، ووضع مزيداً من الخشب فوق النار .

الفصل الحادي والعشرون

قرية

كان الوقت ليلا حين اقتربنا من آخر مكان أراد ماريو زيارته ، وأصبح « الطريق » كله مرصوفا بأحجار مسواة . وتقوم على جانبيه صفوف من أشجار الكافور العالية مزروعة على مسافات منتظمة . ولم يكن من الطبيعى أن تجد معالم حضارية فى مثل هذا المكان النائى ، حيث ينطق كل شىء بوضوح عظيم عن الطبيعة الغشيمة ، ولكن حتى فى ذلك المكان ، كان الوقت ينفسح للإيطاليين لتمهيد طرقهم . وكان يقف على جانب الطريق ثلاثة ضباع حول حمار ميت .

وطرقنا باب منزل صغير لرجل إيطالى ، ففتحت لنا الباب إثيوبية ذات بشرة نقية ، وعلى ثديها طفل يرضع بنهم .

وقال ماريو وهو يقدمها لنا ويربت رأس الطفل الأسود الأزغب بسبابته الملطخة بالزيت : « سيدة البيت » ودخل من باب منخفض وراء المقصف صبى قارب الاكتمال عليه سمات لايخطئها النظر على اختلاط الدم الإثيوبى بالإيطالى لحيانا وهو نعسان .

وقال ماريو للفتى « رومانو ، نريد قهوة وبيضاً . . . أتستطيع تدبير هذا الطلب ؟ » وهز رومانو رأسه موافقا وخرج ليدخل المطبخ .

وقال ماريو موضحاً : « إنه يشرف على العمل هنا ، إذ قلما يأتى والده إلى البيت ، فهو يقود سيارة صهريج على طريق أسمرة ، ويأمل أن يتمكن يوما من العودة للإقامة هنا ، ولكنه يرى عائلته عدة مرات على الأقل كل العام . وماذا أفعل أنا ؟ إننى لأتساءل عما إذا كنت سأستطيع يوماً أن أعود إلى بلدى ؟ » .

وأخرج كتاباً صغيراً بالياً ، وتناول منه صورة ممزقة أيضا لسيدة مع ثلاثة

أطفال صغار واقفين أمامها . وبينما كنا نتناول طعامنا أخذ يتفرس صامتاً في الصورة ، ولم يعدها ثانية إلا حين نهضنا للذهاب إلى فراشنا .

* * *

كانت المدينة سوقا كبيرة بها خليط من الطين والقاذورات العطنة كوم ليكون أكواخا . وقد اهتم الإيطاليون على عهدهم ببناء منازل لموظفى الحكومة هناك ، فشيدوا مساكن جيدة ، وزودوا المخصص منها لكبار الموظفين بأرضية من الفسيفساء ، وزخرفوها بالرخام . ويحتل أضخمها الآن الحاكم الإثيوبى ، ولكن بعضه أصبح خربا لأن الإثيوبيين ليس لديهم شعور بالقيم ، ومن عادتهم ترك الكوخ يقاوم حتى ينهار فوق رءوسهم ليبنوا كوخا غيره بالقرب منه .

والمسافة بين الكنيسة القبطية والمسجد قصيرة ، وعلى حدود المدينة مباشرة تقوم المدرسة وهى حظيرة من الطين وهناك تحت إحدى الأشجار ، يجلس شاب إثيوبى فى ملابس نظيفة بيضاء يعلم الأمهرية لمجموعة من التلاميذ . وكان هؤلاء من جميع الأعمار ، من الصبية الصغار إلى الراشدين من الشبان ، وكان عملا بطيئا بالنسبة لأبناء الجالا ، فعكفوا على الضحك والثرثرة بلغتهم الخاصة ومن ثم كان على المعلم أن يطلب إليهم باستمرار أن يحافظوا على النظام .

وطرق المعلم حافة أسطوانة معلقة على الجدار وقال : « استراحة ! » فأسرع التلاميذ بالخروج مبتهجين ، وكان بعضهم يرتدى السراويل ، ويرتدى البعض الآخر قمصانا فحسب ، والتفت إلى المعلم وقال إنهم لا يحتملون الحضور إلى المدرسة ، وإنه يظن أن الحال كذلك فى بلادى .

وأخبرنى فى مجرى حديثنا عن مدى عظمة الإمبراطور ، وعما عساه كان يحدث لو لم يكن موجوداً ، وأنه لو حدث هذا لما أصبحت إثيوبيا بلداً مستقلا ولمات التعليم . إن حماسة الإمبراطور وقدرته على العمل كانتا مصدر إلهام عظيم لأولئك الذين ـ وهنا اعتدل ظهره ورفع رأسه عاليا ـ يجب أن يضطلعوا

بتوجيه الشعب . ثم تابع حديثه قائلا : « إننى أمهرى وأدرك المسئولية التى تقع على عاتقى ، وأنتسب إلى الحزب التقدمى الناشئ الذى لا يعرف عنه أحد شيئا بعد ، ولكن كثيرين منا سيعرفونه فى يوم من الأيام ، وسنصبح أقوياء وحينئذ سيعرف أولئك اللئام المرتشون الفاسدون ـ الوزراء وأصحاب الجاه ـ ما هى العدالة ، إنهم لا يفكرون إلا فى المال والسيارات الجديدة ، ولا يستطيع الإمبراطور أن يسيطر عليهم ، كما أنه لا توجد هنا مساواة أمام القانون ، ولا يزال الأغنياء يستطيعون شراء حريتهم بالمال . إننى لأخاف حقا مما قد يحدث عندما يموت الإمبراطور فولى العهد لا خير فيه ، وهو ينتسب إلى الحزب الرجعى ، حزب الكنيسة والأغنياء . ولكن الوعى سينتشر عاما بعد عام ، وسيزداد السخط على الأحوال الاجتماعية السائدة . أو تظن أن الفلاحين سيدعون كبار ملاك الأرض يمعنون فى امتصاص دمائهم على الدوام حتى تجف ؟ وهل سيستمرون إلى الأبد يحنون رءوسهم للطبقات الراقية والكهنة الذين يحاولون إبقاءهم على جهالتهم وخرافاتهم ليتمكنوا من نهبهم كما يشتهون ؟ إننى أقول لا . فنحن معشر الشبان أعضاء الحزب التقدمى سنريهم طريق الحرية . . . هل قرأت كارل ماركس ؟ » .

* * *

كان ناظر المدرسة رجلا هنديا ؛ وقد وجدته فى كوخ صغير خلف المدرسة ، راقداً فى فراشه فى دور النقاهة من التهاب رئوى ، وهو مرض شائع فى موسم الأمطار ، وقد سره كثيرا أن يزوره رجل أوربى .

وقص علينا متاعبه فى المدرسة التى كانت تسير بطريقة عشوائية ، وكان عليه أن يعد المكاتب والمقاعد بنفسه ، ولم ترسل إليه أية كتب أو مادة تعليمية ، بل إنه لم يتناول مرتبه منذ أربعة أشهر ، ومن ثم فهو لا يملك مالا يرسله إلى عائلته بالهند ، إلا أن المال من ناحية أخرى لا يجدى أسرته هناك كثيرا ، فقد

وذلك لعجز المحصول حتى أصبحوا على شفا مجاعة ، ولذا فينبغى عليه أن يرجع إلى وطنه ليموت هناك معهم .

وعندما أفرغ كل ما فى صدره . شرع يباهى بنفسه ويتحدث عن كتبه الكثيرة المكدسة على الأرض ، فأيقنت أن هذه كانت المصدر الذى استمد منه المعلم الإثيوبى الشاب أفكاره التقدمية .

* * *

وسمعت من بيت الحاكم نداء العودة إلى النوم . فأخرج المسجونون من وراء سياج السجن ذى الأسلاك الشائكة حيث كانوا يقضون وقتهم طوال اليوم فى صيد القمل من خرقهم البالية ، وسار معهم بعض رجال الشرطة ببنادقهم مسافة غير قصيرة على المنحدر حيث أرخوا سراويلهم جميعا حالما سمعوا كلمة الأمر وجلسوا القرفصاء .

وعاد صف آخر من المسجونين من عملهم فى إصلاح الطرق ، وكانت ملابسهم القليلة أسمالا حقيرة ، والسلاسل تقيد أرجل بعضهم إلى بعض بحيث لاتسمح لهم إلا بالخطوات القصيرة ، وكانت أجسامهم هزيلة تغطيها البثور .

وصاحوا بى هاتفين : « طعام ! طعام ! » ثم توقفوا لحظة ، وركع أقربهم منى على الأرض ، وحينئذ رفسهم الحراس لكى يمضوا فى طريقهم .

الفصل الثانى والعشرون

لم يقتلنى الشانقلة

« لماذا أدفع خمسة أمثال الثمن العادى ؟ » .

آه ، لأنها فى مقتبل العمر ، فى السن المناسبة تماماً ، وهى حسنة التصرف ، وهى فى هذا المجال قوية البنية .. إن اسمها « أليميتو » .

وجرى الرجل بيده على ظهرها بحركة تودد لطيفة ، ونظر إليها فى حنان . نظرة العاشق .

وانقضى كل النهار دون أن نصل إلى شىء من التفاهم . ولكن صاحب البغلة « أليميتو » الحسنة السلوك ، الجميلة ، وهو رجل جالى قذر مهلهل الثياب ، لم يجد بأساً فى ذلك ، فليس للوقت عنده مفهوم ، كما أنه يعرف تمام المعرفة أن جميع البغال الأخرى فى المدينة ذرية الهيئة ، وأنا أبحث عن بغل للركوب يستطيع أن يتحمل المشاق . وعندما تعب صاحب أليميتو من الوقوف جلس القرفصاء ، وهكذا واصل ترديده لفضائل حيوانه اللطيف .

ولكنه عاد فى صباح اليوم التالى إلى جادة الصواب قليلا فوصلنا إلى اتفاق ودى خلال النهار .

كان الطريق هناك قد وصل إلى نهايته ، ولم يكن من المستطاع أن أتقدم بالسيارة إلى أكثر من ذلك ، وكان هو سبب شرائى لبغلة . وقد استأجرت حمالين لنقل أمتعتى ، واعتليت فى حذر ظهر « أليميتو » وأنا على أتم الاستعداد لأن تقذف بى على الفور ، ولكن هذا لم يحدث . ومن ثم قطعت المرحلة التالية من رحلتى راكبا إلى الإقليم المنخفض المتاخم للحدود السودانية .

وأصبحت و « أليميتو » صديقين حميمين ، وكان لها بطبيعة الحال صفاتها الخاصة التى كان لابد لى من التكيف بها ، ولكنها كانت مخلوقا حكيما ، لديها

قدرات ملحوظة فى صحة التقدير عندما تواجه منعرجات على جانبى الجبل المنحدرين ، وفى البلاد الوعرة ينبغى أن يكون بوسعك الاعتماد على بغلك ، وتركها تختار خير السبل . فإذا لم تستطع أن تفعل فمن المرجح أن تدق عنقك بعد قليل .

ويمكن أن تكون « أليميتو » ماجنة . لقد كانت حين نصل إلى قطعة نائتة من الصخر ، ولو كانت بعيدة عنا ، تتوقف عن السير وتدير رأسها إلى هذه الناحية أو تلك كأنها فى شك كبير إزاء خير الطرق وأكثرها ملاءمة . لقد كان مزاحاً لم أستطع أن أستوعبه مطلقا ، وفى كل مرة كان منظر الهوة ، وحركة رأس « أليميتو » المترددة ، يبعثان فى جسدى رعدة الخوف ، وفى كل مرة كان التمثيل ينتهى بأن تدور كالخذروف حول حافة الهاوية مباشرة ، فتكاد تلقينى من فوق ظهرها قبل أن تضع حوافرها فى موضع آمن . وكانت من الوقار بحيث لا تضحك ، ولكنى كنت أشعر أنها تضحك فى سرها مبتهجة .

وفى مساء اليوم الثالث لمسيرنا وصلت إلى القرية وسط عاصفة مرعدة مخيفة ، وكان الظلام قد خيم إذ تأخرنا بسبب أحد الحمالين المتقاعسين خلفنا ، فانتظرناه وانتظرناه ، ثم أرسلت حمالا آخر رجع للبحث عنه ، ولكن مضت ساعات كثيرة قبل أن يعود الاثنان ، وهما يصخبان بعد أن شربا حتى الثمالة ، فجريت بعد ذلك على أن أجعل الحمالين يسيرون أمامنا كلما أمكن ذلك حتى يمكن مراقبتهم .

كان الوقت متأخراً ، والقرية نائمة فيما يبدو ، وأثارت ثرثرة الحمالين نباح الكلاب ، ثم أخذ طفل فى أحد الأكواخ فى الصياح ، وبعد ذلك ظهر بعض الرجال بحرابهم وعلى مظهرهم كل شىء إلا الود .

أتريدون كوخاً ؟ . . لا ، ليس هنا أى كوخ »

كان المطر ينهمر . وكنت مهتاجا غاضبا ، وقدم رجال آخرون ظن واحد

منهم أن بكوخه متسعاً ، وطلب شلناً فضيا لحصل عليه ، وذهبت و « أليميتو » معه . وكان الحمالون قد استظلوا بسقف يحميهم ، وأضاءت بمشعلى جوانب الكوخ ، وكم كانت دهشتى حين وجدت هناك اثنين من البيض ، وكل أسرة صاحب الكوخ والحيوانات الأليفة كذلك ، وحين يتقابل أناس من البيض فى مثل هذا المكان من العالم ، فإنهم يشعرون بالزمالة فى الحال ، ويبدون اهتماما بما يعمل الآخرون ، ولذلك سرعان ماتجاذبنا أطراف الحديث . كان أحدهما مبشراً ، والآخر من الباحثين عن الذهب . ولم نتم كثيرا فى تلك الليلة فقد كان القمل مزعجاً ، وبدا علينا جميعا فى الصباح ، الشحوب والنعاس .

كنا جميعاً نقصد نفس الطريق فى الوقت الراهن على أى حال ، ولذلك ركبنا معاً مجتازين السفانا . حيث كانت الحشائش ترتفع فوق هاماتنا ، ولما كان ذلك عقب هطول الأمطار ، فقد كانت رائعة المنظر ، نضيرة خضراء اللون ، كانت التربة لينة خصبة . وفكرت فى الإمكانيات الهائلة لتلك البلاد . وشعرت بالرغبة فى البقاء وإن كان ذلك غير مجد ، فالرجل الأبيض غير مرغوب فيه هناك .

ولا بد أن يكون المبشر العجوز قد قرأ أفكارى فقد تأوه . وأشار إلى أن عهد الرجل الأبيض فى إفريقية قد ولى ، ثم تابع حديثه قائلا : « لقد جئنا بمواهبنا — بعضها حسن وبعضها قبيح — وسينسى الحسن ويذكر القبيح . . . لقد استيقظ الإفريقى وانتقل من المجتمع القبلى ليصبح شعبا ، وهو يظن أن باستطاعته أن يدبر أمره بنفسه . إن ثلاثين عاما هنا وفى تنجانيقا قد علمتنى كيف تتطور الأمور . لقد كان الرجل الأبيض فى وقت ما - منذ عشر سنوات فقط - السيد الذى يستقبل بالتكريم ، ولكن هذا كله قد انتهى الآن ، أما سبب هذا بالنسبة للإثيوبيين فرده إلى حد كبير ، إلى أنهم كشعب راحوا ضحايا لاحتلال الإيطاليين الغاشم ، فتعلموا منهم مالم يكونوا قد عرفوه من احتقار الإنسانية ، والقسوة والبغضاء . وكان الإثيوبيون تلاميذ أكفاء محاربين ولصوصا وصيادى رقيق ،

كما كانوا هكذا دائما . وهناك عامل آخر هو أنهم رأوا الإيطاليين يعملون كالأجراء، يحفرون الخنادق ويكسرون الأحجار لرصف الطرق ، إيطاليين مهلهلى الملابس فقراء - وذلك فى بلاد يحتقر فيها العمل اليدوى ، ففقد الرجل الأبيض جلاله .

وهم يتسامحون معى كمبشر . ولكن ليس أبعد من هذا الحد ، فإن استطاعوا تعقيد الأمور أو عرقلة سيرى ، فإنهم يفعلون . ولسوء الحظ قلما يختلط المبشر بخير العناصر ، فمعظم أولئك الذين يحتشدون فى مركز الإرسالية إنما يفعلون ذلك للكسب الشخصى ، وما كنت لأبقى هنا يوما واحداً لو لم أكن صاحب رسالة تجاه هؤلاء الناس ويملؤنى الأمل كذلك فى أن أتمكن من تخليص روح واحدة فحسب ، نعم روح واحدة فحسب ، فإن استطعت ذلك لما كان عملى عبثا » .

وودعنى المبشر قرب الظهر وسار نحو الجنوب ولوح لنا بقبعته البالية واختفى بين الحشائش المواجة .

وركبنا ، الباحث عن الذهب وأنا ميممين غرباً ، وهو إنجليزى يدعى كرامر .

قال لى : « لا شك فى وجود الذهب هنا ، وهو لا يحتاج إلا إلى آلات قليلة ، ولكن أحدا لا يتجاسر على استثمار ماله ، إننى أعمل بوسائل بسيطة ولا أزال أعمل هكذا منذ تسع سنوات ، إنها عملية شاقة إلى حد ما : سنة بعد سنة فى نهر، ومعى اثنان من الوطنيين نحفر ونجرف - ونؤمل . ويجرى العمل على ما يرام ، ولكن ليس أكثر من هذا . والآن أريد أن . أوسع عملياتى قليلا » - ثم قال وهو يشير إلى الخلف حيث حمالوه بأثقالهم من المعاول والمجارف : « إنى لآمل فى الكسب العريض الذى يهيء لى العودة إلى الوطن ، فأنا أكاد أجن بالرجوع إلى ضباب لندن الكثيف مرة أخرى » .

كان أمامنا طوال النهار تل رمادى أجرد ، وصلنا إليه أخيراً وسرنا راكبين حول سفحه . كان مشققاً مخدداً ، وكانت الأشجار العاجزة تناضل فى سبيل بقائها على مسافة قصيرة فوق جانبيه . وقاعدته وعرة يشق فيها المسير ؛ صخور مشوشة

وشقوق . وأقلقنا فهداً وقطيعاً من القردة من هجعة العصر ، فاختفت متذمرة وراء التواء صخرى .

وسألنى كرامر : « أستهبط حقيقة إلى الشانقلة ؟ أتدرك أنك تخاطر برقبتك ؟ »

« نعم ، لقد قيل لى ذلك » .

« ألديك بندقية أو أى سلاح آخر؟ » .

« لا » .

« إحم » .

ثم عدنا إلى الحديث بعد فترة قصيرة .

« أتدرك أن قتلك لا يتم بصورة سريعة ، بل بتعذيب مروع ، تترك بعده لتقرر بنفسك متى تموت ؟ » .

« نعم أعرف هذا » .

« ثم إنك عاطل من أى سلاح نارى . . . إحم » .

وتابعنا مسيرنا صامتين ، وكان الحمالون يغنون ، أحدهم يغنى عبارة ثم يرددها الباقون جميعا ، وكانت هذه العبارة « أحمل عبئاً ثقيلا جداً ، وأنا قوى جداً جداً ، ولكن القردة التى لا تحمل شيئاً ، ضعيفة جداً جداً » ثم ينخرط الجميع فى ضحك صاخب . وواضح أن هذه العبارة كانت موجهة إلينا .

وبلغنا نهراً صغيراً يجرى بماء عذب صاف ، فعسكرنا هناك ، وسبحت فى النهر ولكن كرامر أراد الاستحمام بماء ساخن ، فأوقد صبيه ناراً ووضع فوقها قدراً كبيراً من الماء ، وأقام له حماماً ملوبا من الخيش وسط الطريق ، فلم يلبث طويلا حتى امتلأ الحمام واستقر فيه كرامر مسروراً مستمتعاً إلى ساعة متأخرة من بعد الظهر ، فى ظل الأشجار . ثم قدم بعض الناس وأحاطوا بالحمام الذى كان يسد الطريق الضيق كله ، فحيونا وأخذوا ينظرون فى دهشة إلى الرجل الذى بالحمام ، ثم مضوا . وتتابع قدوم الناس ، صفوف برمتها من الرجال والنساء ، وكانت

الأخيرات يحملن على ظهورهن حزماً صغيرة ، حتى لقد كان يبدو كأن هناك سوقا قريبة من المكان . وكان الجميع يحيوننا بأدب وهم يتدافعون نحو الحمام ، وجلس كرامر هناك يرد عليهم تحياتهم ويزداد احمراراً من الغيظ .

وتوقف الناس حالما وصلوا إلى النهر ، وانقسموا جماعات وأخذوا فى كثير من الإشارات يبحثون هذه الظاهرة الشاذة التى رأوها .

كانوا يصيحون من جماعة إلى جماعة قائلين : « لماذا يجلس هناك ؟ » ، ولكن أحداً لم يستطع تقديم تفسير ما .

وكان لابد لنا فى اليوم التالى أن نفترق ، كل فى طريق ، ليذهب كرامر إلى الشمال حيث يبعد عمله فى استخراج الذهب ، بمسيرة يوم ، وعندما حان وقت الوداع قال :

« لدى بندقية ، ولا يؤذينى الهبوط معك إلى الإقليم المنخفض إذا انتظرت يوما أو يومين ريثما أذهب إلى بيتى فأضع متاعى وأحضر بندقيتى »

ورتبنا الأمر على هذا الوجه ، وعاد بعد يومين ببندقيته وبرجل من الجالا ليدلنا على الطريق ويقوم بالترجمة فى المرحلة الأولى من السفر .

وتفاقمت وعورة الإقليم الجبلى شيئا فشيئا ، ومضت الأيام عنيفة مجهدة ، وخيل إلينا أن هذه السلاسل التى تسد طريقنا لن تنتهى فكلما صعدنا قمة وجدنا أمامنا واديا من ورائه سلسلة جديدة من الجبال ، وصادفتنا رخات من الأمطار الثلجية مصحوبة بالبرد والبرق الخاطف للأبصار الذى كان يتواثب من السحب إلى قمة الجبل . وكان هدير الرعد يزلزل الجبال . وقضينا الليالى على المنحدرات مبللين نرتعد برداً ، بينما كانت مجارى المياه ترمينا من أعلى بالأحجار والوحل .

ومضت أيام عدة على هذا المنوال ، ثم ظهر أمامنا فجأة الإقليم الوطىء حيث تنحدر الأرض المرتفعة انحداراً شديداً ، وتلمع مساقط المياه على جانبى الجبل تحت أشعة الشمس ، وفى المنخفضات العميقة يجرى نهر كأنه شريط لامع . كان

كل شىء غائماً غير واضح المعالم ، والسحب السوداء معلقة من تحتنا على مسافة كبيرة ، وكأن التعب قد نال منها كل منال فرقدت هناك لتستريح .

وبدأ الهبوط ، ورحنا ننزلق ونتدحرج ونزحف ونسقط فى الشقوق والالتواءات السطحية ، وكانت المسافة إلى القاع ستة آلاف قدم ، وأخذت حرارة الجو ترتفع كلما هبطنا ، وتتغير الحياة النباتية فى بطء . فحلت محل اللحلاح الشائك الذى يرتفع إلى قامة الرجل ، النباتات ذات العصارة وأحراش الغاب الهندى الكثيفة التى يتعارك فيها صغار الحمير فتحدث جلبة كبيرة وحين وصلنا فى النهاية إلى القاع ، كان علينا أن نكافح حشائش فى ارتفاع الفيل . وأصر دليلنا على أن هناك درباً غير أننا لا نراه . وكان جدار الحشائش الذى يبلغ ارتفاعه خمس عشرة قدماً ينغلق وراءه مباشرة وهو يسير قدماً . وأجهدت بغالنا وتدلت رءوسها بين ساقيها . وكانت الحشائش تلتف حولك كأنها حبال قوية ، وقد تجد نفسك فجأة على الأرض خلف بغلك الذى لا يعيرك التفاتا ، بل يسير مطمئنا سعيداً بتخلصه من حمله الثقيل .

وغنى كرامر أغنية طويلة حزينة غاية الحزن ، وكان قد ألفها بكوخه المنعزل وكان مذهبها : « لأننا إخوة على الدرب البعيد الخفى » مناسبا تماما لظروفنا .

وفى أحد الأيام أصبح الدرب طريقا بالمعنى الصحيح ، واستطعنا أن نتبين معالمه ، وتقوم على طوله ، بوابات من الأغصان بينها مسافات وتبرز منها أشواك يبلغ طول الواحدة منها بوصة ، فكان لابد لنا من الانحناء تحتها لتجنب اشتباكها بنا . وقد أقيمت لإبعاد الأرواح الشريرة ، وكنا نقترب الآن من إحدى القرى ، فأرسلنا الجالى قبلنا حتى لا يكون وصولنا مفاجأة كاملة ، ولكن اتضح لنا أنه لم يهيئهم بالقدر الكافى ، لأننا حين وصلنا راكبين بين الأكواخ المصنوعه من أعواد الغاب جرى الأطفال والكبار مذعورين يطلبون ملاذا ، وقهقه الرجل الجالى وأخبرنا أن البغال هى التى أخافتهم لا نحن ، فهم لم يروا

قط مخلوقات كهذه من قبل . والواقع أن وقتا طويلا مضى قبل أن يجرؤ واحد على الاقتراب منها . وأخذ أحد الرجال هناك يباهى بأنه رأى من قبل رجلا أبيض ، وتقدم بشجاعة لحيانا . وحينئذ تجاسر الآخرون على الاقتراب منا يستحثهم ذلك الرجل الشجاع . وفحصوا متاعنا وخيامنا التى كانت قد أنزلت .

وألفونا شيئا فشيئا ، حتى أن صبيا صغيرا سحب خنجرى من غمده فتنقل من يد إلى يد بين حلقة الجالسين ، وكان الصبى يريد أن يخص به نفسه ، فراح يتبعه من رجل إلى رجل وهو يزجرهم ، ثم تمكن من أن يخطفه من أحدهم على حين غفلة منه وجرى به مبتعدا ، ولكن سرعان ما أمسكوا به ، وأفهموه أن يعيده إلى ، فرفض ببساطة . وأقبل على شاهرا الخنجر وهو يزمجر ككلب الصيد الغاضب ، وحينئذ صفعوه صفعة قوية ولكن ذلك لم يرهبه . ووجد عصا فوخزنى بها فى معدتى كما يفعل بالحربة . ولم يقتنع بنواياى الطيبة إلا حين وضعت قبعتى على رأسه ، ومن ثمة ظل ملازما لى بأمانة من الصباح إلى المساء طوال الأيام التى قضيناها بالقرية .

واستبدلت بملابسى سراويل قصيرة ، واهتم أحد الرجال ببشرتى أشد اهتمام ، فكان يضغط على ساق ويدلكها ، ثم توصل إلى كشف تسبب عنه هياج ، ذلك أنه عندما ضغط بأصبعه ورفعه بسرعة ، ترك علامة بيضاء على الجلد ! !

وجرب هذا فى جلده فلم يظهر عليه شىء ، وضحكت فرأى عندما افتر فمى بالضحك سنا ذهبية فى مقدمة أسنانى ، وكاد لا يتسع لى الوقت لأدفع رأسى إلى الوراء وأقفل فمى لأحول دون إيلاج أصبعه . واجتذبت صيحات الدهشة القرويين فتجمعوا حولى فى هرج كثير صفا ، فى أوله الرجال ، يليهم النساء وفى أخره الأطفال ، وكان لابد لهم جميعا أن يضغطوا بأصبع على ساق ليروا تلك البقعة البيضاء الغريبة . ولم يشأ البعض أن يتنحوا لغيرهم فظلوا يضغطون ويضغطون وحينئذ نالتهم دفعة قوية ممن يليهم فى الصف قلبتهم رأسا على عقب .

وتفرسوا فى فمى ، وشدوا شعرى وهم يقولون : « ضعيف » ، ثم أخذوا يشدون شعورهم وهم يقولون : « قوى » ، فشعر الشانقلة كثيف خشن مجعد ، وهو ينمو فى خصلات صغيرة مثل شعر البوشمان بجنوب إفريقية .

وساد صياح وهياج لانهاية له ـ وأخذ كرامر يضج بالضحك ، لا لشىء إلا أن يكشف لهم عن أن لديه ذهبا هو أيضا بين أسنانه ـ وعندئذ جاء دوره .

أصبحنا بعد ذلك أصدقاء حميمين لأهـــل القرية ، ووجهوا إلينا أسئلة لا حصر لها ورويت حكايات . وعندما أرخى الظلام سدوله ، وأوقدت النيران الصغيرة بأعواد الغاب ، كان كل شىء يدعو إلى البهجة والسرور ، وشووا على النار بعض القردة الإفريقية الصغيرة ، وقطعا كبيرة من بعض الدرنات الصالحة للأكل . وكان مذاقها كالدقيق يميل قليلا إلى المرارة . وقلنا : « لا ، شكرا لكم » على القردة المشوية . إن الشانقلة يأكلون كل شىء يستطيعون الحصول عليه . والثعابين والفيران من الأطعمة الفاخرة ، وهم فى الواقع صيادون مهرة ، ولكنهم الآن لا يجدون إلا القليل من حيوان القنص . ولكى يعوضوا ذلك تعلموا زراعة الذرة ، وعرفوا بطبيعة الحال طريقة تخميرها وصنع مشروب مسكر منها .

وعلى الرغم من أنها كانت المرة الأولى التى يزور قريتهم فيها رجل أبيض فقد تغلبوا على سوء الظن والخجل فى سرعة تدعو إلى الدهشة ، وهم ليسوا متكبرين أو يتعذر الاقتراب منهم مثل الجالا الذين يتنقلون وعلى سحنتهم دائما تعبير يكاد ينطق بقولهم : « احتفظ بمسافة بينى وبينك » . وحتى مع هذا ليس هناك سبب يدعو الشانقلة إلى الثقة بالأغراب . ولقد كانوا فى وقت ما يسكنون بقاعا واسعة من إثيوبيا ولكنهم اضطروا إلى الهرب إلى الإقليم المنخفض الفقير الموبوء بالملاريا عندما هبط عليهم من الشرق سادة جدد ، فاستعبدوا واقتنصوا كالحيوانات حتى استؤصل معظمهم ـ ولاقوا نفس المصير ونفس الاضطهاد الخالى من الرحمة الذى لقيه البوشمان الذين ينتسبون إليهم دون شك .

وكان البوشمان والشانقلة كلاهما فرائس لشعوب أقوى منهم ـ ولم يتحلل الشانقلة من قيود العبودية إلا عند مجيء الإيطاليين . وعندما قبلت إثيوبيا فى الأمم المتحدة فى سنة ١٩٢٣ أصدر الإمبراطور الذى كان آنئذ نائبا للملك ، قانونا بإلغاء الرق ، واعتبر النخاسة جريمة كبرى ، ولكن الجلوس فى أديس أبابا ، وإصدار القوانين شيء ، وموافقة حكام المقاطعات على هذه القوانين أو رفضها شيء آخر ، وهم فى هذه الحالة على التحديد لا يوافقون ـ لأنهم أنفسهم لهم مصلحة كبرى فى هذه التجارة ـ وهكذا لم ينفذ القانون . والواقع أن الناس مافتئوا يباعون ويشترون فى الخفاء فى جميع أنحاء البلاد .

جلسنا بجانب النار ملتفين فى ملاحف اتقاء للبعوض الذى كان يطن حول رءوسنا ، مع عدد لاحصر له من الحشرات اللاسعة . وقد أمسكت امرأة شابة بواحدة من هذه الحشرات فخلعت جناحيها وغرست فى جسمها دبوسا (وكان عرض جسمها نحو نصف أصبعى) ووضعتها فى الرماد الساخن ـ ثم أخرجتها بعد قليل ، وطقطقتها فى فم طفلها الذى كانت تحمله فى كيس من الجلد معلق على كتفها ، ثم أمسكت بواحدة أخرى وشرحت لذة طعمها وحسن مذاقها ، وعرضت فى تودد أن تشوى لى واحدة منها .

ومثل نساء الشانقلة كمثل غيرهن من النساء فى معظم أنحاء إفريقية ، عاملات لاغناء عنهن ودواب لحمل الأثقال ، ولذلك فإن الرجل عندما يريد الزواج ، يأخذ أخته ، أو فتاة أخرى يستطيع أن يغريها بالقيام بدور الأخت ، إلى كوخ والدى زوجته المنتظرة ، وتصبح الأخت عضوا فى عائلة العروس . وتضطلع بالعمل الذى اعتادت العروس أن تقوم به . وفى اليوم التالى لهذا العمل ، يصحب العروس جميع نساء القرية إلى كوخها الجديد ـ وهذا هو كل ما يحدث فى الاحتفال . ولكن إذا عجز الزوج عن الحصول على عضو تذكير رجل يكون قد قتله ، فإنها لاتقبل فى محيط الزوجات الأخريات ـ بل إنها تحتقر ولا يتحدث

إليها أحد . وعندما توشك امرأة على الولادة ، فلا بد أن تذهب إلى النهر لتلد هناك وحدها ، فما يشين الطفل أن يولد فى الكوخ أو فى حضرة أناس آخرين . ولاتستطيع أن تزور أمها إلا بعد أن يسمع صراخ الطفل .

وكانت المجموعة كلها تأتى لتشهد ذهابنا إلى الفراش ، ويقفون جميعا يرمقوننا من خلال باب الخيمة ، فإذا مادخلنا الكلة ضجوا بالضحك وقالوا إننا الآن أموات مدرجون فى الأكفان .

* * *

أصبحنا فى طريقنا مرة أخرى ومعنا رجل شانقلى اتخذناه دليلا وحاديا للغناء . وكانت الأغنية عن طائر وقف على شجرة ، يتغنى بكل شيء رآه . وتنعكس الحياة اليومية للقرية انعكاسا قويا فى تلك الأغنية ، بما فى ذلك ما يحدث تحت الشجرة عندما تذهب المرأة إلى حقل الذرة وتعود منه ، إذ ليس هناك تمييز بين زوجتك وزوجتى فكلاهما سواء .

كانت الحرارة خانقة بين هذه الحشائش الكثيفة وكنا لانكاد نرى السماء الزرقاء . وكان ذباب « تسيتسى » وغيره من الحشرات المتعطشة إلى الدماء ، فظيعة إلى حدما ، ولكن لحسن الحظ لم يكن مرض النوم منتشرا فى تلك الأنحاء . ومن ثم لم تكن ذبابة « تسيتسى » ذات خطر . وهى على أى حال شديدة الإزعاج ويتعذر عليك الدفاع عن نفسك ضدها ، لأنها تستطيع أن تلدغ من فوق طبقات عدة من الملابس وكنا باستمرار نبلغ أنهارا يتحتم علينا عبورها ، وكان مما يبعث النشاط ، ويجدد العزم أن يغمرك الماء إلى عنقك . وكانت الملابس المبللة تساعد على ترطيب أجسامنا لفترة طويلة . وأصبح السير شاقا حتى فضلنا المشى على الركوب .

كان الشانقلى قد سبقنا بمسافة كبيرة ، وأسرعت أنا لألحق به ، بينما بذل كرامر جهدا لكى يستحث الحمالين على الإسراع ، إذ كانوا يتلكئون على مسافة بعيدة

من خلفنا ، ولا بد أننى انحرفت عن الدرب ، فقد زلت قدمى فجأة من تحتى وسقطت بين الأغصان وأعواد الغاب العطنة ، وانقلبت فى الطين البارد رأساً على عقب . وجاهدت حتى استويت على قدمى ، فوجدتنى غائصا فى الماء حتى خاصرتى . وأظلم كل شيء من حولى إذ وجدت كل شيء مسدوداً أمامى مرة أخرى . . . لقد كانت فيما يبدو حفرة قديمة لصيد أفراس البحر أو الفيلة .

واستجاب كرامر أخيرا لصيحاتى ، ومضت فترة انتظار طويله قبل أن يزيح جانباً من السطح المتشابك فأتمكن من رؤية رأسه تطل من فوق . ثم سلط ضوء مشعله إلى أسفل وسألنى مغتاظا عما كنت أبحث عنه فى مثل هذه الحفرة .

فأجبته بمرارة : «كنت أبحث عن مجوهرات ملكة سبأ» .

«ولم لا ؟ يحتمل أن تكون هنا كاحتمال وجودها فى أى مكان آخر» . ثم ذكر لى كثيرا من المعلومات عن طريقة الكشف عن كنز مخبوء فى الكهوف والحفر ، التى قرأ عنها فى كتاب قديم أعطاه له أحد أعمامه عندما كان صبيا ، وكان هناك حد حتى لصبرى ، فانفجرت فيه آخر الأمر ، بل وأسأت الأدب إلى حد ما ، فاختفت رأسه ، ثم عاد بعد قليل متجهم الوجه وأنزل بعض أعواد طويلة من الغاب فتسلقتها .

وأوصلنا فى اليوم التالى إلى قرية كانت تدق فيها طبول ، سمعنا أصواتها من مسافة بعيدة . فأرسلنا الشانقلى فوراً ليقدمنا إلى أهلها وليتأكد من أنهم يرحبون بمقدمنا . بيد أننا قابلنا قبل أن نصل إلى القرية ، نفراً من الأعيان الجامدى الوجوه ، حيونا بأدب جم ولكنهم رجونا ألا نزورهم فهم فى حفل كبير ، حفل جنائزى فى الواقع ، وقد يغضب الأرواح وجود أجانب فيه . وكان من المجازفة بطبيعة الحال إهانة الأرواح ، وهو أمر تبيناه بوضوح تام . ولكن ماذا يحدث لو افترضنا أن وعدناهم بالبقاء خارج القرية ؟ لقد تسبب هذا الاقتراح فى كثير من المحادثات ، والشد والجذب ، ولكن من الواضح أن رفيقنا الشانقلى قدم عنا تقريرا طيبا

إذ سمح لنا بضرب خيمتنا فى بقعة صغيرة مكشوفة خارج دائرة الأكواخ ، ووضع اثنان لمراقبتنا .

وظلت الطبول تقرع دون توقف طوال أربعة أيام بلياليها ، وأكل القرويون وشربوا ، ورقصوا وغنوا ، وكان الترديد على وتيرة واحدة لا تتغير وهو : «انتهت الآن جميع متاعبه فلنفرح له» .

إن فسحة العمر عند الشانقلة ضئيلة للغاية وبلوغ الخمسين هو أقصى ما يأملون فيه ، ونسبة الوفيات عالية جدا وفى كل فئات السن . وفيهم مناعة ضد الملاريا ، فقد ظلوا معرضين للعدوى جيلا بعد جيل عدة قرون حتى اكتسبوا المناعة ضدها . بيد أن هناك كثيرا من الأمراض الأخرى نتيجة لنقص التغذية الذى يتعرضون له . وكان السعال الدرنى شائعا بين الذين قابلناهم ، وتفرض عليهم الأحقاد الدائمة بين القبائل . وكذلك القتل الطقسى ضريبة باهظة وقليل هم الذين يموتون بسبب الشيخوخة .

وإذا كانت الأرملة عند الشانقلة لا تزال شابة ، وترغب فى الزواج من آخر ، فيجب عليها أولا أن تسأل روح زوجها الميت أن يمنحها الإذن بالزواج . وهو إجراء يجب أن تقام له طقوس دينية معينة . ويجب أن تظل قبل كل شيء وفية لزوجها مدى نصف عام ، ثم تذبح عنزاً وهى الحيوان الأليف الوحيد — فيما عدا الدجاج — الذى يقتنيه الشانقلة ، وتقطعها قطعاً صغيرة وترصها صفوفاً خارج الكوخ ، وتصف عليها جعة الذرة ، على أمل أن تشرب الأرواح الشريرة الجعة وتمنحها صداقتها . فإذا ما تم ذلك تجلس منتظرة . فإن جاء طائر وأكل اللحم فهذا يعنى أن روح زوجها قد تقمصت الطائر ، وأنه قبل القربان الذى قدمته ، وأنها حرة فى اتخاذ زوج جديد ، ولكن هذا الإجراء يجب أن يكرر كل عام . وفى كل مرة تحتفل القرية كلها وترقص .

وقيل لنا إن الساحر الذى رغبنا فى مقابلته ، والذى يمارس عمله فى عدد كبير من القرى لايعيش فى القرية التى كنا بها ، بل فى قرية أخرى تبعد بعض الشىء ومن ثم رحنا نحاول مقابلته .

كان كرامر مشغولا كل الوقت بالبحث عن الذهب ، وكان مترجمه الجالى يسأل كل شانقلى نقابله ، وكلما اقتربنا من نهر ثار كرامر كأنه كلب صيد شم رائحة أرنب ، فضفاف الأنهار هى الأماكن التى يوجد بها الذهب بعد أن ترسب منذ عهد بعيد . وما إن نصل حتى ينهمك كرامر والرجلان فى العمل بفئوسهم .

وتقع أهم مناطق الذهب بالإقليم فى أراضى الجالا المنخفضة ، حيث يستخرجه لحساب الدولة ، المسجونون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة . وهى منطقة غير صحية ، موبوءة بالملاريا ، ويستحيل الهرب منها ، إذ يجرى على جانب منها نهر عريض مليء بالتماسيح ، وعلى الجانب الآخر تعيش بعض القبائل الهمجية التى منحت الحق المطلق فى ضرب أى شخص يوجد خارج السياج بالحربة .

وقد تعلقت الآمال الكبار فى شتى الأوقات ، بوجود المعادن بمختلف أنواعها ، والبترول فى تلك الجهات ، ولكن أعمال التنقيب جميعا لم تسفر عن ثمرة وقد اشتهر الإقليم دائما بذهبه ، ولكن الناتج منه قليل . أما منجم الذهب الحقيقى فى إثيوبيا ، فهو أرضها الخصبة وسهولها المعشبة ، والغابات والماشية .

وهناك نهر واحد عنيف التيار ، تكبدنا فى عبوره مشقة لاحد لها . فقد كان من المتعذر اجتياز المخاضة المألوفة التى ارشدنا إليها دليل من القرية السابقة ، عقب هطول المطر مباشرة ، وكانت هناك كذلك آثار لذيول تماسيح على شط رملى فى المجرى . وكان لابد لنا من السير الشاق على طول النهر ، بما فى ذلك دوراننا الطويل لتجنب المناقع قبل أن نعثر على مخاضة نستطيع عبورها إلى الجانب الآخر .

كانت هذه المخاضة زاخرة بالحياة ، فالعظايا تمرق مبتعدة ، والضفادع الهائلة تقفز إلى الماء فنسمع صدى غوصها . وكان الهواء من حولنا كالفقاعة الفائرة ، والحشرات تلاحقنا فى كل مكان ، فكنا نطردها بأيدينا ونحك جلدنا ، وقاسينا منها تياراً جارفاً . وكانت الأصوات المنبعثة من الحشرات والطيور تصم الآذان - الببغاوات الزاهية الألوان تطير هنا وهناك صائحة فى أعالى الأشجار ، وزيز الحصاد (فصيلة من الحشرات) على الجذوع وعلى النباتات المعترشة تتألق وتطلق أصواتا صداحة وصرخات نافذة الفينة بعد الفينة . والجنادب على أرض الغابة ، تقتعد أوراق نباتات ترتفع إلى عدة أقدام ، وتمد يد العون لجوقة الغناء ، بينما كانت القردة الإفريقية ذات الشعر الطويل الأبيض والأسود تحاول الاختفاء وراء أوراق أشجار السنط الرقيقة ذات الخضرة الباهتة .

ووصلنا بعد عناء كبير إلى قرية الساحر لنسمع أخباراً مثبطة للعزيمة ، وهى أنه ذهب لتوه ولن يعود إلا بعد أيام كثيرة .

وهنا أيضا زايل الخجل وسوء الظن ، الكبار والأطفال على السواء . وشعرنا كأننا حيوانات فى معرض ، إذ راح الكبار يتحسسوننا ويفحصوننا من الرأس إلى القدم فكانوا كالأطفال فى فضولهم ، ومازالوا بأزرار قمصاننا حتى نجحوا فى فكها ، ثم كان كل منهم بعد ذلك يرغب فى تجربة لبس القمصان ، وقد فعلوا ذلك كل بدوره ، وأحدثوا عندئذ ضوضاء شديدة وكنا على استعداد للتضحية بقمصاننا على مذبح الصداقة ، ولكنهم حين بدءوا فى جذب سراويلنا كان لابد لنا أن نتردد .

وعلى الرغم من أن كثيرا من متاعنا قد تنقل من يد إلى يد فى القرى التى زرناها ، فإنا لم نفقد منه شيئا قط . فالشانقلى لايسرق ومن عادتهم أنه إذا ثبتت السرقة على واحد منهم ، فهو إما أن ينتحر وإما أن يترك القبيلة ، وهم فى هذا يختلفون عن سكان المرتفعات الذين يسرق الواحد منهم أسمال الآخر متى أدار له ظهره .

وعندما عاد الساحر بعد يومين ، انسحب الجميع إلى مسافة من كوخنا ، ولم تعتر الساحر أية دهشة حين رأى اثنين من الرجال البيض فى وسط قريته ، فهو فى الواقع شخص « يستطيع أن يرى دون شك ماوراء الجبال . وعبر الغابات » كما وصفه لنا أحدهم لدى وصولنا .

واعتبر وجودنا أمراً طبيعيا ، فحيانا بأرق تحية كما لو كنا أصدقاء قدامى ، وقادنا إلى كوخه حيث قدم لنا جعة الذرة فى أناء من الفخار بعد أن نزع من على سطحها بعض الزبد والأقذار . وكان الساحر مختلفاً كل الاختلاف عما يمكن أن تتخيله عن ساحر من سحرة شعب بدائى كشعب الشانقلة .

كان صغيراً جداً ، باسماً ودودا ، فى عينيه بريق الذكاء . يطرح على جسمه معطفا قطنيا ، وكان غنياً ، له ثمانى زوجات فالسحر مهنة مربحة ، والهدايا تنهال عليه باستمرار ، فإن كان تدفقها غير كاف ، فيكفى أن يستنزل لعنة الأرواح الشريرة على رأس من يتأخر ، وهو يستطيع أن يكفل زوجة فى كل عام ، وقد رزق قطيعا من الأطفال يؤسس بهم أسرة من السحرة . وفوق ماتقوم به زوجاته من إنجاب الأطفال ، فإنهن يزرعن القطن الذى تحمله كبراهن مسافة طويلة إلى السوق فى المرتفعات وتبادله بالنقود والأقمشة القطنية الرخيصة والخرز الزجاجى . وقد أدخلت زوجاته لباس الخصر كطراز مستحدث ، ولم تعد النساء يستطعن التجول بعد عاريات ، أو متشحات بمجرد قطة صغيرة تذكارية . لا تعدو أن تكون شريطاً ضيقا من الجلد معقود حول بطونهن ، ومن ثم يكسب الساحر كثيرا من أقمشته ، ومن الخرز الزجاجى وهو يأخذ المعز فى مقابل ذلك ، وتكون جلودها سلعة تجارية أخرى لها سوق رائجة فى المرتفعات . فالساحر كما ترى رجل قدير .

وبعد يومين رأيناه وهو يزاول موهبته الكبرى ، وهى السحر ، ولقد بعث إلينا برسول يخبرنا أن « الروح الأكبر » ستحل وشيكا ، ويسر الساحر أن

تكون بكوخه لنراه وهو يتعبد له ، وكانت هذه الدعوة جديرة بالقبول ، ولذلك سرعان ماتجرعنا قهوتنا ، وذهبنا إلى كوخ الساحر ، أو بالأحرى أكواخه ، إذ كانت له عدة أكواخ يضمها سياج يفصلها عن بقية القرية .

وكان الناس يتوافدون ، وكل منهم يحمل غصن شجرة معينة يعتقدون أنها ملكة الغابة ، وأنها ستجلب لهم الحظ السعيد ، ووضعوا هذه الأغصان خارج الباب قبل دخولهم وسحبت بعض العنزات - وهى تقاوم - إلى الداخل . وعندما تم دفعها ، تبعناها على الأثر ولم يرض مترجم « كرامر » الجالى عن هذا الموقف مطلقا فتشبثت قدمه بالأرض كما فعلت المعز . وكان لابد لنا من جره معنا . وكان واضحاً أن المسرح مقام فى أوسع الأكواخ ، وكان يصدر منه صوت دقات الطبول ، فنحينا جانبا الجلود المعلقة أمام الفتحة الصغيرة ثم دخلنا .

كان الكوخ من الداخل مظلما خانقا ، وفى وسط أرضه نار صغيرة تعكس ظلالا متراقصة حول المكان ، واستطعنا رؤية شبح الساحر القائم منتصباً كالتمثال بجوار أحد الجدران ، والجماعة المتراصة تجلس القرفصاء على الأرض ، وبين الساحر والنار فراغ مكشوف ، وجلسنا بالقرب من المدخل على مسافة مناسبة من الساحر ومعنا الرجل الجالى ، ولم يبعث دوى الطبول والغناء والرائحة الكريهة لكل أولئك الناس غير السرور . وهكذا مضى الوقت مسرعاً ولم يحدث شىء .

وأخيراً ! أخذ أحدهم يجرى على أربع هنا وهناك ويجأر جأراً هائلا كزئير الوحوش ، وأخذ آخرون يدورون إلى الخلف وإلى الأمام فى النار ، وواضح أنها لم تؤذهم . وظل الساحر واقفاً كأنه تمثال منحوت من الحجر .

وارتفع بالأنين والولولة صوت كأنه صوت شخص فى عذاب أليم ، فطغى على أصوت الصراخ والزئير الأخرى . وظهر شبح يزحف ببطء ، ثم ذهب ليرقد ممدد الجسم عند قدمى الساحر يلتمس منه المعونة ضد المرض ، وشتم الساحر

الشبح لأنه لم يحضر الهدايا أو يشترك فى التعبد للأرواح . وولول التعس مذعوراً مرة أخرى ، ووعده الساحر فى النهاية بالمساعدة إن أرادت الروح ذلك ، وإلا فإنه سيموت وشيكا . ولكى يسترضى الأرواح يجب عليه أن يحضر الهدايا قبل ذلك المساء ، وأن يصلى طوال اليوم ، وأمره بالخروج إلى ماوراء الكوخ حيث يوجد هناك فى سقيفة مكشوفة مذبح مشيد من الأحجار الصغيرة ، عليه قصبات من الصلصال تسكنها الأرواح ، ودمى فخارية تمثل عمل الأرواح .

تضخم دوى الطبول والزئير الشيطانى كأنه موجة مد مجنونة ، ودومت أشباح همجية ، دارت ودارت ، وتطايرت شرارات نحو أولئك الذين مستهم الأرواح الشريرة . ومر بالساحر على حين فجأة دور من التشنج الشديد ، فقلب عينيه على أبشع صورة وصاح كمن أصيب بلوثة من الجنون .

واستنفد كل قوتنا ، الإمساك بالرجل الجانى الذى كان يرتعد كأن ساعته الأخير قد وافت . ووعده « كرامر » بالمال والضرب معا .

وصاحت الجماعة المرتاعة : « آه ، أيها الروح العظيم الموقر ، تعال من الطريق الخيرة ، فلا تغضب ولا تقتلنا ! » .

وأجاب الساحر على هذا بصيحات متعاقبة ساخرة ، فى صوت مختلف كل الاختلاف ، ثم قال بصوت هادر :

ألا تعرفون من أنا ؟ إننى ذلك الذى يستطيع تدميركم وإرسال المرض الذى لايستطيع أحد شفاءه ! ! » .

وعندئذ اقترح الناس أن يقبل عنزين لتهدئة ثائرته ، ولكنه زأر قائلا باحتقار : « أهذا كل ما تستطيعون تقديمه لى ؟ » .

وبكى الناس وصلوا ثم اقترحوا أن يأخذ عنزين أخريين ، فوافق على ذلك بعد قليل من الشتائم . ودخل إلى ممر مظلم ، يصل الغرفة بمكان المذبح ، فيما وراء

الكوخ . وكان الناس يعتبرون هذا الممر كأنه هول الأهوال ، إذ فى هذا المكان تسكن الأرواح الشريرة .

ثم نشب عراك عنيف بين ثلاثة أصوات أو أربعة ، هى أصوات الساحر والأرواح ، وأخذت تعوى وينهش بعضها بعضاً . وقد جلس الناس فى تلك الغرفة الفسيحة يرتعدون خوفا ويتتبعون العراك ، وكان بعضهم راقداً كالأموات بقرب النار ، وقد غطى الزبد وجوههم .

وجلجل صوت الساحر مرة أخرى ، لقد تغلب على الأرواح جميعا ، وخضعت لسلطانه .

وكانت تلك إشارة الانصراف ، فخرج كل واحد إلى ما وراء الكوخ ، ورقدوا مكبين على وجوههم حول الحجرة الصغيرة المصنوعة من أعواد الغاب ، التى تضم المذبح . ووقف الساحر فى مدخل « ممر الهول » مشغولا بقطع رقبة عنز ، وجمع الدم ورشت به الدمى . أما « كرامر » الذى حشر رأسه بين القضبان لكى يرى مايجرى فى وضوح فقد أصاب وجهه رشاش كبير لطخه تماما .

وكانت دقات الطبول الشيطانية الموزونة التى تدوى فى الخارج ، والرءوس المشوشة التى تضرب الأرض تكريما للأرواح ، قد أفسحت المجال للعواء المذهل .

الفصل الثالث والعشرون

الرحيل

فتح « جما » لنا الباب لآخر مرة ، وكان حارساً طيباً مخلصاً ، كما كان « مربية » لا بأس بها ، إذ لم يكن يطيق أن يسمع طفلنا يصرخ ، وكان إذا ما سمع صرخة واحدة من المهد الموضوع بالشرفة الممتدة على طول البيت ، أسرع إليه فى الحال ، ويسأل من فى المهد : مندر ناو ؟ (ماذا بك ؟) ثم يهزه برفق يمينا ويساراً إلى أن ينام الطفل مرة أخرى . وهكذا كانت أول عبارة نطق بها الطفل هى « مندرناو » ؟.

كان « جما » مسلما ، والمسلمون بوجه عام أجدر الناس بالثقة . وقد جاءنا مزودا بتزكيات مدهشة عندما أخذنا فى البحث عن حارس ، وأحضر معه أحد أعمامه ضامنا له ، وكان هذا فى خدمة وزير المالية . وبدا كل شيء على ما يرام ، وزاول جما عمله على الفور .

وأحضر الحمال متاعه ، وهو يتكون من فراش قديم به عدة ثقوب ، وكيس به بعض الملابس واستقر جما ، واستراح تحت مطبخنا الذى شيدناه على أربعة أعمدة . وكان يقضى أيامه فى قراءة القرآن وأداء الصلاة المفروضة ، وصنع الطواقى التى يلبسها المسلمون ، وكان يحصل من صنعها على مكسب طيب . وكان يزيل فضلاتنا فى فترات . وعندما تنقطع المياه من الأنابيب ـ وهو حدث كثيراً ما يتكرر ـ كان يجلب الماء من بئر على مسافة بعيدة إلى حد ما ـ وكان عليه أن يحرس الباب كذلك ، ويأتى التجار طوال اليوم بالفاكهة والخضر ، فإن كانت سلعهم جيدة وأسعارهم مناسبة . سمح لهم « جاما » بالدخول . وكان أول من يأتى هو « الرئيس » يحمل ميزانا ذا كفتين يدور حوله دائما بعض الاتهام ، ثم يأتى بعده صف من الصبية بمشنات كبيرة على رءوسهم ، وتأخذ المساومة مجراها ، مع تبادل الممازحة والملاطفة ، فإن لجأ بعضهم إلى القحة الزائدة ، فإن « جما » يقذف به إلى الخارج .

ويجتمع بمسكنه كل مساء نفر من أصدقائه ، فيوقدون نارا صغيرة ، ويحمصون

الفول على طبق من الصفيح ، ويجلسون فى سعادة يمضغونه . ويستمر صوت حديثهم الخافت إلى وقت متأخر من الليل .

وأحضرت السيدة الأرمنية العجوز التى كانت تعيش فى المسكن المجاور لنا ، الطفل الذى كان قد بلغ آنئذ عاما من عمره ، كما جاءت بسلة كمثرى من حديقتها لرحلتنا الطويلة ، ثم قبلت يده وكان يرتدى ثوبا جميلا أبيض ، كانت قد أهدته إياه قبل ذلك ببضعة أيام .

• • •

وقبل قيام القطار بخمس دقائق ، رأينا « الكمسارى » الإثيوبى يلقى بكيس أمتعة على رصيف المحطة حيث وقفنا نودع بعض أصدقائنا الدانمركيين . وعرفنا فجأة أنه كيسنا الذى يضم أغطية طفلنا وملابسه و « قصريته » .

ولم يهتم « الكمسارى » مطلقا باحتجاجنا ومعارضتنا ، وقال إنه يشغل حيزا أكثر مما يجب ، فرحت أبحث عن ناظر المحطة ، وكان رجلا فرنسيا . وصفر القطار ، فاختطفت زوجتى أهم الأشياء الضرورية من الكيس ، مع مجموعة من الفوط وأغطية الفراش والقصرية ، ثم قفزت إلى القطار الذى كان قد تحرك حركته الأولى .

وصاحت صديقتنا المتحيرة التى تركناها والطفل بين ذراعيها : « ولكن الطفل ؟ ألا تريدانه ؟ » .

وفى هذه اللحظة ، وصلت أجرى مع الرجل الفرنسى الذى عنف الكمسارى ، وامتدت أيد كثيرة تخت كيس الأمتعة ، وحملنا القطار بعيداً عن أديس أبابا .

كانت قمة جبل « زوكوالا » المستوية وراءنا تحت أشعة الشمس المكفهرة الخالدة وناولنا رجل عربى كريم كعكات مستديرة ، وأزاحت سيدة عربية خمارها عن وجهها ، ومدت ذراعيها إلى طفلنا الذى تشبث مبتهجاً بحجرها ـ كان لا يزال بين قوم سمر البشرة : وهو لونه المفضل .

الناشر

مؤسسة سجل العرب

بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده

٢٦ شارع شريف باشا - القاهرة

تليفون ٤٩٩٩٩

١٩٦٣

ص

١٩½

طبع الغلاف بمطابع البلاغ